مجلة الدراسات الإيرانية

مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية
عن المعهد الدولي للدراسات الإيرانية

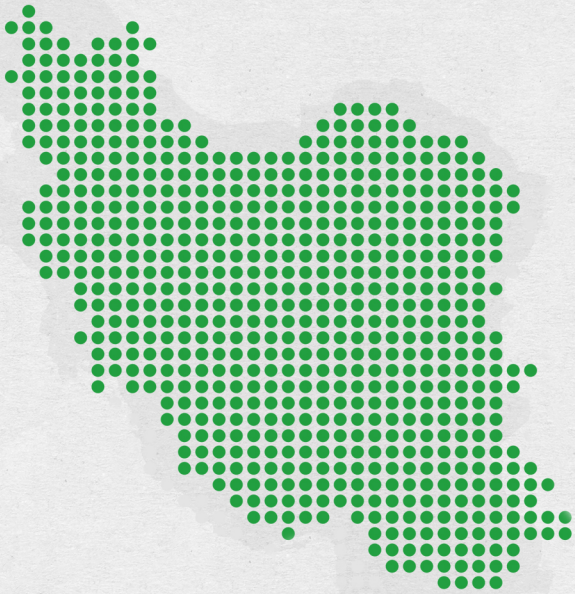

- تأثيرات النموذج التنموي السعودي في الداخل الإيراني
- السعودية الخضراء.. صعود قوة كبرى في مجال الطاقة المتجددة
- دور إيران والفواعل الفصائلية في عملية طوفان الأقصى.. الأدوات ومردود السياسات
- أمريكا اللاتينية.. سوق جديدة للطائرات الإيرانية المسيَّرة
- الفلسفة والسياسة في إيران المعاصرة
- إثيوبيا الحبيسة والتداعيات الإستراتيجية لمساعي الوصول إلى المياه المفتوحة

السنة الثامنة- العدد التاسع عشر - أبريل 2024م

مجلة الدراسات الإيرانية

دراسـات وأبحـاث علميـة متخصصـة

مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية

السنة الثامنة – العدد التاسع عشر – أبريل 2024م

تصدر عن

RASANAH
المعهد الدولي للدراسات الإيرانية
International Institute for Iranian Studies

مجلـة الدراســات الإيـرانيـــة

مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية

المملكة العربية السعودية، الرياض، حيّ الصحافة، طريق الملك فهد
صندوق بريد: 12275 الرمز البريدي: 11473

للتواصل مع المجلة عبر البريد الإلكتروني

JIS@rasanahiiis.com

ISSN: 1658-7464

حقوق النشر محفوظة، ولا يجوز الاقتباس من موادّ المجلة دون إشارة إلى المصدر، كما لا يجوز إعادة نشر الدراسات دون موافقة إدارة المعهد.

www.Rasanah-iiis.org

Rasanahiiis info@rasanahiiis.com +966112166696

ضوابـط ومعاييـر النشـر

- أن تكون الدراسة وثيقة الصلة بالشأن الإيراني.
- أن لا تكون الدراسة قد نُشرَت من قبل أو أُرسِلَت إلى جهة نشر أخرى.
- أن توثَّق الدراسة توثيقًا علميًا، مع العناية بالمصطلحات وضبط أسماء الأعلام.
- يفضَّل إرسال المادة عبر البريد الإلكتروني للمعهد.
- أن تكون المادة أصلًا، وأن لا تُرسَل صورة منها.
- لا تعيد المجلة المادة المرسلة إلى أصحابها إذا لم تُقبَل للنشر.
- يُمنَع إعادة نشر أي مادة من موادّ المجلة دون إذن كتابي من رئيس التحرير.
- تخضع الأعمال المرسلة إلى المجلة للتحكيم قبل نشرها.

JIS@rasanahiiis.com

الهيئـة الاستشاريـة

أ.د.أحمـد الشـاذلـي

أ.د.رضـوان السيـد

أ.د.صـالـح الـخثـلان

أ.د.عبد الحميـد الأنصـاري

أ.د.محمد السعيد جمال الديـن

أ.د.مـهنـد الـمبيضـيـن

أ.د يحيى بن محمود بن جنيـد

د.سلطـان النـعيمـي

د.عبـد الكريـم جـرادات

رئيس التحرير
د. محمد بن صقر السلمي

مدير التحرير
د. محمود حمدي أبو القاسم

هيئة التحرير
اللواء/م. أحمد بن علي الميموني
د. معتصم صديق عبد الله
د. عبد الرؤوف مصطفى الغنيمي
د. محمد السيد الصياد
د. يحيى بوزيدي
أحمد شمس الدين ليلة
حشر مجاهد البدراني
نورة السبيعي
نويد أحمد

سكرتير التحرير
أسماء المطيري
محمود جمعه

إخراج وتنفيذ
هاني ياسين

المحتويات

■ تأثيرات النموذج التنموي السعودي في الداخل الإيراني

د. محمد بن صقر السلمي 7

■ السعودية الخضراء.. صعود قوة كبرى في مجال الطاقة المتجددة

ديمتري زابيلين 31

■ دور إيران والفواعل الفصائلية في عملية طوفان الأقصى..
الأدوات ومردود السياسات

علي بكر 49

■ أمريكا اللاتينية.. سوق جديدة للطائرات الإيرانية المسيَّرة

أمل مختار 69

■ الفلسفة والسياسة في إيران المعاصرة

د.محمد السيِّد الصياد 89

■ إثيوبيا الحبيسة والتداعيات الإستراتيجية
لمساعي الوصول إلى المياه المفتوحة

د. محمد الأمين بن عودة 109

تأثيرات النموذج التنموي السعودي في الداخل الإيراني

د. محمـد بن صقـر السلمـي

أستاذ الدراسات الإيرانية المشارك-جامعة أم القرى

الملخص:

تحاول هذه الدراسة تحليل موقف النُّخَب الاجتماعية والفكرية في إيران تجاه أبرز التحوُّلات التنموية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدبلوماسية في المملكة العربية السعودية، وتفاعلهم تعليقًا عبر المواقع الإلكترونية أو منصَّات التواصل الاجتماعي على هذه التحوُّلات، وبشكل مباشر أو غير مباشر مقارنة الأوضاع الداخلية في إيران بما يجري في المملكة، وذلك بهدف معرفة مدى تغيُّر صورة المملكة في إيران، وكيفية تأثير ذلك. ولهذا، جرى التركيز على المواد التي نُشِرت بعد المصالحة السعودية-الإيرانية في شهر مارس 2023م، وتنوُّع المحتوى محل الدراسة والتحليل من تعليقات الجمهور على المواد المنشورة في الداخل الإيراني، أو باللغة الفارسية، سواء كانت نصوصًا أو مقاطع فيديو، إضافة إلى تفاعل النُّخَب الفكرية الإيرانية مع التطوُّرات في السعودية، عبر مقالات رأي في الصحافة الإيرانية والمواقع الإلكترونية الإيرانية.

الكلمات المفتاحية:

السعودية، إيران، رؤية المملكة 2030، الفقر، البطالة، منصات التواصل الاجتماعي، الاقتصاد، الرأي العام الإيراني.

The Impact of the Saudi Development Model on the Iranian Home Front

Abstract:

This research paper explores the perspectives of Iran's social and intellectual elites regarding significant developmental, social, economic, political and diplomatic shifts within the Kingdom of Saudi Arabia. It examines how these elites engage with and comment on such transformations via online platforms, including websites and social media platforms. The paper also investigates both the implicit and explicit comparisons drawn by Iranians between their country's internal circumstances and Saudi domestic developments. The primary objective is to assess evolving perceptions of Saudi Arabia among Iranians and their implications. Special attention is given to material published after the Saudi–Iran rapprochement deal in March 2023. The paper encompasses a diverse range of content, including public commentary derived from Persian texts and video footage originating from Iran, as well as the views of the Iranian intelligentsia through opinion pieces in domestic publications and websites.

Keywords: Saudi Arabia, Iran, Saudi Vision 2030, poverty, unemployment, social media platforms, economy, Iranian public opinion.

المقدِّمة

على مدى عقْدٍ مضى، ألقت المنافسة الإقليمية بظلالها على العلاقات السعودية-الإيرانية، لا سيّما صورة المملكة داخل إيران، إذ ركَّز الخطاب الرسمي الإيراني على تغذية الصورة السلبية الخاصَّة بالمملكة، لكن في الآونة الأخيرة، أصبح النموذج التنموي السعودية يحظى بانجذاب رسمي إقليميًّا ودوليًّا، بالنظر إلى عديد من التطوُّرات المهمَّة داخليًّا وخارجيًّا، وبالنظر إلى المؤشِّرات والأرقام، التي وضعت المملكة في مكانة مهمَّة على الصعيدين الإقليمي والدولي. وقد كانت إيران من الدول، التي ظهر داخلها تأثير النموذج السعودي، لا سيّما بين النُّخبة وقطاع عريض من الرأى العام الإيراني. وهو رُبَّما ما أثار حفيظة بعض أركان النظام ومؤسَّساته، وذلك باعتبار أنَّ هذا النظام ينظُر إلى المملكة على أنَّها منافس إقليمي، وأن تصحيح صورة السعودية في الداخل ومقارنتها بسياسات النظام ومشروعه تضعه في حرج، وتُفقده سَرْديته حول المملكة، ناهيك بشرعيته.

في هذا إطار هذه التطوُّرات، يُثار التساؤل حول حدود تأثير النموذج التنموي السعودي في الداخل الإيراني؟ وتنبثق عن هذا التساؤل الرئيسي تساؤلاتٌ فرعية، أهمُّها: كيف تفاعلت النُّخَب والرأي العام الإيراني مع التحوُّلات الجارية في السعودية على الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية؟ وكيف تمكن قراءة تأثير ذلك في الداخل الإيراني؟

ستحاول الدراسة الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال تحليل محتوى مواقف النُّخبة والشعب الإيراني، بعد عودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في مارس 2023م، من حيث التطوُّرات الاجتماعية والاقتصادية التي تشهدها السعودية، ودور الإستراتيجيات والخطَط والمشاريع التنموية، التي وضعتها المملكة، في إحداث نقلة تنموية حضارية، وتحسين حياة المواطنين السعوديين إلى مستويات تكاد تقترب من مصاف الدول ذات الاقتصادات الصاعدة في مختلف أنحاء العالم، فقد أثارت نجاحات المملكة في مختلف المجالات ردود فعل نخبوية وشعبية إيرانية ناقمة على النظام الإيراني، الذي تتوافر له إمكانات لا تقِلُّ عن الإمكانات السعودية، بينما ترزح إيران في براثن العُزلة والحصار والضغوط، التي خلَّفت حالة من الأوضاع الاقتصادية والمعيشية المزرية، إذ يفيد ذلك التحليل في كشف مدى تأثير النموذج السعودي في النظام الإيراني، واستمراريته في سياساته الداخلية والخارجية.

وقد اعتمد هذا البحث على مادَّة جمعها الباحث، وهي الأكثر تفاعلًا من حيث الردود، أو أبرز المقالات والتحليلات خلال الفترة التي أعقبت عودة العلاقات بين البلدين، ومحتوى هذه المادَّة يخُصُّ: (1) التعليقات على بيان السعودية بشأن حقل الدرة. (2) المقالات والتعليقات والتحليلات بشأن تصاعُد دور المملكة في الأزمة الأوكرانية. (3) تعليقات الخبراء والنُّخَب وروّاد مواقع التواصل الاجتماعي الإيرانيين

بشأن التنمية في المملكة والنموذج السعودي. (4) التعليقات على فيديو ظهر فيه الإعلامي الرياضي السعودي خالد الشنيف ينتقد أرضية ملعب آزادي، الذي استضاف مباراة فريق النصر السعودي لكرة القدم ونظيره برسبوليس الإيراني في مسابقات البطولة الآسيوية، إذ جرى تحليل مضمون ومحتوى هذه المواد، التي نُشِرت خلال الفترة بين يونيو وسبتمبر 2023م، لتقديم مقاربة أكثر واقعية لمواقف الإيرانيين تجاه التطوُّرات الجارية في السعودية، وتأثير هذه الآراء والمواقف في العلاقات بين البلدين.

أولاً: مواقف وآراء النُّخَب الإيرانية من التطوُّرات في السعودية

بعد عودة العلاقات العلاقات السعودية-الإيرانية، ظهرت مؤشِّرات على وجود تغييرات مهمَّة تخُصُّ صورة السعودية داخل إيران، إذ أصبحت المملكة موضوعًا مُتداوَلًا بصورة أكثر إيجابية على مستوى النُّخَب والرأي العام الإيراني. ويمكن إلقاء الضوء على ملامح هذه الصورة في إيران استنادًا إلى رأي النُّخَب والجماهير في وسائل الإعلام المختلفة، بما في ذلك وسائل التواصل الاجتماعي، وذلك على النحو الآتي:

1. الأداء السياسي للسعودية داخليًّا وخارجيًّا:

كانت من المُلفِت من عيِّنة الدراسة وجود إعجاب داخلي على مستوى النُّخبة والجماهير بالأداء السياسي للسعودية على الصعيدين الداخلي والخارجي، وقد كان واضحًا أنَّ الرأي العام متأثِرٌ بشدَّة بجوانب مختلفة من الأداء السياسي للسعودية، وأهمّها:

أ. دور الدبلوماسية السعودية في النزاعات الدولية: كان من الواضح تشكُّل اتّجاه داخل إيران يرى أنَّ السعودية نجحت في أن تستثمر في علاقات متنوِّعة على الساحة الدولية، بما يخدم مشروعها الوطني، وأنَّ ذلك يعود إلى رؤية قيادة المملكة الشابَّة ممثَّلةً في ولي العهد الأمير محمد بن سلمان، بجانب نُخبة مؤهَّلة علميًّا، إذ أكدت الآراء تأهيل النُّخبة السعودية، ومعرفتها وعلومها، التي مكَّنتها من الحضور المؤثِّر، والتعبير عن الدولة وتمثيلها على أحسن وجه في الخارج، وهي إشادة وثيقة الصِّلة بالإشادة بمكانة السعودية، مقارنةً بإيران في ما يتعلَّق بجودة التعليم. ومن بين ما تتداوله النُّخَب الإيرانية براغماتية التيَّار الحاكم في السعودية، التي كان لها دور كبير في التحوُّل الذي تشهده المملكة. فعلى سبيل المثال، أشادت النُّخبة الإيرانية بالدبلوماسية السعودية، ودورها البارز في حل النزاعات الدولية، وموقف الإيرانيين من اجتماع السلام الذي استضافته مدينة جدة السعودية وحضره ممثِّلون من نحو 40 دولة، بما في ذلك البرازيل وإنجلترا والهند والصين والولايات المتحدة وتركيا وجنوب إفريقيا ودول الاتحاد الأوروبي، لحلِّ الأزمة الأوكرانية، إذ يرى الأستاذ الجامعي محمد مهدي مظاهري أنَّ عقْد هذا الاجتماع في جدة أمرٌ مهم من أبعاد مختلفة، منها أنَّ هذا الاجتماع كان واحدًا من الاجتماعات القليلة، التي استضافتها دولة عربية للتوسُّط من أجل إنهاء

أزمة دولية، وكان دورها في السابق يقتصر في الغالب على المستوى الإقليمي، كالصراع الفلسطيني–الإسرائيلي، والحرب في اليمن، والحرب الأهلية السورية، وانتقال السُّلطة في العراق، والأزمات السياسية في لبنان. واعتبر مظاهري أنَّ استضافة اجتماع دولي لإنهاء حرب روسيا ضدّ أوكرانيا، التي تُفسَّر أيضًا على أنَّها حرب بين الدول الغربية وروسيا، هي مثال جديد يُظهِر جهد هذه الدولة العربية لتأكيد دورها على الساحة الدولية[1]. فيما اعتبر السفير الإيراني الأسبق في السعودية، محمد حسيني، أنَّ اجتماع جدة، على الرغم من أنَّه لم ينجح في وقْف الأزمة الروسية–الأوكرانية، لكنَّه كان بمثابة انتصار كبير للسعودية، ونجح في إخراج قوَّة عُظمى مثل الصين، والقوى الناشئة في النظام الدولي مثل الهند والبرازيل وجنوب إفريقيا، من الحياد السلبي، وعزَّز مكانتها إلى جهات فاعِلة ذات دور إيجابي محايد، فضلًا عن أنَّه خلَقَ مكانة عالمية للسعودية، خصوصًا بعد إقناعها الصين بالمشاركة، لأنَّ بكين لم تشارك الصين في اجتماع السلام، الذي عُقِد في الدنمارك لإنهاء الحرب في أوكرانيا[2].

ب. النموذج الحداثي والتنموي: طرَحَ الإيرانيون مقارنة بين نموذج التنمية في إيران، الذي اعتمد على خطَط خمسية فشلت في تحقيق التقدُّم المنشود، وبين رؤية المملكة، التي جعلتها تسبِق إيران بفارق زمني على صعيد التحديث والتنمية، على الرغم من الموارد التي يتمتَّع بها البلدان. فالسعودية من وجهة نظر النُّخبة الإيرانية نجحت في استغلال عوائد النفط في التطوير والتحديث، فيما لم تستفِد إيران من مواردها النفطية الهائلة، وضيَّعت فُرصة مهمَّة. ويُفيد بذلك علي قنبري، النائب السابق في البرلمان والمساعد الأسبق لوزير الجهاد الزراعي وعضو هيئة التدريس بجامعة «تربيت مدرس»، الذي قال: «نحنُ متخلِّفون بمقدار 15 عامًا عن دول الجوار. نحنُ في أحسن الأحوال متخلِّفون 10 سنوات، وفي أكثر الحالات واقعية متخلِّفون 15 عامًا عن الدول المحيطة، مثل السعودية وتركيا، وغيرهما». لقد فرضت التطوُّرات في السعودية على نُخَب إيران توجيه انتقادات للتيّارات «المحافظة» التي لا تزال تهاجم المملكة، وتحاول النيْل منها، من خلال تشويه الواقع، ووصْف المملكة بأنَّها دولة «غير متقدِّمة» أو «محافظة».

ج. السياسة الخارجية المتوازِنة بين الشرق والغرب: كانت تحرُّكات السعودية الخارجية مجال لفْت انتباه النُّخبة الإيرانية، فقد أشادوا بسياساتها المتوازِنة، وعلاقاتها المتنوِّعة والإيجابية مع كل الأطراف الدولية، وتنويع مصادر الدعم السياسي والاقتصادي، بما في ذلك الحفاظ على علاقات مؤثِّرة مع الأطراف كافة، بما في ذلك الأطراف المتنافِسة والمتصارعة، كالصين وروسيا واليابان والهند والولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي. كما أُشير إلى استفادة السعودية من الظروف الدولية الراهنة في تعزيز مصالحها وتحقيق استقلاليتها، يظهر ذلك في مقال لمحمود سريع القلم،

مستشار الرئيس السابق حسن روحاني وأستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية في جامعة بهشتي، إذ يقول: «أحرزت 6 دول مكانة مهمَّة بين القُوى الوسطى، وهي البرازيل والسعودية والهند وجنوب إفريقيا وتركيا وإندونيسيا. وتعمل هذه الدول الست مع الشرق والغرب، وقد حافظت جميعها على علاقات جيِّدة مع روسيا. ويتمثَّل أساس هذه السياسة الخارجية في الاستفادة القصوى من إمكانيات جميع القُوى العظمى، كما أنَّها تمنح هذه الدول الست القُدرة على لعِب الأدوار والمساومة وخلْق أجواء -التحوُّط-»، ويطرح ذلك مقارنة تلقائية مع سياسة إيران الخارجية، التي بدأت بالتركيز على الشرق والابتعاد عن الغرب، وهي السياسة التي يبدو أنَّها لم تنجح في أن تحلّ مشكلات إيران وأزماتها. فبينما توسِّع السعودية نشاطها الدبلوماسي ودوائر حركتها، وتنخرط باعتبارها طرفًا فاعلًا في النظام الدولي القائم، فإنَّ إيران تتحرَّك في إطار ضيِّق ومحدود ومناهِض لهذا النظام وقِيَمه وقواعده ومبادئه، لهذا تظهر السعودية وسيطًا في أهمِّ الصراعات، وفاعِلًا في مجموعة العشرين، وفاعِلًا إقليميًّا ترغب روسيا والصين في ضمِّه إلى تجمُّعاتها، فيما يذهب رئيسي إلى بعض دول أمريكا اللاتينية وبعض الدول الإفريقية لمواجهة العُزلة والضغوط والعقوبات[3].

د. فاعلية دور السعودية الإقليمي: باتت السعودية أهمَّ لاعب إقليمي من جانب إيران بفضل تبنِّيها سياسة تصفير المشكلات والتهدئة والتعاون. فحسب علي بيغدلي، خبير العلاقات الدولية في صحيفة «آرمان ملي»، فإنَّ «السعودية تسعى لإيجاد تنوُّع وتعدُّدية في المنطقة، كما تحاول إحداث تغيير في العلاقات في المنطقة[4]»، ويرى كوروش أحمدي، الدبلوماسي السابق، أنَّ السعودية تتمتَّع بالشروط اللازمة كي تتحوَّل إلى بوّابة العالم العربي، وقد وجدت بهذه الطريقة فُرصةً غير مسبوقة للتأثير المباشر وغير المباشر في الشرق الأوسط. ستؤثِّر السياسة الداخلية والخارجية لمثل هذا البلد، بلا شكّ في المنطقة بأسْرها. وعلى العكس من ذلك، تُوجِّه النُّخبة الإيرانية انتقاداتٍ للنظام في ما يتعلَّق بدورها الإقليمي، وتوجيه موارد البلاد للمشروع الإقليمي، الذي يتبنَّاه النظام، وذلك بخلاف السعودية، التي وجَّهت مواردها إلى الاقتصاد، وهو ما مكَّنها من أن تصبح قوَّة إقليمية مؤثِّرة. فحسب صادق زيبا كلام، الناشط السياسي وأستاذ العلوم السياسية بجامعة طهران: «بعد 7 سنوات من الحرب في اليمن، وكل تلك النفقات، وخسائر اليمنيين وضحاياهم وتدمير بلادهم، أصبحت السعودية أقوى.. ألا ينبغي أن يتحمَّل النظام المسؤولية عن إهدار المصالح القومية للبلاد في اليمن؟[5]».

هـ. تحسين الصورة وصناعة التأثير: تنظُر النُّخبة الإيرانية بإعجاب إلى جهود المملكة على صعيد القوَّة الناعمة، وتسخير الإمكانيات كافَّة لخدمة هذا الهدف، ويعقدون مقارنة مع صورة إيران على الساحة الدولية. من ضمن الموضوعات المُثارة، الدبلوماسية الرياضية والترفيهية، التي استندت إلى استقطاب النجوم وتنظيم الفاعليات الدولية

الرياضية، وغيرها من الجهود. ويُشير علي فريدوني في صحيفة «ستاره صبح»، إلى ذلك بقوله: «يتنافس السعوديون مع الدول المجاورة، سعيًا لترسيخ مكانة المملكة وجهةً ترفيهيةً -رياضيةً رائدة في منطقة الخليج العربي»، ويضيف: «يسعى السعوديون إلى استخدام الرياضة، خصوصًا كرة القدم، أداةً من أجل الانخراط في الدبلوماسية مع دول العالم».

ومثالًا على المقارنات، التي تجري بين البلدين، فقد لقِيَ تعليق الإعلامي الرياضي السعودي خالد الشنيف، الذي قارن فيه ملعب آزادي بملاعب السعودية قبل 30 عامًا، تأييدًا واسعًا من الإيرانيين في وسائل التواصل الاجتماعي. وكان الشنيف يقارن جودة أرض ملعب آزادي، الذي أُقيمت فيه مباراة برسبوليس الإيراني مع فريق النصر السعودي ضمن منافسات دوري أبطال آسيا، وكانت أرضية الملعب قد تسبَّبت في إصاباتٍ لبعض اللاعبين. ويُشير الجدول رقم (1) لبعض الردود الإيرانية حول تعليقات الشنيف.

جدول (1): نماذج من تعليقات الإيرانيين المؤيِّدة للإعلامي الرياضي السعودي والساخرة من النظام الإيراني:

الردود المؤيِّدة لتعليق الشنيف	الردود الساخرة من النظام والناقدة له
كم هي مُرَّة الحقيقة!	على النظام الإيراني أن يستحيي.
ينبغي البكاء دمًا.	أنا لا أقبل بكلامه أصلًا، عُدنا 100 سنة للوراء.
كم كان كلامه مُحِقًّا!	نحنُ نستغرب حقًّا كيف قبِلوا باللعب في هذا الملعب؟ أعتقدُ أنَّ الأمر سياسي، إذ إنَّهم لم يريدوا للعلاقات بين البلدين أن تتدهور مرَّةً أخرى.
إنَّه يُشير إلى جزءٍ ممّا ابتُلينا به... لا يُوجَد شيء مميَّز.	منذ أن وصل النصر وورونالدو إلى إيران، انكشفت كثير من عيوبنا، وتيقَّنا بأنَّنا أكثر الشعوب والدول تخلُّفًا على جميع الأصعدة.

الردود المؤيِّدة لتعليق الشنيف	الردود الساخرة من النظام والناقدة له
إن كُنَّا متخلِّفين 30 سنة فقط، فنحن راضون بذلك، لكنَّي أعتقدُ أنَّنا متخلِّفون أكثر من ذلك بكثير.	إنَّ لاعبًا قيمته الملايين، إن حصل له التواء في الكاحل، ينفق فريقه ودولته على علاجه بما يعادل بناء ملعب كامل.
ماذا عسانا نقول أمام الكلام الصحيح؟	غريب في الحقيقة.. كيف سمَحَ الاتحاد الآسيوي لكرة القدم باللعب في حظيرة آزادي؟
تعالَ وانظُر إلى كل مكان في إيران، فسينفطر قلبك.	اشكر الله ألف مرَّة [أيُّها الإعلامي] وليس مرَّةً واحدة يوميًّا، بأنَّك لا تعيش في هذه الأرض الخرِبة.
بالضبط، ورُبَّما أكثر من ذلك. لم يكُن لدينا شيء سوى هذا الملعب.	أُقسِمُ أنَّي قُلتُ لصديقي قبل أسبوعين إنَّني أشعرُ بالحسرة.. لماذا لم أُولَد في دولة مثل السعودية، التي كل ما يهُمّ ملكها هو رخاء شعبه. هُنا كل أهداف الحكومة قتل شعبها. يا للحسرة، وألف أسف.
لا ينبغي لأحدٍ أن يحزن، لأنُّه مُحِقٌّ تمامًا في كلامه.	كم هو مهذَّب هذا المذيع! حين يقول إنَّنا متخلِّفون 30 سنة فقط. لقد احترمنا بشكل كبير.
قال الحقيقة، ولا ينبغي أن نوجِّه له الشتائم[6].	

المصدر: إعداد الباحث.

يتّضِح ممّا سبق، أنَّ التطوُّرات السياسية في السعودية، على الصعيدين الداخلي والخارجي، أصبحت مثار إعجاب من جانب النُّخَب الإيرانية، إذ سجَّلت المملكة حضورًا مهمًّا في المحافل الدولية، وكان لها دور بارز في تقديم مبادرات ذات طابع دولي وإقليمي، تتواكب مع تطلُّعات المجتمع الدولي، وتستجيب للمواجهة الجماعية للمخاطر. ويتّضِح ذلك في سياساتها المناخية، ومشروعها للشرق الأوسط الأخضر، إضافة إلى ذلك أصبحت السعودية عاصمة للدبلوماسية الإقليمية، ووسيطًا لتسوية النزاعات.

2. الأداء الاقتصادي:

كان من المُلاحَظ وجود اهتمام من جانب الإيرانيين بعديد من القضايا الاقتصادية المتعلِّقة بالمملكة العربية السعودية، غطَّت غالبية جوانب الاقتصاد والتنمية داخل المملكة، وقارنوا بينها وبين الوضع في الاقتصاد الإيراني، مع الحسرة واليأس في بعض الأحيان.. وتمكن الإشارة إلى الجوانب، التي حظِيَت باهتمام من جانب الإيرانيين، على النحو الآتي:

أ. النمو الاقتصادي والاستثمار البشري: تحدَّث مستشار الرئيس السابق والأستاذ الجامعي المرموق محمود سريع القلم، عن مجموعة من الملاحظات الاقتصادية الإيجابية، التي استشفَّها من خلال مشاركة وفد المملكة العربية السعودية في منتدى دافوس الاقتصادي السنوي 2023م، وهي كما يصفها[7]:

(1) تفاؤل السعوديين ونظرتهم المستقِرَّة والإيجابية تجاه المستقبل الاقتصادي.

(2) ارتقاء مهارات اللغة والتحليل للوفد المشارك، التي تعكس جودة رأس المال البشري، خصوصًا التعليم داخل المملكة.

(3) تحقيق معدل نمو اقتصادي من بين الأعلى في العالم (8,7%)، وخطَط استثمارية لتعظيم حجم الثروة والاحتياطات النقدية، للوصول إلى 2 تريليون دولار بحلول 2030م.

(4) تحقيق مكانة مهمَّة بين القُوى الوسطى العالمية، وهي البرازيل والسعودية والهند وجنوب إفريقيا وتركيا وإندونيسيا، مع الحفاظ على علاقات جيِّدة مع الشرق والغرب.

وفي ذات السياق، وصف على قنبري، الأستاذ الجامعي والنائب البرلماني السابق، وضْع التنمية في بلاده، مقارنةً بالسعودية، قائلًا: «نحن متخلِّفون بمقدار 15 عامًا عن دول الجوار. نحُن في أحسن الأحوال متخلِّفون 10 سنوات، وفي أكثر الحالات واقعية متخلِّفون 15 عامًا عن الدول المحيطة، مثل السعودية وتركيا وغيرهما».

وقال الخبير الاقتصادي وحيد شقاقي: «إن لم نتمكَّن مع العقد الحالي (2020–2030م) من تحقيق نمو اقتصادي مرتفع، سيكون من المستحيل بالنسبة لنا الوصول إلى اقتصاد السعودية»، وأضاف: «دخلت السعودية الموجة الثالثة من المعرفة، وأحدثت تغييرات جوهرية في الاقتصاد المرتكز على المعرفة، وتغيَّر نظام الثروة لديها، وباتت تستفيد من العناصر المولِّدة للثروة، مثل الاقتصاد الافتراضي والذكي والأخضر والطاقات المتجدِّدة، بينما لا نزال نعيش في مرحلة الموجة الثانية».

أمَّا عن جودة التعليم والاهتمام بالصحة، فقال إحسان بداغي، الكاتب الصحفي: «حسب نتائج اختبار بيرلز لجودة التعليم في المدارس، وقعت إيران في قعْر الجدول من بين 57 دولة مشاركة، ولم يتخلَّف عنها سوى الأردن ومصر والمغرب وجنوب إفريقيا. بينما احتلَّت السعودية مركزًا أفضل، مقارنةً بإيران. وتخطّط السعودية لزيادة

عـدد سُكّانهـا بنسـبة 50% حتـى عـام 2030م، بينمـا تمنـع إيـران اختبـارات الكشـف عـن وجـود إعاقـة لـدى الجنيـن، وتصعِّـب الوصـول إلـى أدوات منْـع الحمـل، وبعـد ذلـك يصِـف كثيـر مـن السياسـيين الإيرانييـن حُكام السـعودية بالرجعييـن والجاهليـن!».

وتؤكِّـد هـذه الآراء ترسُّـخ النظـرة الناقمـة مـن النُّخَـب الإيرانيـة تجـاه أوضـاع بلادهـم الاقتصاديـة والبشـرية، فـي مقابـل، ليـس فقـط الإعجـاب بالتنميـة الاقتصاديـة السـعودية، بـل التيقُّـن مـن الهـوَّة الكبيـرة بينهـم وبيـن الاقتصـاد السـعودي، واليـأس مـن اللحـاق بـه علـى المـدى القصيـر، فـي ظـل اسـتمرار الأوضـاع السـائدة. وبالتـوازي مـع آراء النُّخَـب، فـإنَّ آراء المجتمـع تسـير فـي ذات الاتّجـاه بحجـم هائـل مـن الإعجابـات، اقتربـت مـن نصـف مليـون إعجـاب لبعـض المشـاريع التنمويـة والريـاديـة بالمملكـة (انظـر جـدول 2).

جدول (2): يضُمُّ أبرز مشاريع التنمية والموضوعات المتعلِّقة بالسعودية التي لاقت إعجاب الإيرانيين على المواقع ووسائل التواصل:

الموضوع	عدد الإعجابات
مشاريع التنمية في المملكة-المكعَّب الذهبي بالرياض	476000
أحدث مدينة في العالم، «ذا لاين» السعودية	112125
قيمة أُصول صندوق الاستثمارات السعودي تصِل إلى 600 مليار دولار	17560
البيان السعودي بأحقِّيتها فقط والكويت في حقل الدرة	14482
مقال الدكتور محمد السلمي رئيس معهد «رصانة» على موقع «عصر إيران»، تحت عنوان: «تنافُس النماذج في منطقة الشرق الأوسط».	1450
اجتماع جدة بشأن أوكرانيا – موقع «دويتشه فيله – إنستغرام»[8]	4773

المصدر: إعداد الباحث.

ب. السياسـات والتخطيـط الاقتصـادي للمسـتقبل: مستشـهدًا بالمقارنـة بكفـاءة السياسـات الاقتصـادي السـعودية، قـال حجـت ميرزائـي، عضـو هيئـة التدريـس بكلِّيـة

الاقتصاد بجامعة طبطبائي: «الخيار الصحيح في إدارة الاقتصاد، يجعلنا نصل بعد 15 عامًا إلى المستوى الحالي للسعودية، وإن أخطأنا، فستكون أوضاعنا أسوأ من الأوضاع الحالية في باكستان، في غضون عام ونصف العام».

يتّفِق مع ميرزائي، الخبير الاقتصادي سيامك قاسمي، قائلًا: «إن تغيَّر كل شيء في إيران اليوم، ووُضِعت التنمية أولوية في البلاد، وأُزيلت العقوبات، فإنَّه بناءً على معطيات البنك الدولي، تحتاج إيران 15 عامًا للوصول إلى مستوى الاقتصاد الحالي في السعودية، و13 عامًا للوصول إلى الاقتصاد الحالي في تركيا. إن أردتم قول الحقيقة، لم يعُد من الممكن ردْم هذه الهوَّة[9]».

ومثالًا على الفروق في السياسات والتخطيط المستقبلي، أشادت وكالة «سحام نيوز» الإيرانية بمحاولات وزير السياحة السعودي لتنمية قطاع السياحة والاستثمار بضخِّ 800 مليار دولار في هذا القطاع، في غضون 10 أعوام. بينما تدور أفكار وسياسات وزير السياحة الإيراني حول إعطاء السياح «إنترنت» مفتوحًا دون حجْب مواقع، ويسعى لإقناع استخبارات الحرس الثوري بعدم استخدام السيَّاح رهائن! ويمثِّل الجدول التالي جانبًا من تعليقات الإيرانيين المعجبة بالقيادات والسياسات السعودية على مواقع إيرانية، وحجم التفاعل معها من الإيرانيين أنفسهم (انظر جدول 3).

جدول (3): جانب من تعليقات الإيرانيين المعجبة بالقيادات والسياسات السعودية على مواقع إيرانية:

التعليق	عدد الإعجابات
هو [ولي العهد] يحوِّل السعودية إلى قوَّة عالمية، لكنَّنا لا نزال نبحث عن كاسر «بروكسي».	3781
تحية لحاكمهم الوطني، الذي يفكِّر بمآلات الأمور وعواقبها.	359
محمد بن سلمان واحد من أفضل الدبلوماسيين، الذين يعيشون في عصرنا	143
تحية لحاكم السعودية، الذي يفكِّر بشكل صحيح	16
يا الله، نحن نُكِنُّ الحب والاحترام لِبن سلمان[10]	30

بينما استنكر مهدي بازوكي، أستاذ الاقتصاد بجامعة طبطبائي، عدم قُدرة إيران على تحقيق المُستهدَفات الاقتصادية طويلة المدى، قائلًا: «وفقًا لوثيقة الرؤية

العشرينية، ينبغي أن نكون القوَّة الأولى في جنوب غرب آسيا. لم نكتفِ بعدم تحقيق ذلك، بل زادت المسافة بيننا وبين قطر والسعودية والإمارات وتركيا، وحتى أذربيجان». وأشار إلى نجاحات استثمارات صندوق التنمية الوطني، قائلًا: «على أعضاء صندوق التنمية الوطني الذهاب إلى النرويج والسعودية والكويت كي يروا كيف يديرون هذه الصناديق[11]».

وتُعَدُّ هذه الصناديق بالفعل من أنجح وأكبر صناديق إدارة الثروة في العالم، وتضع السعودية خطَّة للوصول بثروة الصندوق إلى 2 تريليون دولار بحلول 2030م. في المقابل، يجري استنزاف صندوق التنمية أو الثروة الإيراني كل عام من أجل دعْم الميزانية الحكومية، ولا يكاد تتبقَّى فيه إلا بضعة مليارات من الدولارات، على الرغم من كونها دولة نفطية كبيرة، الأمر الذي يبيِّن المفارقة الواضحة في الإدارة والسياسات الاقتصادية المُتَّبَعة في البلدين.

ج. التبادل التجاري مع الدول الصناعية الكُبرى: تحسَّر عدد من الاقتصاديين والباحثين الإيرانيين على حجم تجارتهم مع الدول الصناعية الكُبرى المصدِّرة للتكنولوجيا، كاليابان والصين، مقارنةً بالسعودية، ناهيك بدول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، التي انقطعت التجارة معها منذ إعادة فرْض العقوبات الأمريكية في 2018م.

يقول أبو الفضل كريمي، الباحث الايراني في قضايا العالم العربي: «تجاوز حجم التبادل الاقتصادي بين السعودية واليابان 33 مليار دولار في عام 2021م، ووصل إلى رقم رائع يبلغ نحو 47 مليار دولار في عام 2022م، بزيادة 42%، منها نحو 40 مليار دولار (39,78) تتعلَّق بالصادرات السعودية إلى اليابان. ولأغراض المقارنة، سنكتفي بذكر هذه الحقيقة الصادمة والمُرَّة، وهي أنَّ إجمالي صادرات اليابان إلى إيران في عام 2022م، كان أقلّ من 50 مليون دولار! وفي الحقيقة هذا الحجم التافه لا يعادل تبادلًا اقتصاديًّا بين شركتين اقتصاديتين كبيرتين[12]».

ويؤكد ذلك اقتصادي آخر، هو إحسان سلطاني، الباحث والمستشار الاقتصادي، قائلًا: «تراجعت إيران بشدَّة في مجال التجارة العالمية، حتى عن دول المنطقة. وهو مسار بدأ قبل أربعة عقود. وصل حجم التجارة الخارجية لإيران إلى أقلَّ من رُبع السعودية وتركيا والإمارات في عام 2022م».

أمّا عن حجم التجارة مع ثاني أكبر اقتصاد في العالم بعد الولايات المتحدة، وهو الصين، فتُشير صحيفة «بيام اقتصاد» الإيرانية إلى «ارتفاع حجم التبادل التجاري بين إيران والصين من 14,8 مليار دولار في سنة إبرام اتفاقية الـ25 عامًا، إلى 16 مليار دولار. بينما في هذه المدَّة الزمنية، ارتفع حجم التبادل التجاري بين السعودية والصين من 87 مليارًا إلى 114 مليار دولار. لا داعي لمزيد من التوضيح!».

وفي ذات السياق، صرَّح محمود صدري، الصحفي في صحيفة «آرمان أمروز»: «إنَّ مجموع التبادلات بين السعودية وإيران قد يصِل إلى 300 مليار دولار، والرقم المُستهدَف في المستقبل هو 500 مليار دولار. هذا الحجم من العلاقات، التي تشتمل على شراء الطاقة وتصدير الخدمات والتكنولوجيا، يتزامن مع توفير الحد الأقصى من مصالح الصين في حاجتها إلى الطاقة، وحاجتها إلى تصدير السِّلَع أيضًا[13]».

د. استقرار العملة ومؤشِّر سعادة المجتمع: متعجِّبًا من التدنِّي الكبير لقيمة العملة الإيرانية وتأثيره في جودة حياه الإيرانيين خلال السنوات الأخيرة، يضرب أحد رواد مواقع التواصل في تغريدة على موقع «تويتر» مثالًا على ذلك، قائلًا: «من خلال 100 ألف ريال سعودي، من الممكن شراء سيارة بي إم دبليو، فيما لا يمكن من خلال 100 ألف ريال إيراني سوى تنظيم هواء إطارات السيارة».

بينما قارن محمود صدري، الصحفي في صحيفة «آرمان أمروز» الإيرانية، ترتيب بلاده بترتيب السعودية في مؤشِّر السعادة العالمي، قائلًا باندهاش من الفرق الكبير بين استقرار وسعادة المجتمعين: «حسب أحدث تقارير مؤشِّر السعادة العالمي، احتلَّت إيران المركز 101، فيما احتلَّت السعودية المركز 30».

هـ. الاستقلالية السياسية والاقتصادية: يرى الأستاذ الجامعي مجيد مرادي أنَّه «منذ أعوام طويلة نُطلِق شعار (الموت لأمريكا)، ونستهزئ بالسعودية بأنَّها تابعة لأمريكا، لكن حين ننظُر مليًّا، نرى أنَّنا أصبحنا عمليًّا تابعين لأمريكا، نسعى لاسترضاء أمريكا للموافقة على الإفراج عن أموالنا في كوريا الجنوبية لاستخدامها لأغراض مدنية. بينما تقاوم السعودية أمريكا، وأدخلت الصين إلى الشرق الأوسط. إنَّ الاقتصاد القوي هو الذي منَحَ السعودية الاستقلال السياسي، وليس شعارات مواجهة الاستكبار العالمي، وما أضرَّ باستقلالنا عمليًّا هو الاقتصاد الضعيف[14]».

و. بيئة الاستثمار والتفاوت في استغلال الثروات: يرى داؤود سوري، الخبير الاقتصادي المعروف والأستاذ السابق بجامعة أصفهان، أنَّ «الاستثمار الأجنبي لا يجري بالنقود فقط، وهي موجودة بكثرة في السعودية. الاستثمار يحدث في العلم والخبرة والإدارة والمشاركة في سلسلة إنتاج السِّلَع والخدمات والرفاهية الدولية! أي يُقصَد بيئة الأعمال الجاذبة. هذا ما تريده السعودية، وهو ما لا نملكه نحنُ ولا نريد أن نمتلكه. حفظ الله بلادنا من الجهل والكذب!».

ويؤكد ما سبق بيمان مولوي، الخبير الاقتصادي والأستاذ الجامعي، قائلًا: «مبيعات النفط السعودية 326 مليار دولار في السنة، أي 27 مليار دولار في الشهر، أي 876 مليون دولار في اليوم، بينما نلهثُ نحن وراء نقودنا في صندوق النقد الدولي[15]. وفي المقابل، بلغت الأموال الضائعة على إيران من مبيعات النفط 4 تريليونات ونصف التريليون دولار، بسبب العقوبات. وفي قطاع التعدين، استثمرت السعودية في العامين الماضيين

بخمسين مليار دولار على قطاع التعدين. وتعتزم الرياض زيادة إيراداتها من التعدين، البالغة 17 مليار دولار حاليًّا، إلى أكثر من 60 مليار دولار حتى عام 2030م».

وفي ذات السياق، يقول سيامك قاسمي، الخبير الاقتصادي: «بينما تقِف جماعة في طابور في إيران كي يصدِّعوا رؤوسنا ببشارة الإفراج عن 7 مليارات من أموال إيران المجمَّدة في كوريا الجنوبية، بدأت العام الماضي الإمارات والسعودية إطلاق استثمارات مباشرة في كوريا الجنوبية بقيمة 40 مليار دولار. في العام الماضي كانت إيرادات السعودية من النفط قرابة مليار دولار يوميًّا، أي إنَّ هذه المليارات السبعة، إيرادات السعودية في أسبوع واحد. يا إيران! كم غَدَوتِ فقيرة، إذ تكون 7 مليارات دولار إنجازًا بالنسبة لك»[16].

يتّضِح ممّا سبق، اهتمام النُّخَب الإيرانية بالأوضاع الاقتصادية لجيرانهم، خصوصًا المملكة العربية السعودية، واستشعارهم بعض الحسرة على حالهم أحيانًا للفوارق الكبيرة بين واقعهم الاقتصادي المتأخِّر، وهُم دولة نفطية قديمة، وبين التقدُّم الاقتصادي والتنموي الكبير مع جارتهم الغربية المملكة العربية السعودية، والفرق في نوعية الفكر والتخطيط الاقتصادي بعيد المدى، وما وصل إليه المجتمع من تفاوُت في الرفاهية والسعادة. ليس هذا فحسب، بل مقارنة ما وصلت إليه إيران من تبعية وحاجة إلى الغرب على أرض الواقع، على الرغم من إعلاء سياسات المقاومة والاستقلال السياسي والاقتصادي، في مقابل ما وصلت إليه المملكة من استقلالية وقُدرة على التأثير في المجتمع الدولي.

3. الآراء والمواقف الخاصَّة بالقضايا الدينية والثقافية:

وتشمل ما يأتي:

أ. توجُّهات رجال الدين: قبل التفاهمات السعودية-الإيرانية كانت النُّخَب الدينية الإيرانية تُعادي توجهات المملكة، وتقرنها دومًا بالمخطَّطات «الأمريكية والصهيونية»، بيْد أنَّ التفاهمات بين البلدين أحدثت تحوُّلًا ملحوظًا في أدبيات رجالات الحوْزة وخُطباء الجمعة، فقد جعلوا التقارب الإيراني-السعودي سبيلًا إلى وحدة الأمة ونبْذ خلافاتها.

تأتي خطبة الجمعة في إيران مثالًا على هذا التحوُّل، إذ إنَّ خطبة الجمعة تكون معمَّمة على جمهرة الخُطباء في عموم إيران، وبالتالي فهي دالّةٌ على سياسة النظام وتوجُّهاته[17]. ففي خطبة جمعة لـ«حُجَّة الإسلام» حسن زومي، رحَّب بالاتفاق مع السعودية، وأكد أنَّ أمريكا وإسرائيل كانتا الرابح الرئيسي من العداوة الإيرانية-السعودية، واتّهم الحكومة السابقة، حكومة روحاني، بتدمير علاقة إيران مع الدول المجاورة، لكن الحكومة الثورية، أي حكومة رئيسي، تحرَّكت في سياسة حُسن الجوار. أيضًا أشار إمام جمعة كلستان إلى أنَّ الاتفاق الإيراني-السعودي دليل على القوَّة

الإقليمية لإيران الإسلامية، وعلامة على هزيمة المعارضة الخارجية، مؤكدًا أنَّ الاتفاق يصُبُّ في مصلحة إيران والسعودية، والمنطقة كلِّها، والعالم الإسلامي بأسْره. أمَّا «حُجَّة الإسلام» حسن ترابي، فأكَّد في خطبة جمعة له أنَّ الاتفاق بين إيران والسعودية يُعتبَر هزيمة ثقيلة لأمريكا وإسرائيل، وهو نفس ما أكَّده «حُجَّة الإسلام» إسماعيل كاظمي، وزاد عليه هزيمة المخرِّبين في الداخل والخارج[18]. في حين أكد خطباء آخرون أنَّ هذا الاتفاق إذا جرى تنفيذه بشكل صحيح سيكون بداية لتشكيل «اتحاد العالم الإسلامي»[19]. وفي مؤتمر الوحدة الإسلامية هذا العام، ألمح «حُجَّة الإسلام» شهرياري في كلمته إلى أهمِّية التعاون الإيراني-السعودي، قائلًا: «الحدث الثالث، الذي يمكن اعتباره أهمَّ تغيير نحو التعاون والصداقة بين الدول الإسلامية، هو استئناف العلاقات السياسية بين السعودية وإيران، إذ بثَّ نور الأمل في قلوب مجدِّدي العالم الإسلامي، فقد تخلَّت المدرستان السياسيتان -العقائديتان- عن الصراع، ونفذت أعمالًا مؤثِّرة في مسار التعاون»، كما أثنى على التوجُّهات الجديدة للمملكة العربية السعودية، والخطاب الديني المنفتح[20]. ورجع عضو مجلس خبراء القيادة «حُجَّة الإسلام» محسن حيدري، التقارب السعودي-الإيراني إلى تنحية ما سمَّاه التيَّار «الوهَّابي» في معقله[21].

إذًا، كان موقف رجال الدين «المحافظين» متناغمًا مع مسار السُّلطة، معتبرين أنَّ الاتفاق إنجازٌ من إنجازات «الحكومة الثورية»، وأنَّ تخريب العلاقات مع دول الجوار كان بسبب الحكومات السابقة. لذا، فمن المرجَّح أن يبقى رجال الدين داعمين للاتفاق، ما بقيت النُّخبة الحاكمة تدعمه وترى فيه حلًّا لكثير من مشكلات إيران السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن المرجَّح كذلك أن يرجع المحافظون من رجال الدين عن دعمهم، إذا قرَّرت السلطة الإيرانية عدم المضيِّ فيه، ولكلِّ مرحلة تبريراتها، من داخل منظومة المعارف الإسلامية الظنِّية والمصلحية، التي يُراد بها تعزيز الشرعية، وتمتين حواضن التقليد.

ب. الإعجاب بالإصلاحات الخاصَّة بالمرأة والشباب: أدرك الإيرانيون تأثير النموذج السعودي في عموم شعبهم، خصوصًا بعد التطوُّرات اللافتة والتحديثات الجريئة، التي قطعتها الحكومة السعودية، لا سيّما تلك الإصلاحات الخاصَّة بالشباب والنساء في السعودية، كالسماح بقيادة المرأة ودخولها الملاعب، وعدم اشتراط لبْس العباءة أو ملبس محدَّد، وتوظيفها في القطاعات كافة، كل ذلك ألهم المرأة الإيرانية، التي باتت تقارن بين المشهد السعودي والمشهد الإيراني، ما مثَّل ضغطًا وعبئًا على نُخَب الحُكم الإيرانية، فسعت من خلال التهدئة مع السعودية امتصاص هذا الغضب الداخلي، ومحاولة الإبقاء على نفس القراءة الدينية والمذهبية، مع بعض التغيرات في الأدبيات وإستراتيجية الخطاب، خصوصًا بعد مقتل مهسا أميني ونشوب مظاهرات شبابية

ونسائية ضدَّ سياسة النظام.. ويُظهِر الجدول التالي جانبًا من التفاعل في هذا الشأن (انظر جدول 4).

جدول (4): جانب من تعليقات الإيرانيين الساخطة على أوضاعهم الحياتية والاقتصادية مقارنةً بالسعودية:

التعليق	عدد الإعجابات
حجابك أختاه! [سخرية].	1170
نحن منهمكون بالحجاب، وبأي قدم ندخل دورة المياه.	886
ليتني كنت مواطنة سعودية!	74
نحن الآن نناضل من أجل خصلة شعر.	8
سيصِل اليوم الذي يركب فيه الإيرانيون على الجمال بسبب هؤلاء المسؤولين[22].	23

المصدر: إعداد الباحث

ج. مواجهة التطرُّف والتشدُّد: على الجانب السعودي، كان لافتًا أيضًا أنَّ الدولة ضربت بيدٍ من حديد على أشكال التطرُّف الفكري والديني كافَّة، ما أنهى خطاب الكراهية والتكفير والإقصاء ضدّ الأقلِّيات والأديان والمذاهب، إلى حدٍّ كبير، وبالتالي ضغطت هذه الإستراتيجية على الجانب الإيراني، باعتبارها ملهمة لعموم شعبه، من جرّاء ما يمارسه بعض رجال الدين في الحوْزة من تكفير وإقصاء ضدّ المخالفين، فاضطرَّ الإيرانيون إلى تبديل لغة الخطاب، أو تجميلها في كثير من الأحايين، لمواكبة عقلانية الخطاب الديني السعودي في ثوبه الجديد.

ثانيًا: أبرز جوانب التأثير في الداخل الإيراني

أدَّى التنافس بين المملكة العربية السعودية وإيران، باعتبارهما قوّتين إقليميتين في المنطقة، إلى جعْل التطوُّرات الداخلية في كلِّ بلد ضمن بؤرة اهتمام البلد الآخر، وقد انعكس ذلك على الرأي العام الداخلي، الذي يُجري مقارنات متنوِّعة، حسب سياق القضايا المُثارة في الدولة المنافسة عبر الإعلام الدولي والمحلِّي. تُوجَد نقاط تشابه بين إيران والسعودية، على غرار الإمكانيات الاقتصادية، والمساحة الجغرافية، والرمزية الدينية للبلدين، وطبيعة مجتمعاتهما المحافظة. وتضيف هذه التقاطعات جرعةً للنقاشات المجتمعية، إذ يفترض

أن تكون الأوضاع المعيشية متقاربة فيهما، وكلَّما اتّسعت الفوارق زادت حدَّة النقاش، لذلك يميل الإيرانيون كثيرًا إلى مقارنة الأوضاع في بلدهم بدول الجوار الخليجي، خصوصًا المملكة العربية السعودية.

تجعل هذه الخلفية التنافسية بين إيران والسعودية، تأثير الأخبار الواردة من أو عن الرياض مختلفة عن غيرها، لأنَّ المعركة داخل المملكة محسومة.. فالمجتمع السعودي يعيش في أمان واستقرار منذ عقود، وفي السنوات الأخيرة بات يشهد إنجازات كبيرة جدًّا في إطار رؤية 2030، لذلك تبقى المعركة داخليًّا إيرانية بامتياز، لأنَّ المجتمع الإيراني يعيش أوضاعًا تنحدر نحو الأسوأ منذ عقود، وعلى المستوى الشعبي يسود التذمُّر والحسرة بين الإيرانيين للأوضاع، التي آلت إليها معيشتهم، والخيارات السياسية، التي جعلتهم في مواجهة وعداء مع كثير من دول العالم.

1. تآكُل السردية الإيرانية الرسمية حول السعودية:

تتمحور السردية الرسمية في إيران لمشروعها الداخلي وعلاقاتها الخارجية، حول المواجهة المستمِرَّة مع القُوى الأجنبية بقيادة الولايات المتحدة، التي تهدف إلى «تدمير إيران»، من خلال تغيير النظام الحالي واستبدال به آخر تابعًا لها كما كان في زمن الشاه. وأنَّ إيران «تعرف تطوُّرات كبيرة جدًّا، واستطاعت فرْض نفسها على الساحة الدولية والإقليمية»، على الرغم من العقوبات التي تواجهها. ويُفرد النظام الإيراني للملكة العربية السعودية مجالًا واسعًا في هذه السردية، إذ يقدِّمها جزءًا من هذا «المخطَّط الغربي»، وأنَّها «مصدر الإرهاب والمؤامرات ضدّ إيران»، فالسعودية –وفق الرواية الإيرانية– الرسمية «عميلٌ» للولايات المتحدة الأمريكية، وهي من يدعم الجماعات المتطرِّفة والمعارضة الإيرانية في الخارج، كما تنخرط في كل التحالفات، التي تستهدف إيران.

كان النظام الإيراني يقدِّم رواية خاطئة وغير دقيقة حول السعودية، لكن التطوُّرات، التي تشهدها المملكة على الأصعدة كافَّة، أدت إلى تآكُل السردية، التي طالما وظَّفها النظام الإيراني للنيل من السعودية، خصوصًا أنَّ هذه الرواية تتغيَّر من خلال تعليقات وكتابات الإيرانيين في الداخل. وكانت تلك التطوُّرات بمثابة انتهاء لحالة السيطرة، التي فرضها النظام على عقول الإيرانيين، ولتشكيل الرأي العام الداعم لسياساته المناهِضة للمملكة.

أقدمت المملكة العربية السعودية في المرحلة الأخيرة، خصوصًا بعد اندلاع الحرب بين روسيا وأوكرانيا، على عديد من الخطوات العلمية، التي أثبتت وجود مسافة واضحة في علاقتها مع الإدارة الأمريكية، كان أبرزها عدم الاستجابة لمطالب الرئيس جو بايدن لرفع إنتاج النفط، ثمّ الموافقة على توقيع الاتفاق مع إيران نفسها برعاية الصين، المنافس الأول للولايات المتحدة الأمريكية. أكدت هذه الخطوات، وغيرها، أنَّ توجُّهات المملكة تُعلي من أنَّ المصلحة الوطنية حقيقية وليست مجرَّد خطاب،

وهو ما أربك السردية الإيرانية الرسمية، التي كانت تركِّز على التوافق بين السعودية وأمريكا للتغطية على إخفاقاتها، وتعمد إلى التقليل من أهمِّية الإنجازات السعودية ونسبتها إلى الدعم الغربي فقط. ومن جهة أخرى، فإنَّ وقْف الهجمات الإعلامية، التي كانت من مُخرَجات الاتفاق السعودي، يُلزِم طهران عدم تصدير مشكلاتها الداخلية على أنَّها مخطَّطات أجنبية عمومًا، وسعودية خصوصًا. في المقابل، فإنَّ الإنجازات السعودية في مختلف القطاعات كشفت عن أنَّ المشكلة، التي تواجه إيران، نابعة من خياراتها الداخلية والخارجية الخاطئة، وأنَّ الواقع مختلف كثيرًا عن السردية الرسمية، التي تعلِّق كل مشكلاتها على الأجانب.

2. ورقة ضغْط غير مباشرة على النظام الإيراني:

تبعث الأوضاع السيِّئة عادةً المجتمعات إلى التذمُّر، لكن مقارنة حالتها بحال مجتمعات أخرى تشابهها من حيث الإمكانيات والقُدرات وأوضاعها جيِّدة، تُضاعف حجم التذمُّر والرفض، وتزيد غضبها من قيادتها السياسية، التي تحمِّلها المسؤولية عن كلِّ مشكلاتها. من هذا المنطلق، فإنَّ استمرار النجاحات السعودية سيقابله على الطرف الإيراني مزيدٌ من الاحتقان المجتمعي، خصوصًا أنَّ النظام السياسي سيجِد صعوبة في البحث عن سلبيات، في ظل التدفق الهائل لأخبار الإنجازات في المملكة، التي تكون في بؤرة الاهتمام العالمي بشكل يصعُب التغطية عليها، لا سيّما في ظلّ التطوُّر التكنولوجي، وتنوُّع مصادر التلقِّي. والأهمّ من ذلك، أنَّ صدى بعض تلك الإنجازات يعايشه الإيرانيون بشكل مباشر، خلال زيارتهم المملكة لأداء مناسك الحج والعمرة، ومعاينة التطوُّرات الكبيرة في التنظيم وتقديم الخدمات، أو في المناسبات الرياضية، التي تجمع فِرَق البلدين، ويشارك فيها نجوم عالميون، كما حصل في المباراة التي جمعت بين نادي النصر السعودي ونظيره الإيراني برسبوليس، وطريقة استقبال الإيرانيين النجم العالمي كريستيانو رونالدو.

وستبقى مواقع التواصل الاجتماعي الفضاء الأوسع، الذي يُظهِر تفاعُل الإيرانيين مع التطوُّرات السعودية، التي تصُبّ جُلُّها في إلقاء اللوم على القادة الإيرانيين. والمشكلة التي يواجهها النظام الإيراني في هذا السياق، أنه لا يزال أسير المرحلة الأولى بعد نجاح ثورة 1979م، عندما كان في أوج حماسته الثورية، فقدَّم نموذجًا ينهل من القِيَم الأخلاقية والدينية، التي تحارب الظلم والفساد وتنشر العدالة، ووعد الإيرانيين بمستقبل أفضل من الوضع، الذي كانوا يعيشونه في حُكم الشاه. غير أنَّه بعد أربعة عقود، فشل النظام الإيراني في كل وعوده، والأجيال الجديدة لا تعرف إلّا نكبات النظام الحالي، وحتى تلك الأجيال، التي عايشت فترة حُكم الشاه، باتت تتحسَّر عليها، وتتمنَّى العودة إليها. ولا يعني هذا عدم وجود منتقدين للمملكة في إيران، لكن حجمهم على المستوى الشعبي يبدو ضعيفًا، بالمقارنة بالمعجبين بالنموذج التنموي السعودي. ويُظهِر الجدول التالي

(انظر جدول 5)، جانبًا من تلك الانتقادات وضعْف التفاعل معها، مقارنة بالتفاعل الإيجابي في الجداول سابقة العرض.

جدول (5): يضُمُّ جانبًا من تعليقات الإيرانيين الناقمة على السعودية وحجم التفاعل معها:

التعليقات السلبية	عدد الإعجابات
الحُجّاج يذهبون إلى السعودية ويقدِّمون لها ما تحتاج إليه من الميزانية.	168
تمكَّنت السعودية من نهْب أموال المسلمين عبر مكعّبها القديم [الكعبة]، والآن تخطِّط لنهب أموال غير المسلمين.	83
سنذهب لإغلاق السفارة.	22
مرَّةً أخرى تطاولت السعودية.	3
مهما تقدَّمت، تبقى مهْد الإرهاب وداعش.	1
وصلنا إلى درجة نتحسَّر فيها على أوضاع دولة صغيرة في الخارطة.	14
لا يبنون جنة الخُلد، يبنون قفصًا جيِّدًا	360
لا نحسد السعودية على الإطلاق، لديهم فقط الكعبة وقبر النبي، فليموتوا غيظًا، سنبني ألفين حتى ثلاثة آلاف ضريح[23].	17

المصدر: إعداد المعهد الدولي للدراسات الإيرانية.

تأسيسًا على هذا، سيكون النموذج السعودي أحد العوامل الخارجية غير المباشرة في الاحتجاجات، التي لا يُستبعَد أن تشهدها إيران مستقبلًا، إذا أصرَّت النُّخبة الحاكمة على مواصلة مقاربتها السياسية الفاشلة، ولم تفعل أيَّ تغيير حقيقي للخروج من المأزق الاقتصادي، الذي تعيشه البلاد منذ سنوات. هو وضْعٌ يُشير إلى ما حصل خلال الحرب الباردة، وصراع النماذج بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، فبينما

تجسِّـد رؤيـة 2030 الحلـم السـعودي، يكابـد الإيرانيـون شـظف العيـش ويتوجَّسـون مـن المسـتقبل المجهـول.

3. قوَّة دفْع لإصلاح السياسات وتغيير التوجُّهات:

ترفع التطوُّرات الحالية أسهم الإصلاح داخل إيران، وليس المقصود هنا التيّار «الإصلاحي» تحديـدًا، وإنّما كل المطالبين بالإصلاح حتى من داخل التيّـار «المحافظ»، إذ يدفع الوضع المزري وتفاقُم المشكلات إلى ارتفاع الأصوات «الإصلاحية» التي تترافع من أجل سياسـة خارجية متوازنة تقود إلى علاقات طبيعية مع الغرب لوقف العقوبات، وتسمح باندماج إيران في الاقتصاد العالمي، بما يتيح المجال لتنفيذ كثير من البرامج الاقتصادية والخطَط التنموية المعطَّلة. طبعًا، لا يُسـتبعَد أن يسـتفيد التيّار «الإصلاحي» من التغييرات، التي انتهجتها المملكة العربية السـعودية في سياسـتها الخارجية، وتحديدًا تجاه الولايات المتحدة، إذ يوظِّفهـا في مجادلته ضدَّ التيَّـار «المحافظ». وردود فعل الأخير، قـد تكون نحو تبنِّي تلك الخيارات ونسبتها لنفسـه، كما حصل سـابقًا، أو انتهاج مزيد من الخيارات «المحافظة»، لتأكيد سيطرته ومواصلة سرديته في تحميل القُوى الأجنبية مسؤولية مآلات الأمور، ما قد يقود إلى تصادم على المسـتوى البعيد. وفي كل الأحوال، سيكون النموذج السعودي حاضرًا في خلفية المشهد بطريقة غير مباشرة.

4. محاكاة النموذج وإمكانية الاستفادة منه:

بينما تواجه إيران أزمة داخلية معقَّدة على مسـتوى الشرعية الداخلية نتيجة تدهور الأوضاع المعيشية، وفي الوقت نفسه تواجه أزمة عميقة في علاقاتها مع دول العالم والقُوى الإقليمية، فإنَّ النظام قد يتأثَّر بالنموذج السـعودى الواقعي، لا سـيّما على صعيد ترشيد السياسات، والحوكمة، والتخطيط الاقتصادي، وذلك تحت تأثير تنامي الغضب الشـعبي، والتطلُّعات الداخلية، والمطالب المتزايدة بألّا تكون إيران أقلَّ تطوُّرًا من السـعودية، التي باتت تسبقها بمراحل في المؤشِّرات كافَّة، أو من خلال وجهة نظر «إصلاحية» في الداخل، تتبنَّى التخطيط العلمي الدقيق، ووضْع خطَّة إنقاذ لإيـران للخروج من مأزقها الراهن. وعلى الرغم من أنَّ ذلك مُستبعَدٌ في بعض الجوانب، فقد تدفع الضرورة بالمُضي قُدُمًا في محاكاة اقتصادية لنموذج المملكة، لكن هذا سـيتطلَّب تكلفة حقيقية لا بُدَّ أن يدفعها النظام الإيراني. فإيران في ظل سياسـاتها العدائية لا تتوفَّر لها فُرصة تنويع الشـركاء، وفي ظل العقوبات هي محرومة من الوصول إلى المعرفة والتقنيات الحديثة، التي تُعتبَر قاطرة أيّ مشروع حداثي تنموي، كما أنَّ النظام لا يزال أسير الأيديولوجيا، التي تهيمن على قراراته، وتحرمه من فُرصة التقدُّم والتطوُّر.

5. إمكانية للتأثير في الخطاب «المتشدِّد»:

إنَّ النموذج السعودي «المُلهِم»، والتجربة الدينية السعودية في سياقها الأخير، والإصلاحات الاجتماعية الشاملة، سـوف يسـتمِرّ في التأثير في الجانب الإيراني حكومةً وشعبًا، ويمثِّل

حالة ضغْط على الحوْزة والنُّخَب الدينية الإيرانية، لتُعقْلِنَ الخطاب الديني، وتتماهى مع إصلاحات جذرية وعميقة تشابه الإصلاحات في السعودية، بما يعطي أولوية للتنمية، والنهضة، ورفاهية الشعب، وحقوق المرأة، على حساب الراديكالية الدينية، والطائفية المذهبية.

الخاتمة

كان من الواضح أن النُّخَب الإيرانية والرأي العام، الذي تشكَّل بخصوص السعودية، كان في مجمله إيجابيًّا، على الرغم من بعض الأصوات «المتشدِّدة»، التي كانت تنظُر إلى العلاقة من منظور أيديولوجي أو مذهبي. وتمكن في هذا الإطار الإشارة إلى أبرز النتائج، وذلك على النحو الآتي:

1. الجاذبية وتأثير النموذج: إنَّ النموذج السعودي على مدار العقد الأخير، كان محطّ اهتمام إقليمي كبير، بما في ذلك من إيران، إذ حقَّقت المملكة نقلاتٍ نوعيةً على مسار التنمية الداخلية، وتأكيد المكانة والحضور الإقليمي والعالمي. ومن المتوقَّع في المستقبل، أن يستمِرَّ زخْم الحضور السعودي على الساحة الإيرانية بين النُّخبة والجماهير، لوجود نموذج حقيقي بالفعل تقدِّمه المملكة للحضور في المستقبل باعتبارها قوَّة إقليمية لا يمكن تجاوزها، ووجهة دولية ومحطَّة لتقاطع مصالح القُوى العالمية. من المتوقع حدوث تغيُّر أكبر لموقف شرائح من المجتمع الإيراني تجاه السعودية، فيما لو جرى السماح للشباب الإيراني بزيارة المملكة عبر تأشيرة سياحية، أو دعوة بعض المؤثِّرين الإيرانيين في منصَّات التواصل الاجتماعي لحضور الفعاليات الترفيهية في المملكة، مثل «موسم الرياض»، وزيارة مدينة العُلا التاريخية، وغيرها. وقد يحتاج المتابع إلى مزيد من الوقت، حتى يرى انعكاس هذه الصورة الإيجابية للمملكة في إيران، على المنتجات الأدبية والثقافية، مثل القصَّة القصيرة أو الأفلام والمسلسلات، شريطة ممارسة النظام بعض المرونة تجاه هذه الأصوات.

2. اتجاه الصورة النمطية للسعودية في إيران نحو التغيير: يبدو أنَّ الصورة النمطية عن السعودية تتغيَّر على مستوى النُّخَب الإيرانية، إذ تشير مواقف النُّخَب الإيرانية إلى أنَّ المملكة باتت مثار إعجاب من الإيرانيين، إذ وُصِفت المملكة من جانب هؤلاء بأنَّها «دولة حداثية وعصرية»، في إدارة الدولة وفي التخطيط الإستراتيجي. وهذه الصورة قد تشكَّلت بصورة محايدة، بعيدًا عن سيطرة النظام، ولا شكَّ أنَّ عودة العلاقات قد فتح الباب أمام الإيرانيين للتعبير عن آرائهم بحرِّية أكبر، بعيدًا عن القيود السُّلطوية والدعاية الإعلامية، التي كان يبثّها النظام في السابق، ضدّ السعودية، لا سيّما أنَّ كثيرًا من الإيرانيين لديهم تطلُّعات نحو الحداثة، ورغبة في التخلُّص من قيود الأيديولوجيا على المجتمع والأفراد.

3. دور أكثر تأثيرًا للإعلام البديل: لا شكَّ أنَّ وسائل التواصل والإعلام غير الرسمي قد لعِبَت دورًا مهمًّا في نشْر أخبار المملكة ووضعها، في مقارنة مع سياسات النظام الإيراني. فالآراء حول المملكة تتشكَّل على نطاق واسع في هذه الوسائل، بالنظر إلى أنَّ معظمها خارج سيطرة النظام، كما أنَّها تتيح التفاعل بين الداخل والخارج، وبين النُّخَب الإيرانية والنُّخَب السعودية. ومن المتوقَّع أن يتزايد هذا التفاعل عبر الفضاء الإلكتروني، إذ من جانب تفرض التطوُّرات في المملكة نفسها على هذا الفضاء، نتيجة مردودها والتفاعل الواسع معها، وفي نفس الوقت لشغف الإيرانيين بمتابعة مشروع السعودية، والتطوُّرات الجارية بها، لأنَّها أصبحت قضية يمكن من خلالها إحراج النظام أو الضغط عليه عبر المنصَّات الإعلامية المختلفة.

4. المصداقية والانتشار: تأتي الآراء والمواقف حول التطوُّرات في السعودية، من جانب خبراء ومتخصِّصين ومسؤولين سابقين في النظام ونُشطاء على وسائل التواصل، ناهيك بمواطنين عاديين، وهو ما يُشير إلى أن هذه التصوُّرات حول السعودية باتت منتشرة لدى قطاع كبير من الرأي العام الإيراني. وكون هذه المواقف والآراء تأتي من داخل دولة منافسة، فإنَّ لها تأثيرًا واسع النطاق، لا سيّما أنَّها تتّسِق مع التطوُّرات، التي شهِدَتها المملكة بالفعل على مدار العقد الأخير، إذ حقَّقت المملكة نقلات نوعية على مسار التنمية الداخلية، وتأكيد المكانة والحضور الإقليمي والعالمي، خصوصًا أنَّ الآراء حول السعودية كانت مدعومة بالأرقام والمؤشِّرات ذات المصداقية، وغيرها من الوسائط، الأمر الذي يعزِّز مصداقيتها، ويمنحها القبول والانتشار الأوسع.

5. كشْف الفجوة التنموية بين السعودية وإيران: لقد قدَّم الخبراء والنُّخَب مواقفهم من التطوُّرات السعودية معزَّزةً بمقارنة الأوضاع في داخل إيران، وهو ما أظهر وجود مفارقة تنموية مهمَّة بين ضفتي الخليج، مع أنَّ البلدين يتمتَّعان بموارد ومكانة مهمَّة في المنطقة. فبينما كانت المملكة تخطو بمستويات متسارعة نحو المستقبل، وتلبِّي تطلُّعات جماهيرها في تحقيق الرفاهية، وتلعب دورًا في دفْع المنطقة نحو الاستقرار والتقدُّم، كان النظام الإيراني يُصِرُّ على نهْج غير واقعي، كلَّف الشعب الإيراني أوضاعًا معيشية قاسية. ومن جهة أخرى، أسهمت السياسات السعودية في تعزيز مكانتها الإقليمية وصورتها عالميًّا، حتى باتت قِبلة إقليمية للمؤتمرات الدولية، لكن أسهمت سياسات إيران في عزلها، وفرْض مزيد من العقوبات والضغوط عليها، وهو ما أدَّى إلى الاضطرابات والاحتجاجات الداخلية، وبالتالي عدم الاستقرار السياسي، فضلًا عن متابعة سياسة خارجية أثقلت ميزانية إيران وحمَّلتها أعباءً إضافية.

وأخيرًا يمكن القول إنَّ إعادة العلاقات السعودية-الإيرانية، قد فتحت الباب أمام الإيرانيين إلى النظر إلى السعودية بصورة أكثر واقعية، ووفَّرت أجواء الانفتاح الفُرصة لتناول ما تشهده المملكة من تطوُّرات بموضوعية ومصداقية، ومقارنة ذلك بما تشهده

إيران من واقع معيشي معقَّد. ومع تزايُد الإعجاب الداخلي في إيران بالنموذج السعودي وإنجازاته، فإنَّ السعودية باتت تمتلك تأثيرًا مُهمًّا على الساحة الإيرانية بطريقة غير مباشرة، وباتت سياساتها وإنجازاتها داخليًّا وخارجيًّا تمثِّل إحراجًا كبيرًا للنظام الإيراني، فخلال سنوات قليلة نجحت المملكة في أن تقفز بمكانتها الاقتصادية والسياسية لتكون أكبر لاعب إقليمي وأهمَّ فاعل وشريك إقليمي مرغوب فيه من جانب القُوى الكُبرى. كذلك أظهرت السعودية على الصعيد الخارجي استقلالية وقُدرة على تنويع الشراكات، وذلك في وقت تُلقِي فيه إيران بثقلها خلف روسيا والصين، وهذه السياسة، التي هي محل إعجاب الإيرانيين، قد تحفِّز إيران على تغيير سلوكها، ومحاكاة النموذج السعودي في تصفير المشكلات، والعمل على أهداف اقتصادية وعملية. وهكذا سيكون النموذج بمثابة ورقة ضغط كبيرة على النظام الإيراني، قد تدفعه نحو تغيير بعض سياساته وتوجُّهاته «المتشدِّدة» في الداخل والخارج، وإلّا فإنَّه سوف يُواجَه بأزمة داخلية كبيرة في المستقبل، وتراجُع في المكانة على الساحة الإقليمية والدولية.

المراجع والمصادر

(1) صد آنلاین، حاشیه هایی مهمتر از متن، پیام نشست صلح به ایرانف (17 مرداد 1402هـ.ش)، تاریخ الاطلاع: 25 ینایر 2024م. https://2u.pw/hJqt5Cy

(2) دیپلوماسی ایرانی، پیروزی بزرگ برای عربستان: گفتمان مولد؛ دستاورد نشست جده برای جنگ اوکراین، (17 مرداد 1402هـ.ش)، تاریخ الاطلاع: 25 ینایر 2024م. https://2u.pw/NxlLUm1

(3) ویب سایت دکتر محمود سریع القلم، درداوس چین 2023 چه گذشت؟، (3 یولیو 2023م)، تاریخ الاطلاع: 24 ینایر 2024م. https://2u.pw/SIKigMR

(4) آفتاب، می خواهد پایان جنگ اوکراین به نام بن سلمان تمام شو، (10 مرداد 1402هـ.ش)، تاریخ الاطلاع: 23 ینایر 2024م. https://2u.pw/AOJ9lTl

(5) حساب الأكاديمي صادق زيبا كلام على «تويتر»، (19 یونیو 2023م)، تاریخ الاطلاع: 23 ینایر 2023م. https://2u.pw/YUVbNrv

(6) منصة إنستغرام، @Hatricknews، سبتمبر 2023م)، تاریخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2023م، https://2u.pw/CSfYYtQ

(7) ویب سایت دکتر محمود سریع القلم، درداوس چین 2023 چه گذشت؟، مرجع سابق.

(8) منصَّة إنستغرام، @picopry، 13) یونیو 2023م)، تاریخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2023م، https://2u.pw/GxUW4Mr، وأيضا: منصَّة إنستغرام، @mohamad.baztab، 21) یونیو 2021م)، تاریخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2023م، https://2u.pw/dvQ2uYn ، انظر أيضًا: منصَّة إنستغرام، @akharinkhabar، بيانيه يكجانبه عربستان: «ميدان آرش» صرفا متعلق به ما و كويت است، (3 أغسطس 2023)، https://2u.pw/Ru0XlFC، انظر: منصَّة إنستغرام، https://2u.pw/g3uaPFC، انظر: منصَّة إنستغرام، @dw_persian، 5) أغسطس 2023م)، تاریخ الاطلاع: 1 أكتوبر 2023م، https://2u.pw/csO0rp2

(9) یک واقعیت غم‌انگیز/ قاسمی: اقتصاد ایران 15 سال طول می‌کشد به اقتصاد امروز عربستان برسد« (12 تیر1402هـ.ش)، تاریخ الاطلاع: 23 ینایر 2023م. https://2u.pw/AbSEyAR

(10) منصَّة إنستغرام، @picopry، 13) یونیو 2023م)، تاریخ الاطلاع: 29 نوفمبر 2023م، https://2u.pw/GxUW4Mr

(11) دریا کنار، پازوکی، اقتصاددان: از فروردین 1401 تا الان ارزش پول ملی نصف شده (23 یونیو 2023م)، تاریخ الاطلاع: 24 ینایر 2024م، https://2u.pw/RWPvuqM

(12) انصاف، ژاپن – عربستان و دستان پر از هیچ ما!، (7 مرداد 1402هـ.ش)، تاریخ الاطلاع 24 ینایر 2024م، https://2u.pw/0lrcAmO

(13) آرمان امروز، دیپلماسی محدود، (25 تیر 1402هـ.ش)، تاریخ الاطلاع 23 ینایر 2024م، https://2u.pw/Nes0mxI

(14) صداي جويا، ميان ريال ما و ريال عربستان تفاوت از زمین تا آسمان، (29 اردیبهشت 1402هـ.ش)، تاریخ الاطلاع: 24 ینایر 2024. https://2u.pw/gS0XDV9

(15) بهار نیوز، این متن کوتاه فرق ایران و عربستان را نشان می‌دهد، (12 مرداد 1402هـ.ش)، تاریخ الاطلاع: 23 ینایر 2024م، https://2u.pw/9potXhi

(16) منصَّة أكس، @SiamakGhassemi، (تاریخ آخر تعدیل10:48 م– 30 مایو 2023م)، تاریخ الاطلاع: 24 ینایر 2024م، https://2u.pw/emlwuLO

(17) د. معتصم صديق، و د. محمد الصياد، خطبة الجمعة في إيران.. تدبين السِّياسة وتسييس الدِّين، «رصانة»، 05 مارس 2020م (تاریخ الاطلاع: 29 أكتوبر 2023م). https://bit.ly/3FOmQpe

(18) قطره، واکنش ائمه جمعه شهرستان‌های استان تهران به توافق ایران و عربستان، 15 مارس 2023م (تاریخ الاطلاع: 26 أكتوبر 2023م). https://bit.ly/3ZmuZYK

(19) مهر نیوز، امام جمعه گرگان: توافق ایران و عربستان موجب شکل گیری اتحادیه ممالک اسلامی می شود، 14 مارس 2023م (تاریخ الاطلاع: 25 أكتوبر 2023م). https://bit.ly/3JNc0Rg

(20) ایسنا، حجت‌الاسلام شهریاری در سی‌وهفتمین کنفرانس بین‌المللی وحدت اسلامی: آغاز روابط بین ایران و عربستان نویدبخش صلحی پایدار و همکاری بادوام در منطقه است، 01 أكتوبر 2023م (تاریخ الاطلاع: 31 أكتوبر 2023م). https://bit.ly/3FAH3hL

(21) حوزة نیوز، عضو مجلس خبرگان رهبری: وهابیت و سلفیت حتی در عربستان هم کنار گذاشته شد، 01 أكتوبر 2023م (تاریخ الاطلاع: 31 أكتوبر 2023م). https://bit.ly/40lAIAo

(22) منصة إنستغرام،@picopry، 13) یونیو 2023)، تاریخ الاطلاع: 29 فبراير 2023، https://2u.pw/GxUW4Mr، وأيضًا: منصة إنستجرام،@mohamad.baztab، مدرنترین شهر جهان!!! عربستان سعودی دنیا رو شوکه کرد!!! نظر، (21 یولیو 2023)، تاریخ الاطلاع: 29 فبراير 2024، https://2u.pw/dvQ2uYn

(23) منصَّة إنستغرام، @picopry، رفتن کریس رونالدو و کریم بنزما به عربستان بخشی از همین پروژه عربستان، (13 یونیو 2023م)، تاریخ الاطلاع: 29 فبراير 2023م، https://2u.pw/GxUW4Mr، أيضًا: منصَّة إنستغرام، @mohamad.baztab ، مدرنترین شهر جهان!!! عربستان سعودی دنیا رو شوکه کرد!!! نظر، (21 یولیو 2023م)، تاریخ الاطلاع: 29 فبراير 2024م، https://2u.pw/dvQ2uYn

السعوديـــة الخضـــراء..
صعود قوة كبرى فـي مجال الطاقة المتجددة

ديمتـري زابيليـــن

باحث في الدراسات الجيو-سياسية،
ومؤسس شركة بانثيون إنسايتس للاستشارات الجيو-سياسية

الملخص:

تناقش الدراسة طموحات المملكة العربية السعودية وجهودها لضمان موضع قدم لها في خارطة الطاقة العالمية، بتحليل الســمات الرئيسية لإستراتيجيتها لفترة ما بعد النفط، بما في ذلك الطاقة الشمسية والهيدروجين واستخراج المعادن ومعالجتها وتوظيفها باعتبارها أدوات لتقوية نفوذها الجيو-سياســي وتعزيزه. لا ســيما مع ما تشــهده الساحة العالمية من تغيرات متســارعة في ظل ممارسة القوى الجيو-سياســية نفوذها في صناعة القرار الاقتصادي بين الجهات الفاعلة في الدول، إذ تجري إعادة تنظيم سلاســل التوريد لأسباب أمنية وليس لأســباب تتعلق بالكفاءة فقط، فقد أصبح الأمن السياسي يأخذ الأولوية مع بقاء تحســين الاقتصاد هدفًا. ولهذا التحول عواقب مالية، وسياســية واقتصادية كبيرة، إذ ســيتطلب التحرك العالمي نحو الطاقة المتجددة موارد كبيــرة، خصوصًا المعادن مثل الليثيوم والكوبالــت والنيكل. وفي هذا الصدد تتوقع الدراســات زيادات كبيرة في الطلب تتراوح بين 7 و51 ضعفًا بحلــول عام 2040م، مقارنة بعــام 2020م. لذلك، تعمل المملكة العربية الســعودية بنشــاط على اتخاذ دور القيادة في سلاســل توريد الطاقة المتجددة في العالــم. وتتزامن جهود المملكة في هذا المجال مع مــرور الاقتصاد العالمي بمنعطف خطر، يتسم بالتوترات الجيو-سياسية، وتحولات الطاقة، والتقدم التكنولوجي. ولتحقيق

مبادراتها في الطاقة النظيفة، تتخذ المملكة من رؤية 2030 مخططًا أوليًّا لها، وذلك بتحديد أهداف طموحة، وتعزيز بيئة داعمة للاســـتثمار والابتكار. إن نجاح المملكة في التحول إلى الطاقة النظيفة خطوة أساســـية لتحقيق أهدافها الاقتصادية، والجيو-سياسية الموضحة في رؤية 2030، مما يمكنها لتبوؤ دور القيادة في عصرٍ جديدٍ للطاقة النظيفة ويجعلها لاعبًا أكثر تأثيرًا في الساحة العالمية.

الكلمات المفتاحية:
الســـعودية، الطاقة المتجددة، التنميـــة، الهيدروجين الأخضر، تنويـــع الطاقة، المعادن الانتقالية، الشرق الأوسط، عصر ما بعد النفط.

The Green Saudi: The Rise of a Renewable Energy Superpower

Abstract:
This paper explores Saudi Arabia's ambitions and efforts to secure its position in the new global energy paradigm. It analyzes key features of its post-oil strategy including hydrogen, minerals extraction and processing, and solar as mechanisms to fortify and enhance its geopolitical influence. The global landscape is changing rapidly, with geopolitical forces influencing economic decision-making. Supply chains are being reorganized for security rather than purely for efficiency. While economic optimization remains a goal, political security is taking precedence. This shift has significant financial, political and economic consequences. The global move towards renewable energy will require significant resources, particularly metals like lithium, cobalt, and nickel. Studies predict dramatic demand increases, ranging from sevenfold to 51-fold by 2040 compared to 2020. Saudi Arabia is actively positioning itself as a leader in the global renewable energy supply chain. Saudi energy endeavors coincide with a critical juncture for the global economy, marked by geopolitical tensions, energy transitions, and technological advancements. Vision 2030 serves as the blueprint for Saudi Arabia's clean energy initiatives, setting ambitious targets and fostering a supportive environment for investment and innovation. Success in this transition is crucial for achieving the economic and geopolitical goals outlined in Vision 2030, propelling Saudi Arabia into a new era as a leader in clean energy and a more influential player on the world stage.

Key words: Saudi Arabia. renewable energy, green hydrogen, diversification of energy, transition minerals, the Middle East, the post-oil era

المقدِّمـــة

تبذل المملكـــة العربية الســـعودية جهودًا حثيثة، عبـــر مبادراتها الطموحـــة في الطاقة المتجـــددة، لتعزيز مكانتها الإقليمية والعالمية، وذلك بضمان موضع قدم لها في سلاســـل التوريد العالمية للطاقة المتجددة، وتأتي هذه الجهود في وقتٍ وصل فيه الاقتصاد العالمي إلى نقطة تحول كبيرة جيو-سياســـيًا وطاقيًا وتكنولوجيًا، وفي هذا الصدد تلجأ الدول التي يســـاورها قلق إزاء احتمال إقصاء دورها أو تراجعه بسبب هذه التقلبات، إلى تعزيز استثمار رأس المال المدعوم حكوميًا لضمان اســـتمرايتها في الركـــب العالمي، وهذا ما يطلق عليه اصطلاحًا «السياســـة الصناعية | Industrial Policy»، وهي الجهد الإســـتراتيجي الذي تبذله الحكومة لتشجيع التنمية في قطاعاتٍ أو صناعاتٍ محددةٍ داخل اقتصادها.

وبمـا أن الأمـن الاقتَصـادي يحتـل مكان الصـدارة، تلعـب الحكومـات دورًا أكبـر فـي الصناعـات ذات الأهميـة الجغرافيـة الإسـتراتيجية مـن خلال توفيـر شـروط تمويـل ذات طابـع تيسـيري، فـإن قـادة العالـم يتطلعـون إلـى اسـتخدام عـدد مـن أدوات السياسـة مـن أجـل تحسـين وضعهـم فـي هـذا السـباق متعـدد الأبعـاد، سـواء كان ذلـك علـى هيئـة قـروض دون فوائـد أو حوافـز ضريبيـة. وفـي الصناعـات ذات التكاليـف المرتفعـة وبعوائـد طويلـة الأجـل فـي بيئـةِ أسـعار الفائـدة المرتفعـة، سـيحتاج القطـاع الخـاص إلـى اسـتيعاب مفهـوم العوامـل الدافعـة والجاذبـة، وتُعـد التدابيـر التشـريعية مثـل «قانـون خفـض التضخـم» فـي الولايـات المتحـدة و«قانـون الرقاقـات الأوروبيـة»، مثاليـن مـن أمثلـة حـول السياسـات الصناعيـة المُسـتهدفة. كمـا أثبتـت الصناديـق السـيادية أنهـا قنـاة شـعبية يمكـن للدولـة مـن خلالهـا ضـخ رأس المـال لتعزيـز سياسـاتها الصناعيـة، ويُعـدُّ صنـدوق الاسـتثمارات العامـة فـي المملكـة العربيـة السـعودية أحـد الأمثلـة علـى اسـتغلال الدولـة رأس مالهـا لتعزيـز الأهـداف الجغرافيـة الإسـتراتيجية. ينـص ميثـاق الصنـدوق علـى أن اسـتثماراتها الدوليـة تهـدفُ إلـى «تعزيـز مكانـة المملكـة علـى السـاحة العالميـة باعتبارهـا رائـدة للاقتصـاد العالمـي المسـتقبلي، لذلـك جـاءت هـذه المحفظـة لتنـدرج تحتهـا مجموعـة مـن الاسـتثمارات طويلـة الأمـد، التـي تهـدف إلـى عقـد شـراكات إسـتراتيجية عـن طريـق الاسـتثمارات المباشـرة وغيـر المباشـرة، ممـا يسـهم فـي توسـيع نطـاق أثـر المملكـة عالميًـا، مـع التركيـز علـى القطاعـات المرتبطـة بالصناعـات المسـتقبلية»[1].

لقـد أسـهمت رؤيـة 2030 فـي توجيـه رأس المـال وجـذب الاسـتثمار الأجنبـي مـن خلال إيجـاد توجـه واضـح لتطلعـات المملكـة الجيو-سياسـية والطاقيـة، إذ يسـتهدف صنـدوق الاسـتثمارات العامـة تطويـر 70% مـن طاقـة المملكـة المتجـددة بحلـول نهايـة العقـد. ويعمـل «البرنامـج الوطنـي للطاقـة المتجـددة»، وهـو جـزء مـن رؤيـة 2030، بمثابـة خطـة عمـل تُترجـم طموحـات الطاقـة المتجـددة إلـى خطـواتٍ ومشـاريع ملموسـة علـى الأرض. وسـنوضح لاحقًـا كيـف تُسـهم هـذه المسـتهدفات فـي دفـع عجلـة جهـود تنويـع الطاقـة

في المملكة. وفي ظل البيئة الحالية، أصبح من الضروري جدًّا وضع هدف واضح ذي قيمة إستراتيجيةٍ، لا سيما مع ما تشهده القواعد الأساسية للجغرافيا السياسية من تحولاتٍ، وما يتمخض عنها من اضطرابات اقتصادية جديدة، تجري على أثرها إعادة تشكيل سلاسل التوريد، ليس من أجل تحقيق المنافع القصوى اقتصاديًّا، ولكن من أجل الوصول إلى الوضع الأمثل جيو-سياسيًّا. هذا لا يعني أن الاقتصادات تتعمد ألّا تكون ذات كفاءة اقتصادية، بل إنها أصبحت تعطي الأولوية للأمن السياسي، بطريقةٍ أكثر وضوحًا من ذي قبل، ويصاحب هذا التحولُ تداعياتٍ كبيرةً على الصعيد المالي والسياسي والاقتصادي.

تعد «المعادن الانتقالية | Transition Metals»، وهي الليثيوم والكوبالت والنيكل والنحاس، من الموارد اللازمة لإحداث التحول في مجال الطاقة، لذلك، من المتوقع أن يزداد الطلب ازديادًا حادًّا مع بدء السياسات التي تُركز على التحول في مجال الطاقة بالظهور، إذ يؤدي الارتفاع الحاد في الطلب على هذه الموارد، إلى جانب الاستجابة غير المرنة في خضم التحول في سلاسلِ التوريد، إلى ارتفاع ملحوظ في مخاطر التخضم، وعلى وجه التحديد «التضخم الأخضر | Greenflation». ويَترك هذا الأمر الأسواق والاقتصادات والدول عُرضةً للاضطرابات الناجمة عن التحول السريع في الطاقة. وتحسبًا لهذه المخاطر، تتخذ المملكة العربية السعودية تدابير استباقية لحماية نفسها من التقلبات المرتبطة بسياسات التحول في مجال الطاقة، ولن تعزز سياساتها في هذا المجال، في حال نُفِّذت بشكل صحيح، مكانتها الإقليمية فحسب، بل ستجعلها حلقة وصلٍ مركزيةً في نموذج الطاقة العالمي الناشئ. سوف يُؤتي القيام بذلك ثماره الجيو-سياسية ويضمنُ أن تظل المملكة وسيطًا في مجال الطاقة على المستوى العالمي لفترةٍ طويلةٍ بعد أن يتوقف النفط عن كونهِ المصدر الرئيسي للحركة الاقتصادية.

أولًا: ثورة الطاقة المتجددة في المملكة.. حقبة جديدة من الإستراتيجية الجيو-سياسية

تشير التطورات إلى عديد من المظاهر على دخول المملكة حقبة جديدة على صعيد الطاقة المتجددة، ويمكن هنا الإشارة إلى بعض المؤشرات والمظاهر على أكثر من صعيد، وذلك على النحو الآتي:

1. الخامات المعدنية والمعادن والتعدين:

رغم ضبابية مستقبل التحول في الطاقة، توجد حقيقة واحدة مؤكدة، وهي أن عملية التحول في حاجةٍ ماسةٍ إلى الموارد، ويُقَدِّرُ صندوق النقد الدولي أن معادن النحاس والنيكل، والكوبالت، والليثيوم، ستكون الأكثر تأثرًا بالتحول العالمي في مجال الطاقة. وفي حين أن النقص الطفيف المتوقع في العرض (نحو 10–20%) للمعادن مثل النيكل، فإن المكونات

الحيوية مثل «الديسبروسيوم | «Dysprosium، وهو عنصر كيميائي ومعدن أرضي يضاف إلى تعزيز قوة المغناطيس ويُستخدم في المحركات الكهربائية، من المتوقع أن يعاني نقصًا حادًا يتجاوز 70% من الطلـــب المتوقع[2]. ويعتمد التنبؤ بالطلب المتوقع والتأثير اللاحق في السعر، على الأفق الزمني والسيناريوهات المستقبلية، وعلى وجه التحديد، سيؤدي تحقيق انبعاث صفري بحلول عام 2040م أو 2050م، إلى آثارٍ مختلفةٍ جذريًا، في سعر المعادن التي تخص الطاقة التحويلية الرئيسية، وعليه سيتفاوت نطاق التقديرات. ويتوقع البنك الدولي زيادةً بنسبة سبعة أضعاف في الطلب على الليثيوم بحلول عام 2040 مقارنةً بعام 2020م[3].

وفـي السـيناريو المُتعلـق بتحقيـق صافـي الانبعاثـات الصفريـة، يتوقـع صنـدوق النقـد الدولـي زيـادةً تصـل إلـى 25 ضعفًـا فـي اسـتهلاك الليثيـوم بحلـول عـام 2050م، مقارنـةً بعـام 2020م[4]. وأخيـرًا، تُقـدم «وكالـة الطاقـة الدوليـة» مجموعـةً مـن السـناريوهات المسـتقبلية المحتملـة. فـي سـيناريو التنميـة المسـتدامة، سـوف يتجـاوز الطلـب العـرض بمعـدلات كبيـرة، إذ يكـون الطلـب علـى الليثيـوم أعلـى 51 مـرة مـن مسـتوياته الحاليـة بحلـول عـام 2040م، وبالتالـي سـوف نـرى زيـادةً جذريـةً فـي الطلـب بتطبيـق سـيناريو التنميـة المسـتدامة لوكالـة الطاقـة الدوليـة علـى بقيـة المعـادن الانتقاليـة مـن الكوبالـت والنـيكل والنحـاس، كمـا يلـي:

أ. زيـادة الطلـب علـى الكوبالـت بمقـدار 21 ضعفًـا بحلـول عـام 2040م مقارنـةً بالمسـتويات الحاليـة.

ب. ارتفـاع الطلـب علـى النيـكل بمقـدار 9.7 ضعـف بحلـول عـام 2040م مقارنـةً بالمسـتويات الحاليـة.

هـ. ارتفـاع الطلـب علـى النحـاس بمقـدار 6.2 ضعـف بحلـول عـام 2040م مقارنـة بالمسـتويات الحالـة.

تتركـز معظـم المعـادن والمـواد الكيمائيـة اللازمـة مـن أجـل إحـداث التحـول فـي مجـال الطاقـة فـي المناطـق والبلـدان ذات المخاطـر السياسـية المرتفعـة. فـي عـام 2022م، أنتجـت أسـتراليا مـا يقـرب مـن 61 ألـف طـن متـري مـن الليثيـوم، وهـو مـا يمثـل 49.91 % مـن الإنتـاج العالمـي، بينمـا تُنتـج تشـيلي 39 ألـف طـن متري أو مـا يُمَثـل 31.81% مـن الإجمالـي العالمي. وتسـيطر إندونيسـيا بـشـكلٍ أساسـي علـى النـيكل، إذ تنتـج 1.6 مليـون طـن متـري سـنويًا، وهـو مـا يمثـل 61.07% مـن إنتـاج المناجـم العالمـي، وتبتعـد الفلبيـن كثيـرًا بإنتـاج مـا يعـادل 330 ألـف طـن متـري، وهـو مـا يمثـل 12.60% مـن الإجمالـي العالمـي. ويقـع الكوبالـت، وهـو أكثـر المعـادن الانتقاليـة تركيـزًا وأحـد أكثـر المعـادن أهميـةً، فـي جمهوريـة الكونغـو الديمقراطيـة، حيـث يُنتـج البلـد الواقـع فـي وسـط إفريقيـا مـا يقـرب مـن 175 ألـف طـنّ متـري، وهـو مـا يمثـل 78.83% مـن الإنتـاج العالمـي. وتحتـل الفلبيـن المرتبـة الثانيـة بإنتـاج 30 ألـف طـن متـري، أو 13.51% مـن الإجمالـي العالمـي. وأخيـرًا أنتجـت تشـيلي النحـاس بمـا

يقارب 5.9 مليون طن متري في عام 2022م، وهو ما يمثل 27.45% من الإنتاج العالمي، وتنتج بيرو 2.7 مليون طن متري أو 12.59% من الإنتاج العالمي[5].

من أجل تجنب الحصول على مواد لفترة قصيرة وبتكلفة باهظة من خلال سلسلة التوريد، تستغل المملكة العربية السعودية إستراتيجيًّا احتياطاتها الغنية من المواد الكيمائية والمعادن الثمينة، وذلك من أجل أن تمهد الطريق لمستقبلٍ أقل اعتمادًا على النفط. وفي هذا الإطار أعادت المملكة مؤخرًا تقييم قيمة ثروتها المعدنية، ورفعتها من 1.3 تريليون دولار إلى 2.5 تريليون دولار[6]. وتستثمر المملكة بقوة في هذا المجال، إذ خصصت مبلغ 200 مليون دولار لمشروعٍ شامل للخرائط الجيولوجية وإنشاء قاعدة بياناتٍ للموارد، بناءً على دراسةٍ استقصائية سابقة متعلقة بالاستثمار بقيمة 500 مليون دولار[7]. ويسلط هذا التقييم المُحَدَّث الضوء على الاحتياطاتِ الكبيرة من الذهب والنحاس والزنك، التي من المتوقع أن تلعب دورًا حاسمًا بالتحولِ في الطاقة الحافلة بالتحديات في المستقبل، إذ من المرجح أن الطلب سيتجاوز العرض على هذه الموارد.

وأما في ما يخص الصورة العامة للتعدين، سواء من الناحية المجازية أو الحرفية، فهي أشد قسوة أكثر مما كان متوقعًا، وهذا ما أشارت إليه مجلة «الإيكونومست» التي أوردت: «لسوء الحظ، يستثمر عمال المناجم أيضًا أقل بكثير مما كانوا عليه من قبل، كما تؤكد أحدث أرقام أرباحهم، التي صدرت هذا الأسبوع، إذ أنفقت أكبر شركة تعدين في العالم، بي إتش بي، في عام 2023م أقل من نصف ما أنفقت قبل عقد من الزمان. ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أسباب منطقية، وهي أن عمال المناجم يدركون بشكل قاطع أن قطاعهم الصناعي يشهد موجات ازدهار وكساد، وكانت المرة الأخيرة التي تقلّبت فيه مستويات هذه الصناعة، خلال الطفرة التي قادتها الصين قبل 20 عامًا، إذ تبع ذلك هبوط كارثي»[8].

ومن المرجح أن يؤدي عدم المرونة في سلسلة التوريد، إلى جانب الضغط على شركات التعدين المتداولة العلنية لالتزام المقاييس البيئية والمجتمع والحوكمة، إلى ارتفاع أسعار المعادن، إذ يتجاوز الطلب العرض بطيء الحركة، كما يخلق دعم المشاريع الخضراء مشكلة إمداد متعددة الأوجه، من المرجح أن تُترجَم إلى ارتفاع أسعار السلع بالنسبة لشركات التعدين. كذلك سوف تُعقّد الجغرافيا والحالة الجيو-سياسية العملية وقد تُسهم في رفع أسعار السلع الأساسية، وأسهم الشركات المتخصصة في استخراج المعادن. وأشار مقال مجلة «الإيكونومست» في العنوان الرئيسي «الحكومات لا تساعد» صناعات التعدين التي تشهد عملية التحول في الطاقة، ولكن هذا الأمر ليس صحيحًا تمامًا.

يقود ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير محمد بن سلمان بلاده لتصبح محطة مركزيةً للموارد، الأمر الذي يعكسُ دورها المحوري في سوق النفط العالمية،

ومـن ثـم تُشـجع المملكـة العربيـة السـعودية بصـورةٍ فاعلـةٍ للاسـتثمار فـي قطـاع التعديـن مـن خلالِ عديـد مـن الإجـراءات الرئيسـية. ويأتـي هـذا علـى رأسِ صفقـة المملكـة لكـي تصبـح ضمـن مُسـاهمي الأقليـة (أو مـا يعـرف بصغـار المسـاهمين، مَـن يسـاهمون بـرأس مـال قليـل لا يملـك الحـق بالتصويـت) فـي شـركة فالـي «البرازيليـة للتعديـن» التـي تبلـغ قيمتهـا 26 مليـار دولار. ووفقًـا لصحيفـة فاينانشـيال تايمـز: «سـيمتلك مشـروع مشـترك بيـن شـركة التعديـن العربيـة السـعودية وصنـدوق الاسـتثمارات العامـة فـي البـلاد 10% (من الشـركة)، الـذي يوفـر المـواد اللازمـة للانتقـالِ إلـى طاقـةٍ أنظـف»[9]. كمـا تتطلـع المملكـة العربيـة السـعودية إلـى وضـع نفسـها ركيـزةً رئيسـيةً فـي سلسـلة توريـد البطاريـات مـن خلال إنشـاء مرافـق معالجـة الليثيـوم، لأنـه بحلـول عـام 2030م، مـن المتوقـع أن ترتفـع الحاجـة العالميـة إلـى الليثيـوم إلـى أكثـر مـن أربعـة أضعـاف المسـتويات التـي شـوهدت فـي عـام 2022م، فقـد نمَـت مـن 720 ألـف طـن متـري إلـى مـا يقـدر بنحـو 3.1 مليـون طـن متـري[10]. ومـع ذلـك، مـن غيـر المرجـح أن يُلبـي عـرض الليثيـوم المتوقـع عالميًّـا فـي عـام 2030م هـذا الطلـب المتزايـد. ويمكـن فـي هـذا السـياق الإشـارة إلـى تفـوق سياسـة المملكـة العربيـة السـعودية الصناعيـة، التـي تظهـر بـشـكل أساسـي مـن خلال المخصصـات السـخية مـن صنـدوق الاسـتثمارات العامـة. كذلـك أنشـأت المملكـة وزارة متخصصـة للصناعـةِ والثـروةِ المعدنيـة، وخفضـت رسـوم الترخيـص والعائـدات، وأصلحـت قوانيـن التعديـن الخاصـة بهـا لتعكـس الأطـر المواتيـة للاسـتثمار فـي دول مثـل أسـتراليا وبوتسـوانا وكنـدا، وقـد خفضـت هـذه الإصلاحـات بـشـكلٍ كبيـرٍ وقـت الحصـول علـى تراخيـص التعديـن إلـى شـهرين فقـط، الأمـر الـذي يسـهم فـي زيـادة نسـبتها 20% فـي التراخيـص النشـطة منـذ عـام 2022م، التـي يبلـغ مجموعهـا الآن 2300 رخصـة[11].

2. الهيدروجين:

إن تحركات المملكة العربية السـعودية لتحفيزِ الحصول على بدائل الوقود الأحفوري تؤتي ثمارها، ويتبين بالتحليـل أنه بإمكان المملكة من خلال اسـتثمارها في إنتاج الهيدروجين أن تقلل اعتمادها على عائدات النفط، ونظرًا لأن المملكة تسـتخدم الغاز الطبيعي مصدرًا للطاقة، يمكنها الاستفادة من الهيدروجين الأزرق في البنية التحتية الحالية للغاز الطبيعي وشـبكات الإمداد لتوسـيع نطاق الإنتاج والنقل. وفـي ظل «إسـتراتيجية الهيدروجين الوطنية» للمملكـة، التي تهدفُ إلى إنتاج وتصدير 4 ملايين طن من الهيدروجين النظيف سنويًّا، فقد تتمكن المملكة من تبوؤ الريادة العالمية في قطاع الهيدروجين. ويدعم صندوق الاسـتثمارات العامة هذه الرؤية بقوة، والاسـتثمارات البارزة بما في ذلك شراكة بقيمة 5 مليارات دولار مع شركة «إير برودوكتس» لإنشـاء مُنشأة لإنتاج الهيدروجين الأخضر في المملكة العربية السعودية. علاوةً على ذلك، وفي أكتوبر 2022م، قاد صندوق الاستثمارات العامة مبادرة رائدة من خلال بيع 1,4 مليون طن مـن أرصدة الكربون بالمزاد العلني، الأمر

الذي أسهم في إنشاءِ أول سوق طوعية للكربون في المنطقة، وتأسيس خطوة مهمة نحو الاستدامة البيئية، وتتماشى إستراتيجية الهيدروجين في المملكة العربية السعودية أيضًا مع الأهداف البيئية العالمية، لا سيما أهداف اتفاقية باريس، التي تكمل الجهود متعددة الأطراف للابتعاد عن الوقود الأحفوري.

يوجد في الأساس نوعان من الهيدروجين: الأول هو الهيدروجين الأزرق، ويُنتج هذا النوع من الغاز الطبيعي باستخدام تقنية «استخلاص الكربون واستخدامه وتخزينه» التي تعرف اختصارًا بـ(CCUS)، ومن خلال هذه التقنية، يجري التقاط انبعاثات الكربون الناتجة في أثناء إنتاج الهيدروجين، مما يجعلها خِيارًا أنظف من الغاز الطبيعي التقليدي. ومقارنةً بإنتاج الهيدروجين التقليدي من الغاز الطبيعي (الذي ينفث ثاني أكسيد الكربونCO_2)، يلتقطُ الهيدروجين الأزرق جزءًا كبيرًا من الانبعاثات، الأمر الذي يجعل منه خِيارًا أنظف، ويُستخرج غالبية إنتاج الهيدروجين (أكثر من 90%) من الوقود الأحفوري، الذي ينتجُ عنه 10 كجم من ثاني أكسيد الكربون لكل 1 كجم من الهيدروجين المُنتج[12]. والثاني هو الهيدروجين الأخضر وينتج عن طريق تحليل المياه باستخدام التحليل الكهربائي، ويعملُ بواسطة مصادر متجددةٍ مثل الطاقة الشمسية أو الرياح.

لا تزال تقنية الهيدروجين الأزرق والأخضر في الوقت الراهن، في أولى مراحل تطور نموها، وتحتل الصين مركز الصدارة في مجال الهيدروجين على مستوى العالم، وتحمل لقب أكبر منتج ومستهلك في العالم، وقد ارتفع إنتاجها من الهيدروجين بشكل مطّرد، بمعدل نمو سنوي مذهل بلغ 6.8% منذ عام 2010م[13]. وبحلول عام 2020م، زاد الإنتاج بصورة كبيرة وبلغ 33 مليون طن. ولكن عند التمعن عن كثب، يظهر أن الاعتماد على الأساليب التقليدية ما زال قائمًا. فحاليًّا يعتمد ما يزيد على 60% من إنتاج الهيدروجين في الصين على عملية «تغويز الفحم | Coal Gasification»[14*]، التي ينجم عنها انبعاثات كربونية كبيرة، وتعتمد الصين أيضًا في إنتاج نسبة جيدة من الهيدروجين (تقارب 20%) عبر تفاعل «عملية إصلاح الميثان بالبخار|Steam Methane Reforming Process». أما نسبة الهيدروجين باعتباره منتجًا ثانويًّا فتُقدَّر بـ18%، ويُمَثل الهيدروجين الأخضر، وهي أنظف طريقة إنتاج، أقل من 1% من إجمالي إنتاج الصين، ومع ذلك، فإن إنتاج كمية صغيرة من الهيدروجين يَمنح البلد المنتج الفُرصة لكي يكون في طليعة هذا المجال.

ولا يُعدُّ دخول المملكة العربية السعودية إلى سوق الهيدروجين، مجرد جهود تُبذل في سبيل التنويع الاقتصادي فقط، ولكنه يأتي ضمن مناورةٍ جيو-سياسية إستراتيجية، ففي الوقت الذي يتجهُ العالم نحو مصادر طاقة أنظف، يلعب الهيدروجين دورًا حاسمًا في عملية التحول في نظام الطاقة العالمي، إذ بلغت سوق الهيدروجين

الأزرق فـي عـام 2024م نحـو 24.29 مليـار دولار، ومـن المتوقـع أن ينمـو بمعـدل سـنوي مُرَكَّـب بنسـبة 11.82% ليبلـغ 47.74 مليـار دولار فـي عـام 2030م[15]. ولكـن هـذا لا يحـدث مـن فـراغ، إذ تسـتغل دول أخـرى غنيـة بالغـاز، مثـل الولايـات المتحـدة وكنـدا، مواردهـا الوفيـرة لبـدء إنتـاج الهيدروجيـن لتحقيـق أهـدافٍ خاصـة بخفـض الانبعاثـات، ومـا يدفـع عجلـة السـوق هـو السياسـة الصناعيـة ومشـاريع التسـويق التـي يجـري العمـل بهـا حاليًّـا فـي السـوق إذا جـاز التعبيـر، علـى سـبيل المثـال سـتقدم هونـدا سـيارةً تعمـل بخلايـا وقـود الهيدروجيـن ويمكـن إعـادة شـحنها أيضًـا، ممـا يجعلهـا أول شـركة لصناعـة السـيارات اليابانيـة، تُقـدم هـذه التكنولوجيـا إلـى السـوق[16].

وتقـدم مشـاريع الهيدروجيـن الطموحـة التـي تخـص المملكـة، مثـل مشـروع نيـوم، وهـو مشـروع ضخـم تبلـغ تكلفتـه 500 مليـار دولار، نموذجًـا علـى التزامهـا، إذ يسـعى مشـروع نيـوم إلـى تزويـد المدينـة بأكملهـا بالطاقـة المتجـددة، خصوصًـا الطاقـة الشمسـية وطاقـة الريـاح، ممـا يجعلهـا منـارةً لإنتـاج الهيدروجيـن الأخضـر. ولا يقتصـرُ هـذا المشـروع علـى إنتـاجِ الهيدروجيـن فحسـب، بـل يتعلـق أيضًـا بإثبـاتِ جـدوى وتوسـيع نطـاق الهيدروجيـن الأخضـر لكـي يصبـح حجـر الزاويـة فـي الاقتصـاد المُسـتَدام. ومـن المتوقـع أن تنتـج مُنشـأة الهيدروجيـن الأخضـر فـي نيـوم 650 طنًّـا يوميًّـا، الأمـرُ الـذي يُسـهمُ فـي تغذيـةِ مختلـف القطاعـات بالطاقـة، مـن النقـلِ وحتـى الصناعـات الثقيلـة، وهـذا بـدوره سـيظهر التطبيقـات متنوعـة الاسـتخدام للهيدروجيـن التـي تُسـهمُ فـي خفـضِ الانبعاثـات الكربونيـة مـن مجموعـة واسـعة مـن الأنشـطة الاقتصاديـة.

يُوَفـرُ الموقـعُ الجغرافـي الإسـتراتيجي للمملكـة العربيـة السـعودية، الـذي يربـط بيـن الشـرق والغـرب، ميـزة لا مثيـلَ لهـا فـي سـوق الهيدروجيـن العالميـة، إذ يمكـن أن تصبـح المملكـة محطـةً مركزيـةً فـي سلسـلةِ توريـد الهيدروجيـن، وتصديـره إلـى كلٍّ مـن الأسـواق الآسـيوية والأوروبيـة. إنَّ تَحـول أوروبـا بصـورة قويـة نحـوَ الطاقـة النظيفـة والطلـب الهائـل علـى الطاقـة فـي آسـيا يفتـح للمملكـة سـوقًا كبيـرة لتصديـر الهيدروجيـن الأخضـر. بالإضافـةِ إلـى الهيدروجيـن الأخضـر، يحظـى توجـه المملكـة العربيـة السـعودية نحـوَ الهيدروجيـن الأزرق بنفـس الأهميـة الإسـتراتيجية، إذ تخطـط المملكـة للاسـتفادة مـن احتياطاتهـا الهائلـة مـن الغـاز الطبيعـي والبنيـة التحتيـة الحاليـة لزيـادة إنتـاج الهيدروجيـن الأزرق، فمـن خـلال تقنيـة «اسـتخلاص الكربـون واسـتخدامه وتخزينـه» التـي تُعـرف اختصـارًا بـــ(CCUS)، تهـدفُ المملكـة العربيـة السـعودية إلـى جعـلِ الهيدروجيـن الأزرق مـن بيـن أنظـف المـواد وأكثرهـا تنافسـية فـي السـوق. ويسـاعد هـذا النهـج المـزدوج فـي الحصـول علـى كل مـن الهيدروجيـن الأزرق والأخضـر، المملكـة فـي تلبيـة احتياجـات السـوق المتنوعـة ومراحـل التحـول فـي مجـال الطاقـة نحـو اقتصـاد الهيدروجيـن. ومـن المرجـح أن تكـون سلاسـل التوريـد الحاليـة عـاملًا مهمًّـا لتسـهيل تحـول أكثـر سلاسـة فـي مجـال الطاقـة.

يَجري نقل معظم النفط الخام حاليًّا عبر صهاريج سفن كبيرة أو خطوط أنابيب، التي لا يمكن استخدامها مباشرةً كما هي مع خطوط الأنابيب المخصصة للهيدروكربونات السائلة (النفط الخام) لغاز الهيدروجين، لأن الحجم الجزيئي الصغير وسرعة هذا الغاز في التدفق والانتشار، يتسببان في مشكلات عند تخزينه، على رأسها إضعاف المعادن المستخدمة في التخزين، واحتمال تسربه. ومع ذلك، يمكن تكييف بعض خطوط أنابيب الغاز الطبيعي الحالية أو تعديلها بسهولة كبيرة لنقل الهيدروجين، خصوصًا بالنسبة للهيدروجين الأزرق، الذي يمكن مزجه بالغاز الطبيعي في خطوط الأنابيب الحالية إلى حدٍّ ما دون إحداث تعديلات كبيرة. أما بالنسبة لسفن نقل الهيدروجين الأخضر، فمن المرجح أن يُنقل على شكلِ سائل أو إذابته في سوائل أخرى مثل الأمونيا، أو من خلال نوع آخر من «ناقلات الهيدروجين العضوية السائلة((Liquid Organic Hydrogen Carriers(LOHCs) وهذا الأمر سيتطلب بالتأكيد إعادة استخدام ناقلات النفط مع إجراء بعض التعديلات الإضافية عليها. على سبيل المثال، يتطلب نقل الهيدروجين مثل سائل الأمونيا (وتعد طريقة أكثر نجاعة وجاذبة أيضًا لسهولة إذابة الأمونيا بالمقارنة مع إذابة غاز الهيدروجين) في سفنِ نقلٍ مزودة بصهاريج تخزين مبردة ومخصصة للأمونيا. وبعبارةٍ أخرى، فإن التغييرات في أسواق الطاقة الجديدة وسلاسل التوريد التي تدعمها لن تتطلب فقط تغيير نوع التدفقات عبر الحدود، ولكن الوسائل التي تسهل نقلها كذلك.

3. الطاقة الشمسية:

تعمل المملكة العربية السعودية بقوة على توسيع قدراتها في مجال الطاقة الشمسية باعتبارها جزءًا من إستراتيجيتها الأوسع لتنويع مصادر الطاقة وتقليل انبعاثات الكربون. وفي هذا السياق، يهدف «البرنامج الوطني للطاقة المتجددة» في المملكة إلى توليد 50% من الكهرباء من مصادر متجددة بحلول عام 2030. في نوفمبر 2023م، أبرمت شركة «أكوا باور| ACWA Power»، وهي شركة خدمات محلية، اتفاقية مع »الشركة القابضة للمياه والكهرباء (بديل)« لبناء أكبر محطة للطاقة الشمسية في موقع منفرد على مستوى العالم في الشعيبة التابعة لمنطقة مكة المكرمة[17]. من المتوقع أن تبدأ منشأة الطاقة الشمسية عملياتها بحلول نهاية عام 2025م، بطاقة توليد تبلغ 2060 ميجاوات. هذا وتفتخر منطقة الخليج عامةً، والمملكة العربية السعودية خصوصًا بأن لديها أقل تعريفات الطاقة الشمسية في العالم، وتشمل الأسباب الرئيسية وراء انخفاض تعريفات الطاقة الشمسية في منطقة الخليج، مقارنة بدول مثل الهند: انخفاض تكلفة التمويل طويل الأجل المقوَّم بالدولار الأمريكي، وانخفاض العائد المتوقع على حقوق المساهمين (ROI)، وارتفاع موارد الطاقة الشمسية، الأمر الذي قد يؤدي إلى رفع قدرة عامل الاستخدام (CUFs)، ناهيك بعدم فرض ضرائب أو رسوم على المعدات ومبيعات الطاقة، وتكلفة الأراضي زهيدة الثمن

لمشـاريع الطاقة الشمسـية[18]. ويعد الدعم الحكومي في هذا الصدد عاملًا أساسـيًّا في تهيئة ظروف تمويل تيسيرية للإنتاج المحلي وتوسيع نطاقه من خلال جذب الاستثمارات الأجنبية.

يمتلـك صنـدوق الاسـتثمارات العامـة 44% مـن شـركة أكـوا بـاور، وترفـع الشـركة رأس مالهـا السـهمي بـشكلٍ أكبـر، لا سـيما بعدمـا حصلـت علـى قـروضٍ دون فوائـد. ونتيجـة لذلـك، فـإن هـذا الجهـد المدعـوم مـن الدولـة تجـاه الصناديـق السـيادية يسـاعد علـى خفـض التكلفـة للعـملاء وتوسـيع نطـاق قدرتهـا فـي نفـس الوقـت. وقـد سـاعد ذلـك فـي جعـل تكلفـة الطاقـة الشمسـية السـعودية قليلـة، بمـا فـي ذلـك بنـاء وتشـغيل محطـات الطاقـة، مـن بيـن أدنـى المعـدلات فـي العالـم[19]. كمـا أن اسـتثمارات المملكـة فـي مجـال الطاقـة الشمسـية فـي هـذا الصـدد تكمـل بدورهـا مبـادرة الهيدروجيـن الأخضـر، وسـيؤدي اسـتخدام الطاقـة المتجـددة مـن أجـل التحليـل الكهربائـي إلـى تقليـل الانبعاثـات الكربونيـة بصـورة كبيـرة واسـتكمال مشـاريع التحـول فـي مجـال الطاقـة عبـر المبـادرات. كمـا سـاعد انخفـاض تكلفـة الطاقـة الشمسـية فـي جعـل نشـر صناعاتهـا علـى نطـاق واسـع أمـرًا أقـرب منـالًا. وبالنظـر إلـى إطـارٍ زمنـي أوسـع نطاقًـا، شـهدت تكلفـة الألـواح الشمسـية انخفاضًـا كبيـرًا، فبيـن عامَـي 2010 و2020م، انخفـض سـعرها بنحـو 85%[20]، فقبـل 14 عامًـا، كان متوسـط تكلفـة الألـواح الشمسـية الكهروضوئيـة نحـو 2 دولار إلـى 3 دولارات لكل واط، لكـن فـي عـام 2020م، انخفـض هـذا السـعر إلـى نحـو 0.20 دولار إلـى 0.60 دولار لكل واط[21]. وقـد ازداد إجمالـي الطاقـة الشمسـية المركبـة فـي المملكـة العربيـة السـعودية مـن 14 ميجـاوات فـي عـام 2012م إلـى 439 ميجـاوات فـي نهايـة عـام 2021م، وهـو مـا يمثـل زيـادةً بنسـبة 3.064% فـي الطاقـة الشمسـية فـي أقـل مـن عقـد[22]. وتهـدف المملكـة إلـى توفيـر 40 جيجـاوات مـن الطاقـةِ الشمسـيةِ الكهروضوئيـة بحلـول عـام 2030.

تـدرك البُلـدان والشـركات، الفوائـد الاقتصاديـة طويلـة الأجـل والتطـورات فـي مجـال أمـن الطاقـة التـي توفرهـا الطاقـة الشمسـية، نتيجـةً لذلـك، تتسـارع أهميـة الطاقـة الشمسـية بسـرعة ومحوريتهـا فـي إسـتراتيجيات الطاقـة الوطنيـة، ممـا شـجع مزيـدًا مـن الابتـكار، وخفـض التكاليـف، وحفـز الانتقـال إلـى نظـام طاقـة عالمـي أكثـر اسـتدامة ومرونـة. ويشـير التوسـع المسـتمر لسـوق الطاقـة الشمسـية إلـى النقلـة النوعيـة فـي إنتـاج الطاقـة، إذ تحتـل الطاقـة الشمسـية الصـدارة مـن حيـث تلبيـة احتياجـات الطاقـة المتزايـدة في العالـم بشـكل مسـتدام، ويتطلـب مضـي المملكـة قدمًـا نحـو الحصـول علـى مصـادر طاقـة مسـتدامة ومتنوعـة ونظـام موثـوق لتخزيـن الطاقـة لضمـان اسـتقرار شـبكة الكهربـاء وإمـدادات الطاقة المسـتمرة، خصوصًـا خلال الفتـرات التـي يكـون فيهـا الإشـعاع الشمسـي منخفضًـا. تتمثـل إحـدى الخطـوات المحوريـة التـي اتخذتهـا المملكـة نحـوَ هـذا الاتجـاه، بأنهـا أدرجـت تخزيـن البطاريـات فـي مشـاريعها الشمسـية، وعلـى الرغـم مـن أن الأُطُـر التنظيميـة المحـددة

التي تركز على تخزين الطاقة لا تزال آخذة في التطور، فقد بدأت «الشركة السعودية للكهرباء» و«هيئة تنظيم الكهرباء والإنتاج المزدوج» وضع الأسس اللازمة لإدماج تخزين الطاقة في الشبكة الوطنية، ويتضمن مشروع الجوف الكهروضوئي، على سبيل المثال، خططًا لتخزين البطاريات، مما يظهر التزام المملكة استقرار إنتاجها من الطاقة المتجددة. ويعكسُ هذا المشروع إستراتيجية واسعةَ النطاق لاعتماد أنظمة تخزينِ الطاقة التي يمكن أن تُخَفف التحديات التي تفرضها الطبيعة المتغيرة للطاقة الشمسية، وبالتالي ضمان إمدادات كهرباء أكثر استقرارًا وكفاءة. وفي هذا السياق تلعبُ الشراكات الإستراتيجية والسياسات الحكومية أيضًا دورًا بالغ الأهمية في تسريع الاعتماد على الطاقة الشمسية، وتتبنى المبادرات الرامية إلى الحد من انبعاث الكربون وتحقيق أهداف صافي الانبعاثات الصفرية من أجل إكسابها مزيدًا من الزخْم، وهكذا يعزز هذا النهج الشامل نمو سوق الطاقة الشمسية في المملكة، مما يضمن دورها المحوري في التحول العالمي إلى الطاقة المتجددة.

علاوةً على ذلك، قدمت الحكومة عديدًا من الحوافز لجذب الاستثمار في قطاعِ الطاقة المتجددة، بما ذلك «اتفاقيات شراء الطاقة طويلة الأجل | PPAs» من خلالَ شروطٍ تفضيليةٍ لمنتجي الطاقة المتجددة، التي توفر الاستقرار المالي وتشجع الاستثمار، بالإضافة إلى ذلك، سهلت الحكومة طريقة الحصول على التصاريح والتراخيص اللازمة لمشاريع الطاقة المتجددة، مما قلل كثيرًا من العقبات البيروقراطية التي قد يواجهها المستثمرون. وتشمل اللوائح الرئيسية التي تسهل التحول إلى الطاقة الشمسية إدخال آلية «صافي القياس»، التي تسمح لمنتجي الطاقة الشمسية، سواء أكانت سكنية أو تجارية، بتغذية الكهرباء الزائدة في شبكة الكهرباء، والحصول على رصيد في المقابل. وتشجع هذه السياسة على اعتماد الطاقة الشمسية من خلال جعلها أكثر جدوى من الناحية الاقتصادية للمستهلكين الأفراد والشركات، وتوجد لائحة مهمة أخرى تتمثل في وضع المبادئ التوجيهية لـ«هيئة المواصفات والمقاييس والجودة» في المملكة العربية السعودية في ما يتعلق بمعدات الطاقة الشمسية، وحسب هذه الإرشادات، يجب على جميع الألواح الشمسية والمعدات ذات الصلة أن تُبنى بمعايير عالية من الجودة والكفاءة، الأمر الذي يضمن الاستدامة طويلة الأجل لاستثمارات الطاقة الشمسية في البلاد.

ثانيًا: إعادة تشكيل العلاقات الإقليمية

ينعكس توجه المملكة إلى تكثيف الاستثمارات في الطاقة المتجددة إيجابيًّا على دورها الإقليمي والعالمي وتعظيم مكاسبها السياسية والاقتصادية في مجالات عدة:

1. مكاسب اقتصادية:

من المرجح أن تجني اســتثمارات المملكة العربية الســعودية في هذه التقنية المتقدمة أرباحًا اقتصادية وجيو-سياسية، فعديد من دول المنطقة هم من كبار منتجي الغاز والنفط مثــل: العراق والكويت وإيران، لذا قد يلهم أو حتى يضغــط تحول الطاقة في المملكة على غيرها من دول المنطقة لاتباع خطى الرياض. وقد أثبتت المملكة، عبر تعزيز النظام البيئي التقني، بأنها تشــجع على الابتكارِ وجذب شــركات التقنية الدولية، وعلى نمو الشــركات الناشــئة المحلية. وبالتوازي مع ذلك، فمــن المرجح أن تنمو أيضًا تدفقات «الاســتثمار الأجنبي المباشر» من الشــركات العالمية التي تتطلع إلى الاستفادة من أي سوقٍ إقليمية. واســتكمالًا لهذه الجهود الرامية إلى التحديث، بدأت المملكة العربية السعودية في جمع المعلومات المباشــرة عن البيانات المالية للشــركات والمســتثمرين لحساب تدفقات «الاســتثمار الأجنبي المباشــر». وفي الوقت الــذي جاء معظم التدفقــات إلى المنطقة الشــرقية المنتجة للنفط في عام 2022م، فقد شهد أيضًا الاســتثمار غير النفطي نموًّا في السنوات الأخيرة[23]، كما أن إصلاح قطاع الطاقة وتنويعها والتزام البروتوكولات التنظيمية والمحاسبة الموحدة سيجعل السوق الســعودية أكثر شفافية وتجذب مزيدًا من تدفقات «الاستثمار الأجنبي المباشر»، ناهيك بأن الدعاية والصورة لدولة كبرى منتجةٍ للنفطِ وهي تقود مهمة إنتاج الهيدروجين في منطقــة تتميز باقتصاداتٍ تعمل بالوقود الأحفوري، تعزز مكانة المملكة العربية الســعودية الدولية. ومن خلال الــدور الريادي الذي تؤديه في تبني وتطوير التقنيات الرائدة وتحديث أنظمة البيانات والنظام الإداري، يمكن للمملكة العربية السعودية تعزيز قوتها الناعمة.

2. نفوذ جيو-سياسي:

من منظورٍ جيو-سياسي إســتراتيجي، يمنح تركيز إنتاج الهيدروجين والاستثمار والابتكار وحده، الريــاض نفوذًا جغرافيًّا حيويًّا مُهمًّــا، إذ يُعَدُّ تحول المملكة إلــى محطةِ تقنيةٍ في مجالِ الاستدامة وبيئةٍ للتمويلِ والشراكات الإستراتيجية، أداةً يمكن أن تستخدمها لانتزاع التنازلات التي تختارها دول المنطقة. وفي حالة وجودِ علاقاتٍ تنافسية مع دول مثل إيران، فبقدر ما يعد التنويع إســتراتيجيةً دفاعيةً ضد نظام الطاقة التقادمي (غير المستدام) في المملكة، فهي أيضًا سياسة إجراءات اســتباقية من المملكة ضد نظام يعتمد على النفط. ورغم أنه من المرجح أن يشوب التأخير والصعوبات الفنية عملية التحول في مجال الطاقة، فإن المكاسب الجيو-سياسية ستبقى لصاحب الأسبقية في هذا المجال، وهي ذات قيمةٍ عالية بحيث لا تترك الآخرين ليستغلوها.

ومع تنويع المملكة العربية السعودية استثماراتها في مجال الطاقة، من المرجح أن يتطور دورها داخل «منظمة البلدان المصدرة للبترول أوبك» وتأثيرها في أسواق النفط العالمية، وفي الوقت الذي قد تقلل المملكة اعتمادها على عائدات النفط، فإن

موقعها باعتبارها من أكبر منتجي النفط في العالم سيسمحُ لها بمواصلة لعب دور محوري في تشكيلِ إستراتيجيات إمدادات النفط العالمية وتسعيرها. ومع ذلك، قد يؤدي استثمارها في الطاقة المتجددة إلى تحولٍ في إستراتيجية أوبك طويلة الأجل، الأمر الذي قد يتضمن تركيزًا أوسع على استقرار الطاقة واستدامتها. كذلك يمكن أن يُحدث تحول المملكة العربية السعودية في مجالِ الطاقة تحولاتٍ في حسابات الطاقة الجغرافية في المنطقة، فتاريخيًّا، تُحدَّد العلاقات السعودية-الإيرانية، جزئيًّا، من خلال أدوارهما باعتبارهما منتجين رئيسيين للنفط. ولا شك في أنَّ حِرص الرياض على أن تُصبحَ رائدةً في مجال الطاقة المتجددة والهيدروجين الأخضر المحتمل، قد يغير معايير القوة الإقليمية، وهذا لا يعني بالضرورة الحد من التوترات ولكن يمكن أن يُؤَدي إلى إعادةِ تشكيل كيفية تأثير موارد الطاقة في السياسة الإقليمية. وعلى سبيل المثال، قد يتصاعد التنافس ويتركز حول التقدم التكنولوجي في مجال الطاقة المتجددة وتدابير الاستدامة بدلًا من التركيز فقط على إنتاج النفط وأسعاره.

يمكن أن يعزز استثمار المملكة العربية السعودية في الطاقةِ المتجددةِ والتنويع الاقتصادي الناجم عن ذلك وضعَها الأمني من الناحية الإستراتيجية، من خلالِ تقليص إمكانية تعرضها لتقلباتِ سوق النفط والتخريب المحتمل للبنية التحتية النفطية، وهي مخاوف حاضرة، لا سيما بعد الهجمات السابقة المنسوبة إلى إيران على المنشآت النفطية السعودية، لذلك تسعى المملكة إلى تخفيض قدرة إيران على الإضرار بها في هذا المجال. وفي الوقت الذي تُطوّر فيه المملكة العربية السعودية بِنْيتها التحتية للطاقة المُتجددة، قد تستمر أيضًا في تحصين هذه الإمكانيات، وفي خلق ديناميات أمنية جديدة في المنطقة.

3. النفوذ العالمي:

إن استثمار المملكة العربية السعودية، بوصفها منتجًا رئيسيًّا للنفط، في الطاقة المتجددة والتقنيات ذات الصلة يمكن أن يضعها رائدة في التحول العالمي في مجال الطاقة، ويمكن لهذا التحول الإستراتيجي أن يمكِّن المملكة العربية السعودية من تشكيل القواعد والمعايير الدولية للطاقة المتجددة، مثلما فعلت مع الأسعار والسياسات النفطية. وقد تعزز استثمارات المملكة في الطاقة المتجددة، الدفاع عن سياساتها في مجال الطاقة العالمية التي تصب في مصالحها الاقتصادية والإستراتيجية، والتأثير إيجابًا في قواعد التجارة الدولية، والمعايير البيئية، وحتى التحالفات الأمنية، وهذا لن يضمن أمن الطاقة للمملكة على المدى الطويل فحسب، بل سيعطيها أيضًا دورًا رئيسيًّا في تشكيل أسواق الطاقة العالمية في المستقبل، كما هو الحال مع النفط لأكثر من نصف قرن.

وفي نطاق الاقتصادات الناشئة والنامية، ستكون المملكة العربية السعودية قادرةً على الاستفادة من قدراتها في مجال الطاقة المُتجددة، وذلك من أجل الدخولِ في

شـراكةٍ مـع البلـدانِ الناشـئةِ والناميـة، خصوصًـا تلـك الموجـودة فـي إفريقيـا وجنـوب شـرق آسـيا. ومـن خلالِ توفيـر إمكانيـةِ الوصـول إلـى تقنيـاتِ الطاقـة النظيفـة وذات الأسـعار المعقولـة، يمكـن للمملكـةِ أن تلعـبَ دورًا بالـغ الأهميـة فـي تنميتهـا الاقتصاديـة، وبالتالـي تأميـن شـروط تجاريـة مواتيـة ودعـم دبلوماسـي علـى المنصـاتِ الدوليـة، ويمكـنُ لـدولٍ مثـل جمهوريـة الكونغـو الديمقراطيـة، التـي تنتـج 70% مـن الكوبالـت فـي العالـم، تعزيـز علاقاتهـا مـع المملكـة العربيـة السـعودية مـن خلال إبرام اتفاقيـات تجاريـةٍ معهـا. ويدعـم هـذا الأمـر اهتمـام الريـاض المتزايـد بلعـب دور أكثـر أهميـة فـي القـارة الإفريقيـة، التـي تحظـى بمحـورٍ إسـتراتيجي فـي مجـالِ الطاقـة المتجـددة، ممـا يشـير إلـى إمكانيـة إقامـة علاقـاتٍ ثنائيـةٍ إيجابيـةٍ مـع الـدول الإفريقيـة الغنيـةِ بالمعـادنِ الحيويـة وإمكانـات الطاقة المتجـددة.

فـي منطقـةِ آسـيا والمحيـط الهـادي، تقـود اليابـان وكوريـا الجنوبيـة الجهـود نحـو حلـول الطاقـة النظيفـة باسـتخدام تقنيـة الهيدروجيـن الأزرق. ويغـذي هـذا الزخـم التقـاء اسـتثمارات القطـاع الخـاص والمبـادرات الحكوميـة الاسـتباقية فـي المنطقـة، إذ يذهـب مـا يقـرب مـن 10%، أي مـا قيمتـه 362 مليـار دولار، التـي تحصـل عليهـا المملكـة العربيـة السـعودية، منهـا مـا يقـرب مـن 80% تحصـل عليـه مـن الزيـوت المعدنيـة والوقـود ومنتجات التقطيـر، إلـى اليابـان وكوريـا الجنوبيـة علـى التوالـي[24]. كمـا كانـت المملكـة ثانـي أهـم مُصدّر للنفـط بالنسـبة للصيـن، فقـد جـاءت فـي المرتبـة الثانيـة بعـد روسـيا عـام 2023م بحجـم بلـغ 85.96 مليـون طـن. وسـوف تُحَفِّـز عمليـة تعزيـز الشـبكات التجاريـة القائمـة والانفتـاح الاقتصـادي والمالـي للمملكـة العربيـة السـعودية، أشـكالًا بديلـةً للطاقـةِ داخـل المنطقـة وتُرَسِّـخ فـي الوقـت نفسـه الروابـط الجيو-سياسـية فـي نمـوذجٍ جديـدٍ للطاقـة، وسـتَظل حالـة التوتـر فـي بحـر الصيـن الجنوبـي تـشكل خطـرًا عالميًّـا أمنيًّـا واقتصاديًّـا.

فـي جميـعِ أنحـاءِ منطقـة أوروبـا والشـرق الأوسـط وإفريقيـا، تُبـدي أوروبـا أولويـةً لسـعيها النَّشِـط لتطويـرِ الهيدروجيـن الأزرق، كونهـا إسـتراتيجيةً أساسـيةً لتحقيـقِ أهدافهـا الصارمـة فـي مـا يتعلـق بمجـالِ الطاقـة منخفضـةِ الكربـون. وتُؤَكـد «إسـتراتيجية الهيدروجيـن» للاتحـاد الأوروبـي الحاجـة الماسـة إلـى زيـادةِ إنتـاج الهيدروجيـن الأخضـر والأزرق، بِقَصـدِ تحقيـق الأهـداف المتمثلـة فـي التخلـصِ مـن الكربـون وإنشـاءِ سـوقٍ قويـة للهيدروجيـن. ونظـرًا لأن مـا قيمتـه 45 مليـار دولار مـن الصـادرات التـي تُرسـلها المملكـة العربيـة السـعودية يذهـب إلـى أوروبـا، أي مـا يُقـارب مـا نِسـبتهُ 44% إلـى فرنسـا وإيطاليـا وهولنـدا[25]، وبالتالـي مـن الممكـن لإسـتراتيجية الهيدروجيـن فـي أوروبـا وجهـود المملكـة العربيـة السـعودية أن يُكمـل بَعضُهـا بعضًـا بعـدةِ طـرق:

أ. ينسـجم تركيـز أوروبـا علـى الهيدروجيـن الأزرق مـع مـوارد الغـاز الطبيعـي الوفيـرة في المملكـة العربيـة السـعودية، التـي يُمكـن اسـتخدامها لإنتـاج الهيدروجيـن مـن خـلال

تقنيـة «احتجـاز الكربـون وتخزينـه |CCS»، وتقنيـة «إعـادة تشـكيل غـاز المثيـان بالبخـار| SMR». وبالتالـي، يُمكـن للبنيـة التحتيـة الحاليـة للمملكـة العربيـة السـعودية فـي قطـاع الطاقـة أن تُسـاعد فـي جعلهـا مـورّدًا رئيسـيًّا للهيدروجيـن الأزرق إلـى أوروبـا. توفـر هـذه الشـراكة للمملكـة فرصـةً لتنويـع اقتصادهـا بعيـدًا عـن اعتمادهـا الشـديد علـى صـادرات النفـط، ومـن خلالِ الاسـتفادة مـن سـوقِ الهيدروجين المتنامية فـي أوروبـا، يُمكـن للمملكـة العربيـة السـعودية تقليـل اعتمادهـا علـى عائـدات النفـط وتخفيـف المخاطـر المرتبطـة بتقلبـات أسـعار النفـط والطلـب عليـه. ب. يمكـن أن يعـزز توطيـد العلاقـات مـع أوروبـا مـن خـلال التعـاونِ فـي مجـالِ الهيدروجيـن، النفـوذ الجيـو-سياسـي للمملكـةِ العربيـة السـعودية واسـتقرارها بَتَحوُّلهـا إلـى مُـوَرِّدٍ موثـوقٍ بـه للهيدروجيـن منخفـض الكربـون. ويمكـن للريـاض تعزيـز علاقاتهـا الدبلوماسـية مـع الـدول الأوروبيـة، لا سـيما تلـك التـي تربطهـا بهـا بالفعـل علاقـة تجاريـة قويـة، ومـن هـؤلاء لاعبـون رئيسـيون فـي السياسـة الإقليميـة، مثـل فرنسـا. وقـد يخلـق ذلـك تحالفـاتٍ سياسـيةً وثيقـةً، وزيـادة فـرص الاسـتثمار للمملكـة العربيـة السـعودية فـي مبـادراتِ التَّحـول فـي مجـالِ الطاقـة النظيفـة فـي أوروبـا. بالإضافـةِ إلـى ذلـك، ومـع تَحـوُّل مشـهد الطاقـة العالمـي نحـوَ بدائـل أنظـف، يُمكـن أن تسـاعد مشـاركة المملكـة العربيـة السـعودية فـي سـوقِ الهيدروجيـن فـي تقويـة مكانتهـا الدوليـة بلعبهـا دورًا اسـتباقيًّا فـي مكافحـة تَغيُّـر المنـاخ.

الخاتمة

تُقدِّم خطوات المملكة العربية السعودية الطموحة في مشهد الطاقة النظيفة على المستوى العالمي، حالةً مثيرةً للاهتمام بالدراسـة والبحث. وتسعى المملكة من خلالِ إدماج نفسها في خريطة سلاسل إمدادات الطاقة المتجددة إلى ترسيخ هيمنتها الإقليمية وتثبيتِ نفسها لاعبًا رئيسيًّا في عصرِ ما بعد النفط. ومع ذلك، فإن هذا التحول الإستراتيجي يقدم مشهدًا مُعقّدًا من حيث الفُرص والتحديات، يُمكن للتنفيـذ الناجح لرؤية 2030 وأهداف الطاقة المتجددة المرتبطة بها تنويع اقتصاد المملكة بـشكلٍ كبيرٍ، وتخفيف اعتمادها على مورد محدود مثل النفط، وفي الوقت نفسـه فإن التدابير الاستباقية من أجل تأمين موطئ قدمٍ في سـوقِ الطاقة النظيفة المزدهر تنطوي على إمكانية ترسيخ المملكة العربية السعودية باعتبارهـا محطةً مركزيةً في نموذجِ الطاقة الجديد. وهذا بـدورهِ يُمكن أن يُتَرجَم إلى نفوذٍ جيو-سياسـي كبير ويضمن مكانة المملكة بشكلٍ جيدٍ بوصفها وسـيطًا في مجالِ الطاقة على المستوى العالمي في المستقبل.

ومـع ذلـك، فـإن المُضـي قدمًـا فـي هـذا المجـال لـن يخلـو مـن العقبـات، ويعتمـدُ نجـاح سياسـة الطاقـة النظيفـة فـي المملكـة العربيـة السـعودية علـى تمكُّنهـا مـن التَّغَلـبِ علـى عديـدٍ مـن التحديـات الرئيسـية:

أولًا: لا يـزال ضمـان التنفيـذ الفعـال والشَّـفاف لمشـاريع الطاقـة المتجـددة واسـعة النطـاق أمـرًا بالـغ الأهميـة.

ثانيًـا: سـيكون تعزيـزُ نظـامٍ بيئـي قـوي علـى المسـتوى المحلـي للطاقـة النظيفـة، التـي لا تكتمـل إلا بالعمالـةِ الماهـرة والبحـث والتطويـر، أمـرًا بالـغ الأهميـة للاسـتدامة علـى المـدى الطويـل.

ثالثًـا: يتطلـب التعامـل مـع تعقيـدات المشـهد الجيو-سياسـي السـريع التطـور وإدارة الاضطرابـاتِ المحتملـة لـ«التضخـم الأخضـر» رؤيـة إسـتراتيجية مرنـة، لا سـيما أن العالـم يُراقـب باهتمـامٍ شـديدٍ لمعرفـةِ مـا إذا كانـت هـذه السياسـة الإسـتراتيجية سـتضمن للمملكـة مُسـتقبلًا مسـتدامًا، أو مـا إذا كانـت سـتتعرض لتعقيـداتٍ غيـر متوقعـة فـي ميـدانِ الطاقـة الجديـدة.

المراجع والمصادر

(1) موقع صندوق الاستثمارات السعودية، المحافظ الاستثمارية، تاريخ الاطلاع: 21 أبريل 2024م، https://2h.ae/kcdy
(2) Lukas Boer, Andrea Pescatori, Martin Stuermer & Nico Valckx, Soaring Metal Prices May Delay Energy Transition, International Energy Agency, (Nov. 10, 2021), accessed: April 24, 2024, https://2h.ae/YCwi
(3) International Energy Agency, The Role of Critical Minerals in Clean Energy Transitions, (May 2021), accessed: April 24, 2024, https://2h.ae/FJcq
(4) Ibid.
(5) Pantheon Insights, Why Geopolitics Will Matter for the Energy Transition, (Feb. 05, 2024), accessed: April 24, https://2h.ae/yTeb
(6) Wael Hamdi, Saudi Mineral Wealth Could Top $1.3 Trillion Amid Kingdom's Aggressive Exploration Plan, Arab News, (Jan. 10, 2022), accessed: April 24, 2024, https://2h.ae/VsTu
(7) TradeArabia, Saudi Arabia Launches $207m Geological Mapping Project, (May 28, 2023), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/YhtE
(8) The Economist, The World Needs more Critical Minerals.. Governments are not Helping, (Feb. 22, 2024), accessed: Apil 22, 2024, https://2h.ae/vfGx
(9) Michael Pooler, Saudi Arabia Makes Mining Bet with Stake in Vale's Base Metals Division, Financial Times, (July 28, 2023), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/qLuR
(10) Statista, Demand for Lithium Worldwide in 2020 and 2021 with a Forecast from 2022 to 2035, accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/ZoQb
(11) Saudi Arabia Wants to be the Saudi Arabia of Minerals, The Economist, (Jan. 11, 2024), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/PFMf
(12) by Half, Hydrogen Central: Cuts Costs for Capturing Carbon Dioxide, Essential for Producing Blue Hydrogen, (March 07, 2024), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/zyWw
(13) International PtX Hub, Factsheet on China, the World's Largest Hydrogen Producer and Consumer, accessed: Apil 22, 2024, https://2h.ae/ukbG
(14) وهي عملية كيميائية الهدف منها تحويل الكربون في الفحم إلى مركبات غازية قابلة للاشتعال.
(15) Research and Markets, Global Blue Hydrogen Market by Technology, Global Market Insights Inc, (Dec. 2023), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/HLrr
(16) Auto Finance News, Honda to Sell Plug-in Hydrogen Vehicle in North America, Japan, (Feb. 28, 2024), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/XAJz
(17) Economist Intelligence, Saudi Arabia Launches World's Largest Solar-Power Plant, (Feb. 17, 2023), accessed: April 22, 2024, https://www.eiu.com/n/about/
(18) JMK Research and Analytics Pvt, India Unable to Compete With Record Low Solar Tariffs in Gulf Region, accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/pMvm
(19) The Economist, Saudi Arabia has an Unlikely Solar Star, (Jan. 04, 2024), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/BNtF
(20) Depending on the Technology and the Scale of the Solar Power Installation.
(21) YCC TEAM, Solar Panel Prices are Dropping without Sacrificing Quality, Yale Climate Connections Research, (Oct. 18, 2023), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/BrSG
(22) Regan Slaymaker, Kingdom of Saudi Arabia Solar Market Report, Solar & Storage Xtra, (March 06, 2024), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/ZiWe
(23) Pesha Magid, Saudi FDI Data Overhaul to Use Financial Statements not Estimates, Reuters, (Feb. 01, 2024), accessed: April 22, 2024, https://2h.ae/EIps
(24) The Observatory of Economic Complexity (OEC), Saudi Arabia, accessed: A , 2024, https://2h.ae/nrgu
(25) Ibid.

دور إيران والفواعل الفصائلية في عملية طوفان الأقصى.. الأدوات ومردود السياسات

علـــي بكـــر

أكاديمي وباحث في العلاقات الدولية

الملخص:

لم تكُن عملية «طوفــان الأقصى» عملية عابــرة وعفوية نفَّذتها حركــة «حماس» دون تخطيط مُسبَق ووجود دعْمٍ إستراتيجي مؤثِّر وفاعل، إذ كانت هذه العملية بمثابة خط فاصل ما بين مرحلتين مختلفتين من الصراع للفاعل المســلَّح العنيف «حماس» مع إسرائيل، إذ أصبح الحديث عن القضية الفلســطينية وفق سياق ما قبل وما بعد مرحلة الطوفان. ولعلَّ الوقوف على أبــرز الارتدادات الأمنية والإســتراتيجية ومراجعة اســتعدادات «حماس» السابقة وارتباطاتها، هو محور التناول في هذه الدراسة لبحث إشكالية معقَّدة تتعلَّق بدور إيران في هذه العملية، لا سيّما أنَّ طهران وظَّفت هذه العملية إستراتيجيًّا وتدافعت إقليميًّا لتتصدَّر المشهد، عبر أدواتها الفاعلة العنيفة على الأرض في العراق وسوريا واليمن ولبنان، وكان لها دور بارز في صياغة إســتراتيجية التصعيد منخفِض الحِدَّة تجاه الولايات المتحدة وإسرائيل عبر هذه الفواعل العنيفة. وبذلك، أرسلت إيران بمجموعة من الرسائل، أهمُّها أنَّها تمتلك أدوات فصائلية مؤثِّرة في المنطقة، تســتطيع تنشيطها أو تجميدها بالطريقة التي تتّفِق مع أهداف إيران في المنطقة.

الكلمات المفتاحية:

إيــران، طوفان الأقصى، حرب غــزة، المليشــيات الإيرانية، حماس، إســرائيل، الولايات المتحدة، حزب الله، الحوثيين.

Iran and the Role of Factional Groups in Operation Al-Aqsa Flood: Tools and Policy Outcomes

Abstract:
Operation Al–Aqsa Flood was not a spur–of–the–moment action by Hamas; it was meticulously planned with strategic support. This operation marked a significant shift in the conflict between Hamas and Israel. Discussions on the Palestinian issue now revolve around the pre and post–Al–Aqsa Flood phases. Examining Hamas' prior preparations and connections sheds light on Iran's role. Tehran strategically leveraged the operation, using its influence in Iraq, Syria, Yemen and Lebanon. Iran's aim was to assert dominance in the region by orchestrating low–intensity escalations against the United States and Israel. This sent a clear message: Iran wields significant influence through its proxies, which it can activate or deactivate in alignment with its regional goals.

Key Words:
Iran, Al–Aqsa Flood, Gaza war, Iranian militias, Hamas, Israel, the United States, Hezbollah, the Houthis.

المقدِّمـــة

شكَّلـــت عملية «طوفان الأقصى» حالـــة فريدة وجديدة ومتقدِّمة في مـــا يُعرَف بالصراع العربي-الإسرائيلي، وتحديدًا الفلسطيني-الإســـرائيلي، لا سيّما على المستوى المسلَّح، فقد كانت هذه العملية بمثابة تحوُّل كبير لم تشـــهده الساحة الفلسطينية منذ عام 1973م، لما خلَّفته من انعكاسات كبيرة على الواقع الفلســـطيني والعربي والعالمي على حدٍّ سواء. ولعلَّ أبرز ما يمكن الحديـــث عنه في هذه العملية هو أمـــران، الأول: إمكانيات «حماس» القتاليـــة، والثاني: الجهوزية العالية، التي أبدتها في المباغتـــة والمبادرة واتّخاذ هكذا قرار إســـتراتيجي كبير، وهو الأمر الذي يقودنا مباشرةً إلى علاقة الحركة وبقية فصائل المقاومة الفلسطينية مع إيران وأذرعها الإقليمية، إذ كما هو ثابت باعتراف هذه الحركات نفسها، فإنَّها تلَّقت دعمًا ماليًّا وعســـكريًّا كبيرًا جدًّا من إيران، خلال فترات سابقة. وأسهمت إيران بشكل واضح في تطوير قُدراتها عبر التدريب والتأهيل، ســـواء بصورة مباشرة، أو عبر التنسيق مع الفواعل الفصائلية التابعة لإيران في العراق وسوريا ولبنان. ولا شكّ أنَّ تطوير إيران قُدرات «حماس» قد وفَّر لها الجهوزية للمبادرة بتنفيذ هجومها الواسع داخل الأراضي المحتلَّة في غلاف غزة، في الســـابع من أكتوبر 2023م. وعلى الرغم من أنَّ حركة حماس قد اتّخذت قرار الهجوم دون تشـــاوُر مع إيران، لكن عمِلَت إيران على توظيفها لتعزيز مكانتها ونفوذها، كما كانت لهذه العملية ارتدادات على إيران، فقد وجدت نفســـها منخرِطة في مواجهة إقليمية مع الولايات المتحدة وإســـرائيل، وحائرة بين شـــعاراتها المُعلَنة حول فلسطين وبين خطر الدخول في مواجهة مُكلِّفة.

وتحـاول هـذه الدراسـة أن تكشـف أبعـاد دور إيـران فـي هـذه العمليـة، وكيـف عملـت إيـران علـى توظيفهـا، فـي إطـار إسـتراتيجيتها الإقليميـة، ومـا فرضتـه هـذه العمليـة مـن تداعيـات وفُـرَص وتحدِّيـات علـى إيـران، وعلـى نفوذهـا الإقليمـي.

أولًا: علاقة إيران بالفصائل الفلسطينية و«حماس» ضمن إستراتيجية إيران الإقليمية

تمثِّل القضية الفلسطينية قضية مركزية في الخطاب الأيديولوجي الإيراني، وقد حاولت أن تجعلها أحد محاور سياســـاتها الخارجية على مدار عقود، لكنَّها مع الوقت باتت ورقة مهمَّة توظِّفهـــا لخدمة تطلُّعاتها وفق معايير واقعية وبراغماتية. ويمكن أن نُشـــير إلى مكانة هذه القضية وعلاقة إيران بها، ودور إيران ومليشياتها في تسليح فصائل المقاومة الفلسطينية، على النحو الآتي:

1. أهمِّية القضية الفلسطينية لإيران:

أدركت إيران، ومنذ الأسابيع الأولى لمرحلة ما بعد احتلال العراق عام 2003م، أنَّ إستراتيجية توازُن القُوى الإقليمي لم تعُد تلبِّي طموحات ورغبات الأمن القومي الإيراني، لا ســـيّما بعد انهيار إحدى ركائز هذا التوازن، وهو العراق، الذي ولَّد انهياره حالة من الفراغ الإســـتراتيجي

الكبيـــر في المنطقة، الأمر الذي دفع إيران إلى التمدُّد الإقليمـــي، إذ عمِلَت إيران على تنفيذ إســـتراتيجيتها الجديدة، من خلال تشكيل الكيانات الموازية والرديفة خارج الحدود. ووجَّه الحرس الثوري هذه الكيانات لتشارك الدولة في قيادة ملفات الأمن والاقتصاد والسياسة، ومن ثمَّ حازت إيران نفوذًا عسكريًّا وسياسيًّا في هذه الدول. وإلى جانب ذلك، وظَّفت إيران العامل الاجتماعي والمذهبي، وأدمجـــت ذلك مع ادِّعائها نُصرة قضايا عديدة في المنطقة، على رأســـها القضية الفلسطينية، فضلًا عن قضية ظُلم الشـــيعة من الأنظمة السياسية الحاكمة، في دول مثل العراق والبحرين والسعودية ولبنان واليمن، ما سوَّغ لها الدخول إلى معظم هذه الدول، ومحاولة التأثير الاجتمَّاعي فيها لغرض تحقيق تأثير سياســـي أكبر على المستوى الإستراتيجي[1].

وفـي مـا يخُـصّ القضيـة الفلسـطينية تحديـدًا، رُبَّمـا أصبـح مـن الصعـب الحديـث عنهـا بعـد عـام 2003م، علـى المسـتوى الدولـي والإقليمـي، دون المـرور بالـدور الإيرانـي المعقَّـد، الـذي يشـوبه كثيـر مـن الجـدل، إذ اسـتخدمت إيـران القضيـة الفلسـطينية فـي مناسـبات عديـدة، واسـتفادت ممّـا تفعلـه إسـرائيل مـن عمليـات عسـكرية تجـاه الفلسـطينيين، ومـا يقدِّمـه عديـد مـن القُـوى الغربيـة، وعلـى رأسـها الولايـات المتحـدة، مـن دعْـمٍ إسـتراتيجي كبيـر لإسـرائيل، اسـتخدمته إيـران لتعزيـز مكانتهـا ومحورهـا الإقليمـي، فـضلًا عـن قوَّتهـا الناعمـة علـى الصعيديـن العربـي والإسلامـي، إذ بـرَّرت إيـران هـذه القضيـة لدخولهـا فـي صراعـات إقليميـة كبيـرة تجـاه أنظمـة سياسـية عربيـة تصفهـا إيـران بأنَّهـا «عميلة لإسـرائيل والغـرب»، ومجتمعـات عربيـة خذلـت القضيـة الفلسـطينية وأصبحـت دون نُصـرة. هـذا إلـى جانـب أنَّ إيـران اسـتخدمت فكـرة المقاومـة وأسَّسـت محـورًا إسـتراتيجيًّا شـاملًا، ضمـن مـا يُعـرَف بـ«نظريـة أُم القـرى»، تحـت ذرائـع متعـدِّدة الأغـراض الإسـتراتيجية، منهـا تحريـر فلسـطين. وشـكَّلت فصائـل مسـلَّحة، ونفـذت عمليـات تضليـل إعلامـي وسياسـي كبيـر انجـرف إليـه بعـض المجتمعـات العربيـة، التـي باتـت تـرى إيـران باعتبارهـا جهـة داعمـة للمقاومـة، فـضلًا عـن توظيـف القضيـة لتحقيـق اسـتمالات اجتماعيـة واسـعة، تُضيـف مـن خلالهـا إيـران شـرعية إلـى نفسـها، باعتبـار أنَّ القضيـة الفلسـطينية قضيـة عادلـة لشـعب مظلـوم، وبالتالـي مـن السـهل أن تمنـح إيـران مكاسـب ومكانـة خاصَّـة.

مـع ذلـك، يجـب عنـد تنـاوُل علاقـة إيـران بفصائـل المقاومـة الفلسـطينية، بمـا فـي ذلـك «حمـاس»، أن نفـرِّق بيـن معياريـن، الأول: الأيديولوجـي العقائـدي، الـذي يحكُـم علاقـة إيـران بالفصائـل الشـيعية المؤمنـة بـ«ولايـة الفقيـه»، وبعلويـة المرجـع الإيرانـي الأعلـى علـي خامنئـي، أي إنَّ هـذه الفصائـل تُقاتـل ضمـن منظومـة عقائديـة وأُطُـر مذهبيـة تأتمـر بمرجعيـة خامنئـي، وليـس حمايـةً لدولهـا أو أوطانهـا، بـل إنَّهـا تخـدم فكـرة عقائديـة عابـرة للحـدود الوطنيـة للـدول. غيـر أنَّ الهـدف الإيرانـي الأساسـي هـو تحقيـق نـوع مـن النفـوذ

والتأثير في هذه الدول، عبر توظيف العقيدة وليس نصرةً للعقيدة بشكل فعلي، وليس أدلَّ على ذلك سوى واقع حال الشيعة البائس في هذه الدول.

والمعيار الثاني، وهو البراغماتي المصْلحي، هو الذي يحكُم علاقة إيران ببعض الجهات، التي لا تشارك إيران الأيديولوجيا والعقيدة، لكن من خلاله استكملت إيران فكرة التوظيف الإيراني وجعْلها أكثر شمولية، إذ استطاعت إيران أن تتخادم وتلعب على فصائل غير عقائدية براغماتية، مثل «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، وإلى حدٍّ ما «الحوثيين» في اليمن. بالتالي، امتلكت إيران أكثر من مؤثِّر ومحرِّك عام للأحداث في هذه الدول، إذ إنَّ الفراغات الأمنية، التي ظهرت في هذه الدول نتيجةً لانهيار دور المؤسَّسات الأمنية الرسمية ونمو الجماعات الإرهابية المتطرِّفة من جرَّاء الأحداث، التي مرَّت بها، جعل من إيران ذات إمكانية للتأثير في مساحات إضافية للتعاون مع جهات براغماتية تخدم الأمن القومي الإيراني[2].

2. الدعم الإيراني المباشر لـ«حماس»:

حصلت حركة حماس على دعْم مباشر من إيران، ودعْم غير مباشر عن طريق فصائلها في مناطق النفوذ في العراق وسوريا ولبنان. والأرجح أنَّ «حماس» لم تصِل إلى هذه الإمكانيات الصاروخية والجوِّية عن طريق الجهد الذاتي فقط، بل إنَّه من الواضح أنَّ لـ«حماس» شراكاتٍ إستراتيجيةً مع فصائل مسلَّحة وأنظمة سياسية ودول، أسهمت بشكل مباشر في تطوير هذه القُدرات، وزوَّدت «حماس» بالفُرَص المناسبة لتدريب الكوادر البشرية الخاصَّة بها، وحصولهم على شهادات جامعية عُليا في إيران وسوريا والعراق ومصر وتركيا وماليزيا والأردن ولبنان وتونس وجورجيا وروسيا وأرمينيا، وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية. ولعلَّ الجداول المرفقة توضِّح طبيعة الصواريخ والطائرات المسيَّرة، التي تمَّتلكها «حماس»، وكيف استطاعت تطويرها داخل وخارج غزة عبر الدعم، الذي تلقَّته من أطراف عديدة، على رأسها إيران.

جدول (1): القُدرات الصاروخية لـ«حماس» وعلاقة إيران بها

اسم الصاروخ	المدى	مصدر الصُّنع	التطوير
فجر 3	43 كم	إيران	غير مطوَّر
فجر 5	75 كم	إيران	غير مطوَّر
M302	180 كم	سوريا	غير مطوَّر

اسم الصاروخ	المدى	مصدر الصُّنع	التطوير
قسّام 12	12 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
قسّام 20	20 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
S 55	55 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
J 80	80 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
M 75	75 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
J 90	90 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
A 120	120 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
SH 85	85 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
عيّاش 250	250 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر

المصدر: صواريخ حماس «أذهلت» إسرائيل.. ما أنواعها وقُدرتها العسكرية؟، (8 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 30 أبريل 2024م، https://2h.ae/GfCp

كان برنامج «أبابيل»، الخاص بالطائرات المسيَّرة، واحدًا من أبرز ملامح العَلاقة بين إيران و«حماس»، على مستوى تطوير القُدرات الجوِّية المتعلِّقة بالطائرات المسيَّرة، إذ تلقَّى المهندس التونسي محمد الزاوي ومنذ فترات مبكِّرة بعد عام 2005م تدريبات مكثَّفة في إيران على صناعة الطائرات المسيَّرة. وقد صنَعَ محمد الزاوي أكثر من 30 طائرة عام 2008م لكن جرى استخدامها بعد عام 2014م في الحرب ضدّ إسرائيل لأسباب فنِّية تتعلَّق بتطويرها. وإثر ذلك، اغتالت إسرائيل محمد الزاوي في تونس عام 2016م، كما اغتالت فادي البطش في ماليزيا عام 2018م، فضلًا عن استهداف منشآت خاصَّة داخل غزة لأغراض تطوير الطائرات المسيَّرة، كان يعمل فيها أكثر من 15 مهندسًا متخصِّصًا تلقَّوا تدريبهم في إيران وتركيا والعراق ودول أخرى[3].

جدول (2) :الطائرات المسيَّرة لدى «حماس» وعلاقة إيران بها

اسم الطائرة المسيَّرة	المهام	مصدر الصُّنع	التطوير والتركيب
أبابيل 1 أو A1A	استطلاعية	صُنعت القطع الرئيسية في إيران	غزة
أبابيل 1 أو A1B	هجومية قاصفة	صُنعت القطع الرئيسية في إيران	غزة
أبابيل 1 A1C	انتحارية	صُنعت القطع الرئيسية في إيران	غزة
شهاب	انتحارية	غزة مع دعم خارجي	غزة
الزواوي	انتحارية	غزة مع دعم خارجي	غزة

المصدر: موقع العربي، من بينها الزواوي.. تعرَّف ترسانة المسيَّرات لدى كتائب القسّام، (9 ديسمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 30 أبريل 2024م، https://2h.ae/

3. دور الفواعل الفصائلية في تعزيز قوَّة «حماس»:

قد يوجد غموض حول الطريقة، التي أوصلت بها إيران دعمها العسكري إلى فصائل المقاومة الفلسطينية، وهُنا قد يمكن القول إنَّ عديدًا من الإمكانيات التكنولوجية، التي تخُصّ تصنيع وتطوير الصواريخ والطائرات المسيَّرة والغوّاصات الصغيرة، التي استخدمتها حماس في عملية «طوفان الأقصى» ضدّ إسرائيل، رُبما مرَّت عبر الحدود العراقية-السورية من خلال الوكلاء المحلِّيين الموالين لإيران. وهذا الطرح يقودنا إلى تصريح قائد القوَّة الجوِّية في الحرس الثوري الإيراني، أمير علي حاج زاده، عام 2021م، حينما قال: «غزة ولبنان على الخطوط الأمامية لهذه الحرب، لقد كانت قُدراتهما الصاروخية متزايدةً بسبب دعْم جمهورية إيران الإسلامية[4]».

من جهة ثانية، فإنَّ جزءًا كبيرًا من الصواريخ والطائرات المسيَّرة والمفخَّخة، التي استخدمتها حركة حماس، رُبما صُنِّعت أجزاء منها في المصانع الإيرانية المنتشرة في مناطق النفوذ بسوريا والعراق، فضلًا عن إرسال إيران مجموعة كبيرة من المعدَّات اللوجستية، التي تُستخدَم في تصنيع الطائرات المسيَّرة عبر الحدود العراقية-السورية، ومن ثمَّ نُقلت عبْر الأنفاق إلى غزة أو عبْر البحر[5].

وتُشير تقارير إلى أنَّ إيران استخدمت الحدود العراقية-السورية لنقل المعونات المالية المباشرة إلى «حزب الله» اللبناني وحركة «حماس» كذلك، إذ بلغ حجم الدعم

الإيراني لحركة «حماس» أكثر من 30 مليون دولار في الشهر، وذلك لتأسيس شبكة أنفاق معقَّدة داخل غزة، استخدمتها «حماس» في عملية «طوفان الأقصى»، ولا تزال تستخدمها حتى الآن في مواجهة إسرائيل[6].

ولا يفوت التنويه بأنَّ إيران لعِبَت دورًا مُهمًّا في المصالحة، التي حدثت بين النظام السوري وحركة حماس بعد عام 2017م، وبالتالي عمِلَت إيران على تطوير الإمكانيات القتالية الفردية والجماعية لمقاتلي «حماس» في معسكرات خاصَّة أنشأتها الفصائل المسلَّحة داخل العُمق السوري. وقد استخدمت إيران الطُّرق البرِّية المارَّة بالعراق من أجل رفْد حركة حماس بأحدث التكتيكات القتالية المتعلِّقة بالقتال «جو-ظأرض»، أو ما يُعرَف بـ«القتال الشراعي»، «التي جرى تطبيقها في عملية طوفان الأقصى»[7].

ورُبما لم يغِب عن إيران أهمِّية استكمال مشروع التمدُّد العابر للحدود بالتأسيس لنفوذ عميق المستوى على الخط الشريطي الساحلي المُطِلّ على البحر المتوسِّط، الذي يشمل موانئ اللاذقية وبانياس والحميدية وطرطوس وبيروت، حيث دخلت شركة «خاتم الأنبياء»، وهي شركة مقاولات إيرانية تمثِّل الذراع الاقتصادية للحرس الثوري، لبناء أرصفة إضافية وتطوير بعض المنشآت على الساحل لتصدير النفط والفوسفات والغاز، فضلًا عن دخول الشركة في مشاريع التنقيب على الغاز بالشراكة مع الروس[8].

في العموم، لم تكُن وظيفة السيطرة الإيرانية على الموانئ والساحل في سوريا ولبنان فقط لأغراض تخُصّ النقل وإمدادات الطاقة وتحقيق التوازن الإقليمي وصياغة نظرية ردْع باتّجاه إسرائيل فحسب، بل وظَّفت إيران إمكانياتها لأغراض تتعلَّق بتطوير قُدرات «حماس»[9].

وهُنا يُشار إلى إنشاء مصانع لصناعة الغوّاصات المصغَّرة في سوريا ولبنان، كان لها دور كبير في نقْل التكنولوجيا والصواريخ والمعدَّات اللوجستية الأخرى من الساحل السوري واللبناني إلى غزة، حيث دعمت إيران عشرات الطلاب لدراسة الهندسة والاتصالات والتخصصات ذات العلاقة في تركيا وماليزيا وطهران، من ثمَّ عادت هذه الموارد البشرية إلى العمل في مشاريع «حماس» العسكرية، وبمساعدة الإيرانيين بشكلٍ مباشر[10].

كذلك أسهمت عملية السيطرة الإيرانية على استخدام السُّفُن التجارية الخاصَّة في نقل النفط والفوسفات والبضائع من الساحل السوري إلى عرض البحر، حيث طوَّر الحرس الثوري الإيراني بناء قواعد عمليات بحرية تكون مهامها تنفيذ إنزالات في عُمق البحر (داخل المياه الدولية)، قبالة ساحل غزة بعشرات الكيلومترات. إذ تكون مهمَّة هذه الإنزالات هي تعزيز القُدرات العسكرية والصاروخية لـ«حماس»، إذ يجري إلقاء الطرود العسكرية في عُمُق البحر من قوّات الحرس الثوري الإيراني أو قوّات سورية أو تابِعة

لـ«حزب الله» على هيئة سُفُن تجارية، لكي تتلقَّفها الطرادات التابعة للقوَّة البحرية لحركة حماس «قوة النُخبة»، وتعمل على تفكيكها في عرض البحر، ونقلها إلى سفن وغواصات مسيَّرة، فضلًا عن طائرات شراعية مصغَّرة تأخذها باتجاهات متعدِّدة، ومنها إلى أنفاق بحرية تنتهي في غزة على الشريط الساحلي، وأخرى قريبة من رفح، حيث نقلها عبر الأنفاق إلى داخل غزة[11].

بالإضافة إلى ذلك، كان من بين مهام الموانئ في الساحل السوري واللبناني تطوير قُدرات «حماس» على الطيران الشراعي، ونقْل معدَّات الحفر الخاصَّة بحفر الأنفاق وتمرير أدوات الحرب السيبرانية، والتدريب على عمليات الإنزال البحري والقتال عبر الزوارق، إذ استخدمت «حماس» هذه التكتيكات خلال عملية «طوفان الأقصى». وأغلب التحليلات العسكرية والاستخباراتية يشير إلى أنَّ هذه العمليات التي استخدمت فيها «حماس» القتال «جو-أرض» و«بحر-بر» و«جو-بحر»، لم تكُن إلّا عمليات جرى الإعداد لها مُسبَقًا بصورة احترافية[12].

ثانيًا: دور إيران في هجوم «حماس» والتوظيف لعملية «طوفان الأقصى»

لا شكَّ أن مساعدات إيران العسكرية لحركة حماس مكَّنتْها من تنفيذ العملية في السابع من أكتوبر، إذ أطلقت «حماس» خلال الساعات الأولى من عملية «طوفان الأقصى» أكثر من 5 آلاف صاروخ سقطت في مناطق متعدِّدة من الأراضي المحتلَّة، سواء في منطقة غلاف غزة، أو على أطراف تل أبيب. واستمَّرت هذه الرشقات الصاروخية بالاتّساق مع عملية اقتحام برِّي وبحري وجوِّي لاقتحام المعسكرات والمنشآت، التي وضعتها «حماس» ضمن دائرة الاستهداف في مناطق سديروت وعسقلان وباقي غلاف غزة. وقد رافق عملية إطلاق الصواريخ استخدام مجموعة كبيرة من الطائرات المسيَّرة، التي نفذت مهمَّتين رئيسيتين[13]: الأولى: الرصد والمتابعة وإبلاغ القوَّة المهاجمة بتحرُّكات الجيش الإسرائيلي، **والثانية:** العمليات الانتحارية المسيَّرة تجاه القوّات الإسرائيلية، و«تحديدًا استهداف أبراج المراقبة في منطقة غلاف غزة»، لاستمرار حالة المباغتة والمفاجأة، التي افتعلتها «حماس» لإرباك الجيش الإسرائيلي.

والحقيقة أنَّه لم تكُن «حماس» لتنجح في عملية «طوفان الأقصى» لولا وجود إمكانيات تكنولوجية وجوِّية وبشرية قادرة على إدارة ملف معقَّد يتعلَّق بالطائرات المسيَّرة والصواريخ، التي أصبحت أكثر دقَّة. وهذه الطائرات كان يُصنَّع جزء منها داخل غزة، وجزء آخر يأتي إلى غزة من الخارج عبر البحر، أو الأنفاق على شكل طرود مفكَّكة، يُعاد تركيبها بشكل مباشر داخل غزة من خلال مهندسين مدرَّبين على هذه المهمَّة[14].

كذلك، شكَّلت الهجمات السيبرانية واحدة من أهمِّ أركان نجاح عملية «طوفان الأقصى»، عبر وقف الكاميرات الحرارية وكاميرات المراقبة في الجدار الفاصل بين قطاع غزة والمستوطنات الإسرائيلية، فضلًا عن تنفيذ هجمات لمشاغلة الأجهزة

السيبرانية الإسرائيلية تجاه عشرات المواقع الإسرائيلية الحكومية والأمنية، إذ اهتمَّت حركة حماس بتأسيس ما يُعرَف بسلاح «السايبر» منذ عام 2014م. هذا السلاح يضُمُّ عشرات المبرمجين والمتخصِّصين في مجال التكنولوجيا والاختراقات، يوجدون داخل غزة، وفي دول أخرى مثل تونس ومصر وإيران وتركيا والأردن، وهؤلاء أسهموا بشكل مباشر في إنجاح عملية «طوفان الأقصى»[15].

كما أنَّ تطوير قُدرات «حماس» من الجانب الإيراني، في ما يتعلَّق بالإمكانيات البشرية واللوجستية وبأدوات تتعلَّق بالقتال البحري وقتال السواحل والانغماس في العُمق الإسرائيلي ونصْب الكمائن والعمليات الخاطفة والسريعة، قد جرى توظيفه بشكل مباشر في عملية «طوفان الأقصى»، فقد أشارت تقارير استخباراتية إسرائيلية، كُشف عنها، إلى أنَّ قوَّة النُّخبة البحرية التابعة لحركة حماس قد كانت في طليعة المجموعة، التي نفَّذت عملية «طوفان الأقصى»، وتحديدًا في ساحل زيكيم، حيث اقتحمت القاعدة «بهاد 4» العسكرية، بل إنَّ جزءًا كبيرًا من الحسم جاء عبر هذه المجموعة، كونها نفذت إنزالات بحرية خاطفة أربكت بشكل كبير الجيش الإسرائيلي، وجعلته في حالة تخبُّطٍ كبير[16].

ومن الواضح أنَّ المجموعة المنفِّذة قد تدرَّبت بشكل عالي المستوى (على أقلّ تقدير جزء من المجموعة المهاجمة)، على الطيران المظلِّي، والقتال البشري «جو-أرض»، وعلم الخرائط، والتحليل الاستخباراتي، والقتال المنفرد، في دولة قريبة (قد تكون سوريا أو لبنان، ورُبما العراق أو إيران)، ورُبَّما دول أخرى أسهمت بشكل كبير في تطوير قُدرات المجموعة المسلَّحة المهاجِمة. هذا التدريب أسهم بشكل عالي الدقَّة في إنجاح عملية التسلل داخل العُمق الإسرائيلي.

وبعد أن شنَّت إسرائيل هجماتها على قطاع غزة بهدف القضاء على «حماس»، دخلت الفصائل المسلَّحة في العراق وسوريا ولبنان واليمن حالة من حالات التصعيد منضبِط الحدَّة ضدّ أهداف أمريكية وإسرائيلية. وقد ردَّت إسرائيل، وفي أكثر من مناسبة على هذا التصعيد داخل هذه الدول، عبر الاستهداف المباشر من خلال سلاح الجو لضرب مواقع عسكرية أو شبه عسكرية لإيران وحلفائها من الفصائل. وقد كان جزء من هذا التصعيد هو ما أعلنته جماعة الحوثي في اليمن عن دعمها الكامل لهذه العملية، وأبدت استعدادها التام للاشتراك بشكل مباشر في مواجهة إسرائيل. ولم تكتفِ جماعة الحوثي بالتصريحات الخاصَّة بدعم القضية الفلسطينية والطوفان، بل استخدمت أدواتها العسكرية وأذرعها البحرية والتكنولوجية في شنِّ هجمات مؤثِّرة في سُفُن وبواخر تابعة لإسرائيل أو للولايات المتحدة ولحلفاء إسرائيل في منطقة بحر العرب، وشكَّلت حالة تعبوية شعبية، على مستوى تشكيل ألوية مصغَّرة لتدريب المتطوِّعين من أجل الذهاب للقتال في فلسطين في حالة الحاجة إلى ذلك

(على المستوى الدعائي على أقلّ تقدير)، وهدَّدت كذلك بغلق مضيق باب المندب. فضلًا عن استخدام جماعة الحوثي الأداة الاعلامية في ترويج عملية الطوفان ودعمها، وكما بات معروفًا أنَّ جماعة الحوثي تتلقَّى دعمًا عسكريًّا ولوجستيًّا كبيرًا من إيران، على مستوى التكنولوجيا التي تستخدمها في الطائرات المسيَّرة في أثناء هجماتها أو باتّجاه البواخر والسُّفُن المارَّة عبر الممرّات البحرية القريبة من اليمن، بالإضافة إلى التدريبات المباشرة، التي تلقَّتها مجاميع خاصَّة تابعة لحركة الحوثي طوَّرت إمكانيات القرصنة والإنزالات البحرية. وقد جاءت تحرُّكات جماعة الحوثي بالاتّساق والتنسيق مع الموقف الإيراني المتصاعد في هذه القضية الإستراتيجية، وقد وظَّفت إيران حالة الفوضى الأمنية، التي شكَّلتها جماعة الحوثي في هذه المنطقة، واستخدمتها في استدامة الضغط على إسرائيل والقُوى الغربية كذلك، فقد دخلت هذه التحرُّكات الإيرانية ضمن حالة التصعيد منضبِط الحدَّة، التي جرى استخدامها للمساومة واستدامة الزخْم[17].

وبينما تندرج عملية توظيف «طوفان الأقصى» ضمن فكرة وإطار التوظيف الإستراتيجي الإيراني للقضية الفلسطينية، فقد استخدمت إيران العملية لتمرير مجموعة من الرسائل، أهمُّها[18]:

1. التسويق الأمني لنفوذ إيران:

منذ سنوات عديدة، تسوِّق إيران نفسها باعتبارها الراعي الرسمي، ويكاد يكون الوحيد لحركة حماس. واستعرضت إيران في تقارير مستمِرَّة، مباشرة وغير مباشرة، بثَّتها وسائل إعلام شبه رسمية ونشرتها دراسات ودوريات إيرانية، أنَّها تدعم «حماس»، من خلال المال والتدريب والتأهيل وتطوير القُدرات القتالية واللوجستية على مستوى العتاد والتكنولوجيا العسكرية. في حين أنَّ إيران، عبر دعمها هذا، جعلت من حركة حماس أمام حالة من حالات الاستخدام والتوظيف الإستراتيجي لتحقيق أهداف إيرانية عميقة، أهمّها الضغط على إسرائيل والغرب، وإيصال رسائل عبْر حُلفاء فصائليين محلِّيين أنَّ إيران ستبقى تتحكَّم بملف أمن المنطقة الإستراتيجي، بما في ذلك أمن إسرائيل[19].

2. توحيد الساحات وتعزيز الموقف التفاوضي في مواجهة الغرب:

على الرغم من أنَّ علاقة حركة حماس بإيران تُعَدُّ من العلاقات المعقَّدة، فإنَّه لا يمكن توصيفها على أنَّها علاقة تابع ومتبوع، بقدر ما هي علاقة تَخادُم إستراتيجي تبحث خلالها «حماس» عن تطوير قُدراتها، وبالمقابل تستخدمه إيران ورقة إقليمية لتحقيق أهدافها الإستراتيجية، فقد سوَّقت إيران، وعبر دعمها لعملية «طوفان الأقصى»، أنَّ محور المقاومة في العراق وسوريا ولبنان، وكذلك في فلسطين، قادر على ضرب العُمق الإسرائيلي، كما حذَّر هذا المحور في السابق، فضلًا عن تسويق فكر إثبات نبوءات المرشد الإيراني الأعلى

علـــي خامنئي، الذي دائمًا ما تحدَّث عن إمكانية زوال دولة إســـرائيل من الخارطة. كل ذلك جرى تسويقه واستخدامه دعاية لإقناع شعوب المنطقة أنَّ إيران تُناصر القضايا الإنسانية العادلة، وأنَّها تدعم محور العدالة والإنســـانية ضدّ محور الشر والقتل العالمي، في حين أنَّ إيران اســـتخدمت ورقة «حماس» على طاولة المفاوضـــات النووية أكثر من مرَّة لأغراض تتعلَّق بتحقيق تهدئة مع إســـرائيل من أجل تخفيف الضغط الغربـــي والحصار على إيران، بالإضافة إلى كسْب مزيد من الوقت لإنضاج البرنامج النووي الإيراني وجعله أمرًا واقِعًا[20].

3. عرقلة وتعطيل مشروع حل الدولتين:

ترفُض إيران بشكل كبير فكرة حل الدولتين، وتنظُر للقضية الفلسطينية على أنَّها قضية حق مُطلَق مقابل باطل مُطلَق، وبالتالي أيّ حل دون زوال إســـرائيل وقيام دولة فلسطين ترفضه إيران رفضًا مباشـــرًا. وفي حقيقة الأمر، فإنَّ حل الدولتين، إنْ تحقَّق على مســـتوى القضية الفلسطينية، سيســـحب من إيران ورقة ضغط كبيرة كانت تستخدمها عبر محور المقاومة للضغـــط على المســـتوى الإقليمي والدولي، وكما أشـــرنا إلى وجود توظيف إســـتراتيجي تســـتخدمه إيران بوجود هذه القضية، لهذا كانت إيران ولا تزال تدعم فكرة قتال إســـرائيل ومقاومتها من حلفائهـــا الفصائليين المحلِّيين، ودعمت قضية «طوفان الأقصى» لتحقيق نوع من الاستدامة الإستراتيجية، وتعطيل مشـــروع حل الدولتين، الذي إنْ تحقَّق سيقطع على إيران الطريق أمام أيّ استخدام وتوظيف للقضية الفلسطينية[21].

4. الإرباك الإقليمي والحرب المحدودة:

أثبتت إيران، عبر توظيف عملية «طوفـــان الأقصى»، قُدرتها على تحقيق حالة من حالات الإرباك الإقليمي وشنّ الحروب الإقليمية المحدودة، عبر حلفائها الفصائليين المحلِّيين في العراق وسوريا ولبنان وفلســـطين. فعلى الرغم من إعلان إيران عدم علمها بتوقيت العملية وقـــرار تنفيذها، فإنه لا يمكن إغفال محاولة إيران الاســـتفادة منها، كما لا يمكن إغفال دور إيران في زراعة الفصائل المسلَّحة في العراق وسوريا ولبنان، وكيف تخادمت هذه الفصائل معًا لتطوير قُدرات «حمـــاس» وإيصال السلاح إليها، إذ نفَّذت «حماس» عملية «طوفان الأقصـــى» بطريقة احترافية كبيرة، لا يمكن بأي شكل مـــن الأشكال أن تنفِّذها بإمكانياتها المحدودة، دون وجود جهة وأطراف ومجاميع مسانِدة وراعية لها[22].

5. توظيف التطبيع مبرِّرًا للتدخُّل في المنطقة:

استخدمت إيران عملية «طوفان الأقصى» لتجديد اتّهاماتها للأنظمة السياسية المطبِّعة مع إســـرائيل، وركَّزت إيران في كلمات جاءت على لســـان قيادتها -بمن فيهم المرشد- بعد عمليـــة الطوفان، على أن دولًا عديدة دعمت إســـرائيل في قتلها الفلســـطينيين، وكان هذا الدعم عبر تطبيع العلاقات معها، في إشارة إلى الدول العربية المطبِّعة مع إسرائيل، فضلًا عن توظيف عملية «طوفان الأقصى» إيرانيًّا لتشـــويه وتضليل، ورُبما ردْع، أيّ عملية سلام

يمكن أن تجري مستقبلًا بين دول عربية وإسرائيل، حتى ضمن فكرة حل الدولتين. وبذلك، حقَّقت إيران نوعًـا من التضليل الإعلامي والاجتماعي، عبر تسـويق نفسـها جهةً راعيةً للقضية الفلسطينية وداعِمة لها، وتصوير بعض الدول العربية على أنَّها تعمل ضدّ القضية الفلسطينية، لكي تُحرِج هذه الدول أمام شعوبها إذا ما قرَّرت التطبيع مع إسرائيل[23].

ثالثًا: انعكاسات عملية «طوفان الأقصى» على إيران والفواعل الفصائلية

كشـفت عمليـة «طوفـان الأقصـى» عـن طبيعـة الصـراع المعقَّـد، الـذي تخوضـه إيـران ووكلاؤهـا فـي المنطقـة، لذلـك لـم تنحصـر المعركـة فـي حـدود الأراضـي الفلسـطينية، بـل إنَّهـا شـمِلَت المنطقـة ككُلّ، وتحديـدًا السـاحات، التـي تمَّتلـك فيهـا إيـران نفـوذًا راسـخًا ومؤثِّـرًا. ويمكـن رصْـد ارتـدادات وتداعيـات هـذه العمليـة علـى إيـران وفصائلهـا مـن خلال مـا يأتـي:

1. مكاسب إيرانية على حساب الفلسطينيين:

أ. تعطيل حل الدولتين وخلْق تحدٍّ أمام مسـار التطبيع: على المستوى الإقليمي، فضلًا عن تعطيل مسـار التطبيع، الذي كان سيفرض تحدِّيات إسـتراتيجية وجيو-سياسية وكذلك اقتصادية علـى إيران، فإنَّ عملية «طوفـان الأقصى» والحرب، التـي اندلعت على أثرها في غزة، عطَّلـت تطوير فكرة حل الدولتين، إذ إنَّ جهودًا كبيـرة تبذلها مجموعة من الدول الخليجيـة، بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتركيـا، لتطوير آلية جديدة تضمن للفلسطينيين إنشـاء دولتهم المستقِلَّة وتوقيع اتفاقيات السلام. ولا شكَّ أنَّ حل الدولتين يمثِّل حجر عثرة كبيـرًا تجاه التوظيف الإيراني للقضية الفلسـطينية، لـذا جاءت عملية «طوفان الأقصى» بنتائج عرقلت معها إمكانية الاستمرار في طرح فكرة حل الدولتين على المـدى القريب على أقلّ تقدير، في ظل وجود نيّات لحركة حماس للقتال بشكل مسـتمِرّ، فضلًا عن وجود تيّار متطرِّف يقود إسـرائيل بزعامة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو. إضافة إلى ذلك، فإنَّ عملية التطبيع من بعض الدول العربية مع إسرائيل تعرَّضت لاختبار أخلاقي جديد، فقد لامت الشـعوب والمجتمعات العربية كثيرًا الـدول التي طبَّعت علاقاتها، في ظل ما يحدث من قصْف واسـتهداف للمدنيين في غزة، بالتالي ستكون المنطقة، وتحديدًا الدول التي لديها نيّات تطبيع، أمام تحدٍّ أخلاقي جديد في المرحلة المقبلة[24].

ب. إيـران خـارج المواجهـة دائمًـا: كمـا هـو معتـاد فـي السياسـة الإيرانيـة، فإنَّهـا دائمًـا مـا تدعـم مثـل هكـذا أعمـال وسـلوكيات، دون تحمُّـل مسـؤولية مباشـرة. وقـد درَجَ الفعـل الإسـتراتيجي الإيرانـي علـى هـذا العمـل فـي العـراق، عبـر عمليـات اسـتهداف القواعـد والمصالـح الأمريكيـة مـن خلال المليشـيات التابعـة لهـا، فـضلًا عـن تكـرار نفـس الأفعـال فـي سـوريا، فـي حيـن لا تتبنَّـى إيـران هـذه العمليـات بـشكل رسـمي، وفـي بعـض الأحيـان تنفـي صِلتهـا بهـا بـشكل مباشـر. وعلـى الرغـم مـن أنَّ الهجمـات الأخيـرة بيـن إسـرائيل وإيـران، التـي جـرى فيهـا تجـاوُز حـرب الظـل التقليديـة، فإنَّـه مـن غيـر المرجَّـح أن يدخـل

البَلَـدان فـي مواجهـة مباشـرة، والأغلـب أنَّهمـا سـيكتفيان برسـائل الـردع، التـي انطـوت عليهـا الهجمـات السـابقة، والعـودة إلـى قواعـد الاشـتباك غيـر المباشـر. وكمـا سـتعزِّز إيـران عملياتهـا غيـر المباشـرة عبـر مليشـياتها، فـإنَّ إسـرائيل سـتعود إلـى عملياتهـا، التـي يمكـن إنكارهـا داخـل حـدود إيـران أو فـي مناطـق نفوذهـا، كمـا سـتذهب إلـى الضغـط علـى الإدارة الأمريكيـة لتعميـق سلسـلة الضغوطـات الاقتصاديـة والعسـكرية علـى إيـران، أو عبـر اسـتكمال العمليـات، التـي نفذتهـا إسـرائيل داخـل العُمـق العراقـي، وقصْـف مواقـع علـى الحـدود العراقية–السـورية تابِعـة للحـرس الثـوري الإيرانـي[25].

ج. ضربـة مؤلمـة لإسـرائيل: **علـى الرغـم** مـن أنَّ إيـران قـد لا تكـون طرفًـا فـي القـرار المباشـر لعمليـة «طوفـان الأقصـى»، لكنَّهـا بلا شـك طـرفٌ أساسـي، باعتبارهـا داعمًـا ومسـانِدًا لفصائـل المقاومـة الفلسـطينية قبـل العمليـة وبعدهـا. وقـد أثبتـت العمليـة علـى المسـتوى الإسـتراتيجي أنَّ إسـرائيل تعانـي بـشكل كبيـر مـن معضلتيـن أساسـيتين، هُمـا، معضلـة الجغرافيـا الضيقـة، ومعضلـة العنصـر البشـري المحـدود، إذ لا تمكِّـن هاتـان المعضلتـان إسـرائيل مـن اسـتخدام جميـع تكتيـكات وإسـتراتيجيات الحـرب، وتفعيـل خيـارات الـردع كافـة. فعلـى سـبيل المثـال، لا تسـتطيع إسـرائيل أن تدخـل حربًـا طويلـة الأمـد تمتـدّ لأكثـر مـن 8 إلـى 12 أسـبوعًا، كمـا أنَّهـا لا تسـتطيع أن تنفـذ عمليـات اجتيـاح برِّي لغـزة للتمركُـز والبقـاء فيهـا وتطهيرهـا، بالإضافـة إلـى أنَّ خيـارات المواجهـة ليسـت مفتوحـة بسـبب ضيـق المسـاحة والقيمـة الكبيـرة للعنصـر العسـكري والأمنـي الإسـرائيلي.

وعلـى المسـتوى الإسـتراتيجي، قـادت عمليـة التسـلُّل إلـى جُملـة مـن الانعكاسـات، أهمّهـا شـلل الاقتصـاد الإسـرائيلي وتحوُّلـه إلـى اقتصـاد حـرب، وتوقُّـف الزراعـة والصناعـة والتجـارة والسـياحة والتعليـم والبنـاء، فـضلًا عـن حـدوث حالـة تضخـم مالـي تـزداد مـع اسـتمرار الحـرب، بالإضافـة إلـى الآثـار الاجتماعيـة، التـي تتعلَّـق بالهجـرة العكسـية، وحالـة الصدمـة والرعـب التـي تعـرَّض لهـا المجتمـع الإسـرائيلي، وانهيـار الثقـة المجتمعيـة بحكومـة نتنياهـو وبقُـدارت الجيـش والأجهـزة الأمنيـة.

ومـن الواضـح أنَّ المجاميـع المسـلَّحة الفلسـطينية، التـي نفَّـذت العمليـة، تقدَّمـت بخطـوة علـى الجيـش الإسـرائيلي فـي الأيـام الأولـى لعمليـة «طوفـان الأقصـى»، كـون هـذه المجاميـع هـي التـي بـدأت الهجـوم المباغِـت، وحصلـت علـى ورقـة تفاوضيـة ضاغِطـة، وهـي ورقـة «الأسـرى والرهائـن». وقـادت هـذه الخطـوة إلـى تحجيـم خيـارات الفعـل العسـكري الإسـرائيلي، وتقليـص أدوات العمـل تجـاه غـزة، لوجـود مُحتجَزيـن إسـرائيليين (علـى أقـلّ تقديـر صعَّبـت بـشكل كبيـر التفكيـر فـي عمليـة اجتيـاح إسـرائيلي برِّي شـامل لغـزة)، كـون هـذه الخطـوة قـد تكـون مَحرقـة كبيـرة ضمـن نطـاق حـرب شـوارع، لا تسـتطيع تحمُّلهـا الأجهـزة العسـكرية الإسـرائيلية بسـبب تكلفتهـا البشـرية العاليـة. لهـذا، فرضـت

المجموعة المسلَّحة المهاجِمة إيقاعًا بمستوى معيَّن للمواجهة، حدَّ من الخِيارات الإسرائيلية المفتوحة وقلَّصها.

2. التحدِّيات والآفاق المستقبلية:

بقدر ما أكسبت عملية «طوفان الأقصى» إيران من فُرَص، فإنَّها فرضت عليها وعلى الفصائل التابِعة لها تحدِّيات، يمكن توضيحها على النحو الآتي:

أ. تقييد حدود حركة إيران: على الرغم من كل التصعيدات، التي رافقت الأيام الأولى لعملية «طوفان الأقصى»، فإنَّ هذا التصعيد كان ذا هدف رئيسي ومباشر، وهو تقديم دعْم كبير لإسرائيل في حربها ضدّ «حماس»، بالإضافة إلى إتاحة الفُرصة لإسرائيل لتنفرد وحدها بقتال «حماس»، وتحييد أصدقائها وحلفائها. وهذه دلالات على عدم رغبة الولايات المتحدة، وحتى الجهات الحليفة لـ«حماس»، في دخول حرب إقليمية مفتوحة، فالبارجات الأمريكية والأوروبية، فضلًا عن المناورات التي جرت في منطقة الخليج العربي والبحر المتوسِّط والبحر الأحمر ونشْر القطع البحرية وحاملات الطائرات، كل ذلك كان لإرسال رسالة واحدة ومباشرة، وهي تحقيق نوع من الردع الصُّلب تجاه إيران و«حزب الله» والنظام السوري والفصائل العراقية وجماعة الحوثي، وأيّ جهة أخرى تفكِّر في الاشتراك في هذه الحرب إلى جانب «حماس»، كون هذه الجماعات بدأت هي الأخرى مناوراتها واستعراضاتها ودخولها حالة تأهُّب كبيرة لاحتمالية الدخول في الحرب، إذ عمِلَت الولايات المتحدة على إبقاء الحرب محدودة[26].

ب. تطوير إستراتيجية الضربات الذكية للمليشيات التابِعة لإيران: على الرغم من حالة التوازن والتصعيد منخفِض الحِدَّة، الذي أبدتها أغلب الأطراف، سواء التي وقفت مع إسرائيل أو «حماس»، فإنَّ الباب لا يزال مُوارَبًا أمام ضربات ذكية، يمكن أن تنفِّذها إسرائيل، بوصفها جزءًا من إستراتيجية استدامة واستباق الفصائل المسلَّحة في المنطقة، إذ إنَّ تـرْك هذه الفصائل حسب الرؤية الإسرائيلية سيجعلها أكثر شراسة، ويمكن أن تنفِّذ هجمات أكثر عُنفًا في المستقبل. بالتالي، فإنَّ إجراء ضربات ذكية وتفكيك منظومات هذه الفصائل، عبر ضرب قواعدها ومراكز التخطيط والتعبئة الخاصَّة بها واغتيال قادتها، سواء في العراق أو إيران أو سوريا أو لبنان، هي واحدة من أهمّ التداعيات، التي يمكن الوقوف عليها في مرحلة ما بعد الحرب على غزة[27].

ج. احتمال خسارة إيران نفوذها داخل فلسطين: من غير المرجَّح أن تتوقَّف إسرائيل عن تطوير آليات لمواجهة «حماس»، حتى بعد نهاية الحرب على غزة، سواء عبر إستراتيجية شاملة، أو تكتيكات فرعية تشمل العمليات الخاطفة والاغتيالات المباشرة لقادة «حماس» في مختلف دول العالم، وضرْب أهداف ومواقع داخل وخارج غزة، لشلّ قُدرات «حماس» بصورة استباقية قبل تطوُّرها، كما حدث في عملية «طوفان الأقصى». ورُبما من الصعب وقف إسرائيل، لأنَّها تتذرَّع بحُجَّة الدفاع عن النفس أمام

المجتمع الدولي، وتستند إلى الدعم الأمريكي والغربي. وفي حال نجاح إسرائيل في القضاء على «حماس» وفصائل المقاومة، فإنَّ إيران ستكون خسِرَت حليفًا مهمًّا على الساحة الفلسطينية، وهو ما قد يحرمها من ورقة ضغْط قوية في حربها غير المباشرة مع إسرائيل[28].

إنَّ حل الدولتين، وعلى الرغم من رفضه من عدَّة أطراف، منها الجناح اليميني في إسرائيل وحركة حماس وإيران، فإنَّه من المتوقَّع أن يُعاد طرحه ضمن مبادرات وصفقات تسوية دولية في المنطقة، بالتالي سيجري تجريد إيران بشكل كبير من المتاجرة بـ«القضية الفلسطينية»، التي كانت تستخدمها وقودًا لإشعال الفِتن في المنطقة والتدخُّل فيها. فعلى الرغم من عدالة القضية الفلسطينية، فإنَّه من الصعب الحديث عن نيّات إيرانية خالصة لدعم هذه القضية، دون وجود نيّات قومية فارسية تتعلَّق بالتمدُّد عبر استخدام التشيُّع وقضايا مظلومية الشيعة والمسلمين في العالم.

د. أُفُق جديد للمواجهة بين إسرائيل وإيران: من المتوقَّع بعد انتهاء العمليات في غزة، أو في أثناء هذه العمليات -على اعتبار أنَّ إسرائيل لا تستطيع فتح جبهتين في آنٍ- أن تبدأ إسرائيل صياغة نوع من الردّ أبعد من غزة، لاستهدافٍ يشمل كلًّا من النظام السوري و«حزب الله» بالأساس، من خلال تنفيذ ضربات مباشرة وعمليات اغتيالات كبيرة لقادة سوريين ولبنانيين وفلسطينيين وإيرانيين في سوريا ولبنان، وضرب مواقع عسكرية وسياسية وتدريبية ومقار للقيادات المتعدِّدة داخل هاتين الدولتين. وقد يجري العمل بشكل جَدِّي على إعادة إحياء فكرة إسقاط النظام في سوريا، عبر التحشيد الدولي المستمِرّ، نتيجة ارتباطه بشكل غير مباشر بهذه العملية. ورُبما يشمل الردّ على إيران ومصالحها وأصدقائها في العُمق الإيراني والعراقي، كون التقارير الاستخباراتية الإسرائيلية، حسب إشارة سابقة، تؤكد استخدام الحدود العراقية-السورية من إيران لغرض تمرير أسلحة وتكنولوجيا ومعدّات وصواريخ باتجاه غزة من البحر والبر. وبالتالي يمكن أن يوجد ردّ إسرائيلي، يشمل قصف مواقع نووية إيرانية ومقار للحرس الثوري الإيراني، واغتيالات مباشرة بطائرات مسيَّرة وهجمات سيبرانية وانتقامية، وضربات على الحدود العراقية-السورية، ومزيد من التحشيد الدولي لحصار إيران ومَن يتعامل معها.

ونظرًا لأنَّ إيران تنظُر إلى الفصائل التابعة لها باعتبارها مجاميع تلعب دور الخادم المحلِّي لتطوير وتصعيد قضايا معيَّنة تستخدمها لأغراض المُشاغلة والضغط على دول الخليج وإسرائيل والغرب، فعلى هذا الأساس يمكن الحديث عن مسارات تكتيكية يمكن أن تنفذها هذه الفصائل، وذلك من خلال دفْعها إلى القتال لصالح الأنظمة السياسية في العراق وسوريا ولبنان واليمن، كون هذه الأنظمة السياسية قريبة بشكلٍ كبير من إيران. بالتالي، فإنَّ أيّ محاولة لتغيير المعادلات السياسية

والأمنيـة والاقتصاديـة فـي هـذه الـدول، سـتعطل هـذه الفصائـل هـذه الأفعـال لكـي تبقـى محافظـة علـى نفوذهـا. ولعـلَّ قمـع «ثـورة تشـرين» فـي عـام 2019م أكبـر دليـل علـى ذلـك فـي العـراق، ومـا تقـوم بـه الآن الأجهـزة القضائيـة والفصائـل المسـلَّحة مـن احـتكار الدولـة لنفسـها، كذلـك فـضلًا عـن أدوار هـذه الفصائـل فـي حمايـة النظـام السـوري، وحمايـة نفـوذ «حـزب الله» فـي لبنـان. بمعنـى أدقَّ، فـإنَّ أدوار هـذه الفصائـل سـتكون ضمـن هـذا السـياق الإقليمـي.

وبقـدر تعلُّـق الأمـر بعمليـة «طوفـان الأقصـى»، فمـن غيـر المُرجَّـح أن تدفـع إيـران «حـزب الله» أو النظـام السـوري أو الفصائـل القريبـة مـن الحـدود مـع إسـرائيل إلى التدخُّـل المباشـر، غيـر أنَّ ذلـك لـن يكـون إلّا حالـة مؤَقتـة، لتبـدأ مـن جديـد مرحلـة أخـرى مـن التصعيـد مـا بعـد الحـرب. بمعنـى آخـر، فـإنَّ إيـران سـتُبقِي أدواتهـا الفصائليـة الحليفـة معهـا عقائديًّـا مثـل «حـزب الله»، أو القريبـة منهـا براغماتيًـا مثـل «حمـاس»، ضمـن دائـرة الاهتمـام، لتكـرار عمليـات الضغـط علـى إسـرائيل فـي المرحلـة المقبلـة.

وقـد تذهـب إيـران عبـر هـذه الفصائـل إلـى الضغـط علـى الغـرب وحلفائـه الإقليمييـن، إذ كلَّمـا زاد الخنـاق علـى إيـران، ضغطـت إيـران فـي العـراق وسـوريا ولبنـان علـى الغـرب وأصدقـاء الغـرب فـي المنطقـة، بمعنـى آخـر، تنفيـذ عمليـات تصعيديـة مباشـرة مـن هـذه الفصائـل لضـرب أهـداف إسـتراتيجية (قواعـد أمريكيـة وغربيـة، مقـار لسـفارات غربيـة، شـركات نفـط، مطـارات، منصَّـات اقتصاديـة فـي الخليـج، وأيّ مصالـح أخـرى قريبـة مـن الغـرب). هـذه العمليـات يمكـن أن تتصاعـد عبـر هـذه الفصائـل، فـي حـال تصاعُـد الضغـط الغربـي علـى إيـران، علـى مسـتوى الملـف النـووي مـن جهة- أو علـى مسـتوى العقوبـات الاقتصاديـة، التـي يمكـن أن تُفـرَض علـى إيـران، فـضلًا عـن وجـود نيّـات إسـرائيلية لتنفيـذ ضربـات خاطِفـة، سـواء عسـكرية مباشـرة أو سـيبرانية، لأهـداف إيرانيـة أو صديقـة لإيـران فـي المنطقـة، وبالتالـي فـإنَّ الـردّ الإيرانـي سـيكون بـشكل مباشـر، عبـر أذرعهـا فـي العـراق وسـوريا ولبنـان واليمـن، وحتـى فـي غـزة.

وبينمـا تقلـق إيـران مـن فكـرة حـل الدولتيـن فـي المرحلـة المقبلـة، باعتبـار أنَّهـا سـتفقد حجَّـة كبيـرة مـن حجَـج التدخُّـل فـي المنطقـة، وهـي توظيـف القضيـة الفلسـطينية كمـا حـدث فـي عمليـة «طوفـان الأقصـى»، فإنَّهـا قـد تسـتخدم أذرعهـا وفصائلهـا لإنشـاء فوضـى جديـدة فـي المنطقـة مـن أجـل إربـاك الأجـواء الإقليميـة، لا سـيّما إذا مـا علِمَنـا بوجـود جهـات حليفـة لإيـران، وهـي قـوّات سـوريا الديمقراطيـة، التـي تسـيطر علـى مخيّـم الهـول فـي سـوريا، الـذي يحـوي أكثـر مـن 53 ألـف عائلـة مـن عوائـل تنظيـم داعـش، فـضلًا عـن سـيطرة قـوات سـوريا الديمقراطيـة علـى سـجن غويـران فـي سـوريا، الـذي يضُـمّ أكثـر مـن 1500 عنصـر مـن عناصـر «داعـش» المقاتليـن. وبالتالـي، فـإنَّ أيّ انـفلات يمكـن أن يحـدث فـي

هاتين الوحدتين، يمكن أن يُحدث فوضى عارمة قد تصِل ارتداداته إلى العراق وسوريا ولبنان، ورُبما الخليج وسيناء وغيرها من المناطق القريبة.

الخاتمة

قدَّمت عملية «طوفان الأقصى» فُرصة كبيرة لإيران لكي توظِّفها في مسارات التعامل الدولي والإقليمي مع الغرب وحلفاء الغرب في الشرق الأوسط، إذ على الرغم من أنَّها عملية خاصَّة بـ«حماس» من حيث القرار والتنفيذ والتبِعات، فإنَّ إيران وعديدًا من القُوى الأخرى، ومنها الفصائل المسلَّحة في العراق وسوريا والنظام السياسي في سوريا والفصائل في لبنان، قد طوَّرت قُدرات «حماس» وأوصلتها إلى مستوى متقدِّم من الجهوزية لتنفيذ هذه العملية. وقد وظَّفت إيران الفصائل المسَّلحة في العراق وسوريا ولبنان لصالح استدامة قوَّة «حماس» قبل عملية «طوفان الأقصى»، وحاولت أن تصنع نوعًا من المشاغلة التصعيدية في هذه الدول، عبر هذه الفصائل، لكن سرعان ما تراجعت إيران بفعل الضغط الدولي واقتراب البارجات وحاملات الطائرات النووية الأمريكية، التي جعلت إيران تترك «حماس» في مواجهة إسرائيل دون أيّ دعْمٍ مُستدام لمرحلة ما بعد عملية «طوفان الأقصى»، واكتفت بالمواقف الإعلامية والدعائية المسانِدة لغزة وأهل غزة، كما اكتفت باستخدام «حماس» عبر القنوات الخلفية للحوار، «قنوات الدبلوماسية السرِّية والمفاوضات المخابراتية». ولا شكَّ أنَّ هذه الضغوط قد تزيد على إيران في المستقبل، لا سيّما أنَّ الحرب ستغيِّر كثيرًا من معالم عقيدة الجيش الإسرائيلي، إذ من غير المتوقَّع أن تكتفي إسرائيل بالردّ داخل غزة فقط، إنَّما يُتوقَّع أن ترُدّ إسرائيل، انعكاسًا لما حصل لها، من خلال مجموعة من الاتّجاهات والدول، ومنها لبنان و«حزب الله» والفصائل المسلَّحة في العراق وسوريا، فضلًا عن احتمالية حدوث سلسلة مطوَّلة من المواجهات والعمليات الخاطِفة غير المُعلَنة بين إسرائيل وإيران، وفق فروض حروب الظل الطويلة، «حروب الاغتيالات والطائرات المسيَّرة والمواجهات السيبرانية». وقد يكون العراق هو الكلمة المفتاحية في وقف نفوذ إيران الإقليمي، الذي كان متَّصِلًا بطريقةٍ ما بعملية «طوفان الأقصى»، لهذا قد يكون في حُسبان الولايات المتحدة وإسرائيل أنَّ أيّ عملية وقف لشبكة الفاعل العنيف أو ما يُعرَف بالفصائل المسلَّحة المنتشِرة في المنطقة، لا يمكن أن ينجح ما لم يوجد تحرُّك فعلي في العراق، كونه يمثِّل مفتاح المنطقة لإيران، وأنَّ وقف تمدُّد إيران في المنطقة يبدأ من العراق، وأنَّ مدخل ذلك التغيير هو الدعم المباشر لجهود الدولة العراقية ومساندتها بشكل مباشر لوقف توظيف إيران الفصائل المسلَّحة في الشرق الأوسط.

المراجع والمصادر

(1) كريسبين سميث ومايكل نايتس، إعادة تشكيل العراق: كيف استولت المليشيات المدعومة من إيران على البلاد، معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، (20 مارس 2021م)، تاريخ الاطلاع: 22 فبراير 2024م، https://n9.cl/r8syq أيضًا: محمد البازي، طوفان الأقصى: كيف نفهم العلاقة بين إيران وحماس؟، موقع الجزيرة للدراسات (16 أكتوبر 2024م)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://n9.cl/lum2p

(2) موقع الجزيرة نت، الفصائل العراقية الموالية لإيران: دروع "الثورة الإسلامية" في بلاد الرافدين"، (22 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 26 مارس 2024م، https://n9.cl/ytx0m3. أيضًا: د.محمد السلمي، إيران وعسكرة التشيُّع في الداخل والخارج، مجلة السياسة والاقتصاد، (أسيوط: كلية العلوم السياسية، المجلد 12، العدد 11، سنة 2021)، ص6 وما بعدها.

(3) موقع القدس الإسرائيلي للشؤون العامَّة، أسلحة «حماس» المتطوِّرة: الصواريخ والمدفعية والطائرات دون طيّار والسايبر، (1 أغسطس 2021م)، تاريخ الاطلاع: 2 مارس 2024م، https://n9.cl/uhz68

(4) المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، توظيف الحرس الثوري وحماس لصراع غزة، (6 يوليو2021م)، تاريخ الاطلاع: 16 مارس 2024م، https://n9.cl/uk0ni

(5) المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، حماس تطلب صواريخ باليستية من طهران، (30 يوليو 2019م)، تاريخ الاطلاع: 12 مارس 2024م، https://n9.cl/m0ubt

(6) موقع المركز العربي لدراسة التطرُّف، قطر – إيران – تركيا: شبكة حلفاء حماس، (22 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 18 فبراير 2024م، https://n9.cl/163r4.

(7) محمد سرميني، عودة العلاقات بين حماس والنظام السوري، موقع مركز جسور للدراسات، (22 يوليو 2022م)، تاريخ الاطلاع: 26 فبراير 2024م، https://n9.cl/hzvpz

(8) رسول آل حائي، هل توسِّع ضربات أمريكا لأهداف إيرانية رقعة الحرب في المنطقة؟ موقع الجزيرة، (3 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 20 فبراير2024م، https://n9.cl/0y0yx

(9) ضياء قدور، وثائق مسرَّبة: النظام السوري أعطى ميناء اللاذقية لإيران، موقع تليفزيون سوريا، (27 سبتمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 20 فبراير 2024م، https://n9.cl/gdwp4

(10) صحيفة الشرق الأوسط، إيران تعزِّز وجودها العسكري والاقتصادي في الساحل السوري، (22 مارس 2019م)، تاريخ الاطلاع: 10 فبراير 2024م، https://n9.cl/3nwhp

(11) المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، مخاطر سيطرة الحرس الثوري الإيرانيّ على موانٍ بالساحل السوري ومدى فاعلية إستراتيجية الضغوط القصوى الأمريكية، (21 أكتوبر 2019م)، تاريخ الاطلاع: 10 أبريل 2024م، https://2u.pw/6tfBqT30

(12) سعد الوحيدي، القسّام في البحر: من العمليات الاستشهادية إلى الضفادع البشرية، تقرير موقع الجزيرة، (23 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 18 فبراير 2024،م، https://n9.cl/68o2d

(13) موقع الشرق، كيف امتلكت حماس صواريخ ومسيّرات وطائرات شراعية؟ (13 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 27 فبراير 2024م، https://n9.cl/ql6zxg

(14) المصدر السابق.

(15) موقع مدوَّنة كلاود فلير، عمر أوجام وجورج باجكو، الهجمات السيبرانية الدائرة بين إسرائيل وحماس، (23 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 13 مارس 2024م، https://n9.cl/xq2j6r، للمزيد انظر: موقع DW، "الفضاء السيبراني: ساحة معركة أخرى بين إسرائيل وحماس" (14 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 13 فبراير 2024م، https://n9.cl/ca9rz

(16) المصدر السابق.

(17) The Sacred Republic: Power and Institutions in Iran ,By Mehran Kamrava (ed.), (August 15, 2023 on the Oxford Academy of Studies website, accessed: February 3, 2024, https://n9.cl/yh9y2

(18) موقع المعهد الدولي للدراسات الإيرانية "رصانة"، عملية طوفان الأقصى.. الأسباب والتداعيات والسيناريوهات المتوقَّعة، (13 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 10 مارس 2024م، https://n9.cl/526ls

(19) Haleh Esfandiar, Hamas And Israel: Iran's Role , An article published on the Wilson Center, October 10, 2023, accessed: April 3, 2024, https://n9.cl/eya3ot

(20) Colin P. Clarke , Iran and the 'Axis of Resistance' Vastly Improved Hamas's Operational Capabilities , An analytical article published on the Foreign Policy Research Foundation, (October 27, 2023), accessed: May 3, 2024, https://n9.cl/q2ysg

(21) مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، محسن محمد صالح، الدلالات الإستراتيجية لعملية طوفان الأقصى، (13 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 11 مارس2024م، https://n9.cl/x8wbh، للمزيد، يوتيوب، AlArabiya@، لقاء حصري مع خالد مشعل على قناة العربية "الهجوم على إسرائيل كان مغامرة وإيران وحزب الله دعمونا بالسلاح والتكنولوجيا، https://n9.cl/io3jb

(22) موقع الجزيرة للدراسات، طوفان الأقصى: انهيار الردع الإسرائيلي ومحاولات استعادته، (8 نوفمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 15

مارس 2024م، https://n9.cl/gn59h، كذلك انظر: فاطمة الصمادي، طوفان الأقصى: كيف يدير محور المقاومة المواجهة؟ مركز الجزيرة للدراسات، (21 فبراير 2024)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://n9.cl/yzc5jt

(23) حسن البراري، التداعيات الجيو-سياسية للحرب على غزة، مركز الجزيرة للدراسات، (21 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 25 فبراير 2024م، https://n9.cl/7fusv

(24) هشام جعفر، حل الدولتين: غير قابل للتحقيق لكنّه قابل للحياة، موقع الجزيرة، (3 مارس 2024م)، تاريخ الاطلاع: 10 أكتوبر2024م، https://n9.cl/fwrf9

(25) محمد محسن أبو النور، لماذا لم تدخل إيران المواجهة بعد العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة؟ موقع المنتدى العربي لتحليل السياسات الإيرانية، (5 ديسمبر 2023)، تاريخ الاطلاع: 9 مارس 2024م، https://n9.cl/gnf7b

(26) مركز مجموعة الحوار الفلسطيني، التداعيات والمآلات المحتملة لعملية طوفان الأقصى، (20 مارس 2024م)، تاريخ الاطلاع: 21 مارس 2024م، https://n9.cl/1j4wj8

(27) رسول آل حائي، هل توسّع ضربات أمريكا لأهداف إيرانية رقعة الحرب في المنطقة؟ مرجع سابق.

(28) عمر التيس، مصير غزة بعد الحرب، موقع فرنسا 24، (16 نوفمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 9 مارس 2024م، https://n9.cl/fqg89، للمزيد: موقع فرنسا 24، "ما الحلول المطروحة لإدارة غزة ما بعد الحرب في حال الإطاحة بحماس"، (21 نوفمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 11 مارس 2024م، https://n9.cl/d099a

أمريكـــا اللاتينيـــة..
سـوق جديـدة للطائـرات الإيرانيـة المسيَّـرة

أمـــل مختـــار

باحثـــة في شـؤون أمريكـــا اللاتينيـــة، بمركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية

الملخص:

تُختبَر الطائرات المسيَّرة الإيرانية في عديد من الصراعات، بما في ذلك الصراع في أوكرانيا، والمواجهات غير المباشـــرة بين إيران وخصومها في الشـــرق الأوســـط، وتحديدًا الولايات المتحدة وإسرائيل. ويتيح ذلك لإيران فُرصةً لرفع مبيعاتها من هذه الصناعة، التي حقَّقت فيهـــا تقدُّمًا وخبرات مهمَّة، وهو ما أصبح يمثِّل مصدر تهديد حقيقيًّا، خصوصًا في ظل رفْع القيود على مبيعات الأســـلحة الإيرانية. وتُعَدُّ دول أمـــريكا اللاتينية إحدى الوجهات، التي تزايد فيها الطلب على هذه المسيَّرات، لا سيّما الدول التي تسيطر عليها حكومات يسارية ولديها علاقات متطوِّرة مع إيران، وهو ما يطرح تســـاؤلاتٍ عديدة. وتحاول هذه الدراسة أن تقدِّم إجابات واضحة لتلك التساؤلات، أهمُّها ما يتعلَّق بأهمِّية الطائرات الإيرانية في سوق المسيَّرات العالمية، وتنامي اهتمام بعض دول أمريكا اللاتينية بهذه التكنولوجيا العسكرية الإيرانية، والمصالـــح المُتبادَلة من جرّاء التعاون في هذا الميـــدان، فضلًا عمّا يفرضه من تداعيات على إيران، وعلى هذه الدول.

الكلمات المفتاحية:

إيران، أمريكا اللاتينية، المســـيَّرات الإيرانية، التحالف العسكري، فنزويلا، كوبا، بوليفيا، البرازيل.

Latin America: A New Market for Iran's Drone

Abstract:
Iranian drones are seeing action in various conflicts, including Ukraine, and are utilized in proxy confrontations with adversaries like the United States and Israel in the Middle East. This presents Iran with an opportunity to capitalize on its advancements in drone technology, potentially increasing sales, particularly as restrictions on Iranian arms sales are lifted. Latin American nations, especially those with leftist governments and ties to Iran, have shown interest in acquiring these drones, sparking inquiries addressed by this study. The study aims to provide insights into the significance of Iranian drones in the global market, the rising demand from certain Latin American countries, and the mutual benefits derived from cooperation in this domain. Additionally, it delves into the repercussions for Iran and the involved nations resulting from such cooperation.

Key Words: Iran, Latin America, Iranian drones, military alliance, Venezuela, Cuba, Bolivia, Brazil

المقدِّمـــة

السياسة النشِـــطة لإيران داخل محيطها الإقليمي وخارجه، خصوصًا في أيّ مكان قد يمثِّل فُرصةً لتوطيد العلاقات لمواجهة الولايات المتحدة والعُزلة المفروضة على النظام الإيراني، يبـــدو أنَّها أصبحت نهجًا ثابتًا وراســـخًا في السياســـة الخارجية الإيرانيـــة. والمدى الذي وصل إليه النظام الإيراني، من تعزيز وزيادة وجوده في أمريكا اللاتينية -تحديدًا بالنســـبة للحكومات اليسارية المناوئة للولايات المتحدة الأمريكية- أمرٌ ملفت للنظر. اليوم، تخطَّى التعاون بين إيـــران وحلفائها في أمريكا اللاتينية مرحلة العلاقات الدبلوماســـية والثقافية والتجارية، إلى إبرام الاتفاقات العســـكرية، وبيْع المنتجات العسكرية الإيرانية، وتحديدًا الطائرات المسيَّرة لدول المنطقة.

في السابق، كانت إيران تزوِّد عددًا قليلًا من حلفائها في الشرق الأوسط بالطائرات المسيَّرة، وتعمل الآن على توسيع نطاق بيعها لدول وجماعات جديدة في مناطق مختلفة من العالم، خصوصًا بعد اختبارها بقوَّة، وتطويرها خلال الحرب الروسية- الأوكرانية. لم تعُد إيران مورّدًا إقليميًّا فقط، بل أصبحت مصدِّرًا عالميًّا للأسلحة المتقدِّمة. ومن بيلاروسيا في أوروبا الشرقية إلى فنزويلا في أمريكا الجنوبية، رأينا إيران تقدِّم طائرات مسيَّرة يصل مداها إلى 1000 كيلومتر.

ومن ثَمَّ زاد الطلب على شراء المُنتَج الإيراني من هذه المعدَّات العسكرية، وهو الأمر الذي يثير مخاوف الولايات المتحدة بشدَّة، خصوصًا مع تنامي الطلب على التعاون العسكري وشراء المعدَّات الإيرانية في الدول اللاتينية، التي تمثِّل امتدادًا مهمًّا لمصالح وأمن الولايات المتحدة.

أصبحت الطائرات المسيَّرة إيرانية الصُنع منتشرة في كل مكان في ساحات القتال، على مدى السنوات الخمس الماضية، ما أدَّى إلى تغيير طبيعة الحروب. تناقش هذه الدراسة هذا التطوُّر في إنتاج وبيع الطائرات المسيَّرة الإيرانية، ودلالة هذا التوسُّع، إضافة إلى تفسير نمو العلاقات الإيرانية-اللاتينية، وتسارعها مؤخَّرًا نحو التعاون العسكري، في ظل فهْم البُعد الأيديولوجي لتيّار اليسار الحاكم في عدد كبير من دول المنطقة، وتحديد مصالح كلا الطرفين من توطيد التعاون العسكري، وأخيرًا تداعيات هذا النمو السريع في إنتاج وانتشار الطائرات المسيَّرة عمومًا في الصراعات المسلَّحة، والطائرات الإيرانية تحديدًا.

أولًا: دلالة وأهمِّية تطوُّر المنظومة الإيرانية للطائرات المسيَّرة

وفقًا لوكالة الاســـتخبارات الأمريكية، فإنَّ إيران بحلول عـــام 2022م، أصبحت تمتلك أكبر ترسانة من الصواريخ والطائرات المسيَّرة في الشرق الأوسط، وتستطيع إحداث تأثير كبير في أيّ معركة تشارك فيها. كما أنَّ إيران أصبحت مهتمَّة بتوسُّع دائرة مُشتري مسيَّراتها إلى

خارج منطقة الشرق الأوسط، وخارج نطاق الدول إلى الفاعلين من غير الدول. وكتب معهد دراسات الحرب، ومقرُّه واشنطن، في 20 يوليو 2023م، أنَّ قائدًا سابقًا في الحرس الثوري «تفاخر في أكتوبر 2022م بأنَّ 22 دولة –بما في ذلك الجزائر وأرمينيا وصربيا وطاجيكستان وفنزويلا– قدَّمت طلبات رسمية للحصول على طائرات إيرانية مسيَّرة». كما تسارعت وتيرة بناء المصانع لإنتاج الطائرات المسيَّرة الإيرانية، في بلدان أخرى متحالِفة مع إيران[1].

يُعَدُّ السبب الرئيسي في امتلاك إيران هذه التكنولوجيا المتقدِّمة و«المحلِّية الصُنع» من الصواريخ الباليستية والطائرات المسيَّرة ذات القدرات المتفوِّقة والسعر المنخفض، إلى الظروف الصعبة، التي مرَّت بها إيران خلال فترة حرب الثماني سنوات مع العراق في عقد الثمانينيات من القرن الماضي. وذلك أنَّ إيران لم تتمكَّن خلال هذه الحرب من الحصول على أسلحة متطوِّرة، بل فقط الصواريخ القديمة من نظامَي الأسد في سوريا والقذافي في ليبيا، فطوَّرت، من خلال المتخصِّصين المحلِّيين، أسلحتها الخاصَّة ذات التكلفة الأقلّ، وكانت في الصدارة خطوط إنتاج الطائرات الإيرانية المسيَّرة. والآن، على حدٍّ تعبير حلف الناتو، تتفوَّق إيران على دول مثل روسيا، وهي مورِّد رئيسي لمثل هذه الأسلحة[2].

ويقول جيمس روجرز، من معهد كورنيل لسياسات التكنولوجيا: «الطلب على الطائرات المسيَّرة الإيرانية ينمو بمعدَّل قياسي». لقد كانت الحرب الروسية– الأوكرانية بمثابة نافذة تسويق للمُنتَج الإيراني من تكنولوجيا الطائرات المسيَّرة لعديد من الدول، إذ أظهرت الحرب مدى قوَّة مسيَّرات «شاهد 136» و«شاهد 131»، من حيث تحقيق الأهداف العسكرية الروسية.

ومع الحظر الصارم، الذي تفرضه الولايات المتحدة الأمريكية على خطوط التجارة بين روسيا وإيران في المجمل، ومن ثمَّ شراء الأسلحة، تظهر خُطَط لتصنيع الطائرات المسيَّرة الإيرانية داخل مصانع في روسيا وبيلاروسيا، أي نقْل التكنولوجيا وكوادر التصنيع والتدريب الإيرانية بدلًا من بيع المنتج النهائي. وفي فنزويلا، بدأ تنفيذ هذا التوجُّه منذ 12 عامًا، في نهاية عهد هوغو شافيز، وبالفعل أنشئ مصنع لإنتاج الطائرات الإيرانية المسيَّرة داخل فنزويلا. كما زوَّدت إيران إثيوبيا أيضًا بأنظمة الطائرات المسيَّرة منذ عام 2021م، ثمّ السودان بعد اندلاع الصراع الأهلي المستعِر بين قوّات الجيش وقوّات الدعم السريع. وما نشهده الآن هو زيادة انتشار أنظمة الطائرات المسيَّرة في دول أمريكا اللاتينية[3].

ومع أنَّ إيران ليست الدولة الوحيدة، التي تبيع منتجاتها من أنظمة الطائرات المسيَّرة لدول أخرى، لكن السياسة النشِطة لإيران لتسويق منتجاتها في دوائر جغرافية واسعة جدًّا وخارج نطاق الشرق الأوسط، فضلًا عن تزويدها جهات فاعلة غير حكومية بالطائرات المسلَّحة المسيَّرة، من شأنه إضافة بُعد جديد للمواجهات

العسكرية في أماكن مختلفة من العالم. وهُنا يثور التساؤل حول مكمن قوَّة وفاعلية تهديد المنتج الإيراني، ويمكن القول إنَّه يتمثَّل في الآتي:

1. تكتيك الاحتشاد:

تتميَّز الطائرات الإيرانية المسيَّرة بانخفاض أسعارها، مقارنةً بنظيراتها الغربية. من جهة أخرى، تختلف عن دول مُنتِجة أخرى في خريطة انتشارها، بمعنى الأقاليم والدول والفاعِلين، التي تقرِّر إيران بيعها منتجاتها.

باختصار، جزء مهم من السياسة الدفاعية الإيرانية في مواجهتها الممتَدَّة مع الولايات المتحدة الأمريكية، هو تكتيك الاحتشاد (Swarming Tactic)، وهو ما تطبِّقه من خلال منتجاتها المتعدِّدة من الطائرات المسيَّرة. ومن ثمَّ هذا ما يفسِّر المجهود، الذي تؤديه الدبلوماسية الإيرانية في ترويج بيع منتجاتها من الطائرات المسيَّرة على نطاق واسع وبأسعار منخفضة، خصوصًا لدول وفاعلين يمثِّلون تهديدًا مباشرًا للولايات المتحدة أو لإسرائيل.

2. تعدُّد أنواع الطائرات المسيَّرة الإيرانية:

أبرز تلك الأنواع، طائرات «أبابيل-3»، و«مهاجر-6»، و«صاعقة»، و«شاهد»، و«إتش-110»، و«فطروس»، و«كرار»، و«كمان-22». وقد حظِيَت مجموعة الطائرات المسيَّرة «شاهد» بأكبر قدر من الاهتمام من وسائل الإعلام الدولية، بسبب استخدامها من القوّات الروسية في الحرب المستمِرَّة في أوكرانيا، إذ تُشير تقارير صادرة عن القوّات الجوِّية الأوكرانية في نهاية 2023م إلى أنَّ روسيا استخدمت 3700 طائرة مسيَّرة من طراز «شاهد» خلال عامين من الحرب.

كما أنَّ الصحافة الأمريكية والإسرائيلية تُشير إلى أنَّ جماعة «أنصار الله» (جماعة الحوثي)، قد استخدمت طائرات «شاهد136-» في ضربات بالبحر الأحمر وإيلات. كما أنَّه، وفي إطار العدوان الإسرائيلي على غزة، تعرَّضت القواعد الأمريكية في العراق وسوريا والأردن لهجمات من المليشيات الشيعية المسلَّحة في المنطقة، باستخدام طائرات «شاهد» المسيَّرة إيرانية الصُّنع[4].

3. البُعد القانوني في بيع الطائرات الإيرانية المسيَّرة:

بعد إبرام الاتفاق النووي بين إيران وست دول، هي الولايات المتحدة وروسيا والصين وبريطانيا وفرنسا وألمانيا، عام 2015م، صدر قرار مجلس الأمن رقم 2231، الذي يحظر على إيران تصدير الصواريخ الباليستية والطائرات المسيَّرة، التي يزيد مداها على 300 كيلومتر وحمولة تزيد على 500 كيلوغرام حتى أكتوبر 2020م. وهذا يعني أنَّ عمليات البيع التي جرت بين إيران والدول كافة والمليشيات المسلَّحة بداية من يوليو 2015 حتى أكتوبر 2020، تمَّت بالمخالفة لقرار الأُمم المتحدة، بينما بعد أكتوبر 2020م، أصبحت المعاملات الإيرانية بهذا

الصدد قانونية بصورة كاملة[5]، لكن تظلُّ المعاملات المالية المُصاحِبة لعمليات البيع ودفع مستحقَّات المبيعات والشحن والنقل لهذه المعدَّات، مُحاطة بكثير من القيود المالية الدولية، بسبب استمرار العقوبات الاقتصادية الأمريكية على إيران، وعلى عدد لا بأس به من مُشتري هذه المنتجات العسكرية، مثل روسيا وفنزويلا.

4. الحرب الروسية-الأوكرانية مسرحًا للطائرات الإيرانية:

كانت روسيا مصدرًا رئيسيًّا لبيع الأسلحة لدول كثيرة من الجنوب، لكن غزو أوكرانيا استهلك موارد روسية هائلة، كما فرَضَ مجموعة من العقوبات، ما أدَّى إلى فراغ في عالم مبيعات الأسلحة والمعدّات العسكرية، في وقت يتَّسم بعدم الاستقرار العالمي. ونتيجة لذلك، أصبحت إيران خِيارًا أكثر جاذبية بالنسبة للدول، التي كانت تعتمد في السابق على إمدادات روسيا من المعدّات العسكرية. علاوةً على ذلك، يمكن للوضع الحالي أن يخلق مشروعًا مشتركًا بين إيران وروسيا، قد يزيد مبيعات الأسلحة التقليدية المُتبادَلة بسبب قُدراتهما الإنتاجية العالية[6].

كما أنَّ ساحة الحرب في حدِّ ذاتها كانت تجارب حية للتكنولوجيا الإيرانية، سواء بهدف تطويرها، أو حتى الدعاية لبيع مزيد منها لدول أخرى. بعد بداية الغزو الروسي لأوكرانيا، وافقت إيران على توريد طائرات «شاهد 136» لروسيا، التي شُوهِدت لأول مرَّة في ساحة المعركة في خريف عام 2022م. وفي غضون أسابيع قليلة، انتشرت طائرات «شاهد» المسيَّرة على نطاق واسع في أوكرانيا. وتتمتَّع طائرات «شاهد 136» المسيَّرة بهيكل خفيف من ألياف الكربون، ويصل مداها إلى أكثر من 1500 ميل، ما يمكِّن روسيا من التحليق بها من بيلاروسيا في الشمال والمناطق المحتلَّة في الجنوب، لاستهداف المُدُن الأوكرانية، ويمكنها حمل ما بين 20 و40 كيلوجرامًا من المتفجِّرات، أي نحو ضعف طائرة الـ131، وما يكفي لإحداث أضرار كبيرة بالمباني والمعدّات الحربية. وفي نوفمبر 2022م، استهدفت روسيا العاصمة كييف بـ75 مسيَّرة من طراز «شاهد 136»، لكن الجدير بالذكر أنَّ قُدرات الدفاع الجوِّي الأوكرانية تمكّنت من إسقاط معظمها، نحو 71 طائرة. لكن أيضًا من المهم معرفة أنَّ إيران -بسبب تحليل نتائج العمليات في الحرب بين روسيا وأوكرانيا- طوَّرت محرِّكًا نفّاثًا أسرع، وألحقته بنسخة مطوَّرة من طائرتها المسيَّرة، أطلقت عليها اسم «شاهد 238»، في نوفمبر 2023م. وهذا الطراز الجديد قادر على الطيران بسرعة تزيد على ضعف سرعة الطائرة 136، التي يُعتقَد أنَّه جرى إطلاقها على أوكرانيا في يناير 2024م[7].

ما سبق، يعني أنَّ الحرب الروسية-الأوكرانية المستمِرَّة إلى الآن لم تكُن فقط نافذة تسويقية للمنتجات الإيرانية لدول أخرى من العالم، بل هي مختبر واقعي لتطوير المُنتَج الإيراني من هذه الصناعة.

ثانيًا: الحكومات اليسارية بوَّابة رئيسية للتحالفات العسكرية مع إيران في النصف الجنوبي الغربي من العالم

لســـنوات طويلة، كانت الولايات المتحدة حريصة على الحد من وجود أيّ نفوذ عســـكري لدول أخرى في أمـــريكا اللاتينية. كانت أزمة الصواريخ الكوبيـــة في أكتوبر 1962م، خلال الحـــرب الباردة، هي اللحظة التي اقتربت فيها الولايات المتحدة والاتحاد الســـوفييتي من الصراع النووي. نشـــأت أزمة الصواريخ الكوبية، بسبب مقاومة الولايات المتحدة الوجود العسكري للاتحاد الســـوفييتي في أمريكا اللاتينية، وفي كوبا تحديدًا. اليوم، ومنذ وصول الأحزاب اليسارية إلى ســـدَّة الرئاســـة في عدد كبير من دول أمريكا اللاتينية بعد التحوُّل الديمقراطي، باتت إيران بوجودها التجاري والثقافي والعسكري شديدة القُرب من الولايات المتحدة الأمريكية[8].

بـدأ المـد اليسـاري فـي دول أمـريكا اللاتينيـة مع وصـول هوغـو شـافيز لرئاسـة فنـزويلا فـي 1999م، ثـمّ وصـول أقـوى حكومتيـن يسـاريتين فـي أمـريكا اللاتينيـة، حكومـة لـولا دا سـيلفا فـي البرازيـل ونسـتور كريشـنر فـي الأرجنتيـن فـي 2003، وغيرهمـا مـن الحكومـات اليسـارية فـي شـيلي ونيكارغـوا وبوليفيـا والإكـوادور... إلـخ، حتـى اتّسـم العقـد الأول مـن القـرن الحـادي والعشـرين باللـون الـوردي[9] لـدول أمـريكا اللاتينيـة. وقـد تزامنـت هـذه الفترة مـع رئاسـة محمـود أحمـدي نجـاد فـي إيـران، ونظـرًا للسياسـة الخارجيـة النشِـطة لأحمـدي نجـاد، والتوجُّـه اليسـاري اللاتينـي الواضـح لمواجهـة الهيمنـة الأمريكيـة، فـضلًا عـن انشـغال الولايـات المتحـدة بحروبهـا فـي الشـرق الأوسـط، كانـت هـذه هـي الفتـرة الذهبيـة لتعميـق التعـاون والوجـود الإيرانـي فـي دول المنطقـة. كان تعاونًـا تجاريًّـا ووجـودًا ثقافيًّـا وتنسـيقًا سياسـيًّا إلـى أبعـد الحـدود، كمـا ظهـرت بـوادر للتعـاون فـي المجـال العسـكري بيـن إيـران وبعـض الـدول اللاتينيـة، علـى مـدار عشـرين عامًـا، اتّسـمت بالتفـاوت بيـن دولـة وأخـرى، ويمكـن الإشـارة إلـى بعـض ملامحـه -خصوصًـا فـي مـا يتعلـق بالتعـاون فـي مجـال تكنولوجيـا الطائـرات الإيرانيـة المسـيَّرة- علـى النحـو التالـي:

1. فنزويلا:

في أواخر عام 2022م، خلال زيارة نيكولاس مادورو إلى طهران، أكَّد كلا النظامين أنَّ لديهما «جبهات تعاون كبيرة» في قطـــاع الدفاع. وقال مادورو لنظيره الإيراني إبراهيم رئيســـي، خلال هذه الزيارة: «أعتقدُ أنَّ الصداقة غير القابلة للتدمير بيننا، ســـتنمو من أجل مستقبل شعبينا[10]».

منـذ تفاقُـم الأزمـة الاقتصاديـة والسياسـية فـي فنـزويلا، التـي كانـت قمّتهـا فـي 2019م، وعندمـا أُعلـن رئيـس البرلمـان الفنزويلـي خـوان جوايـدو نفسـه رئيسًـا شـرعيًّا للبـلاد، بـدلًا مـن الرئيـس المنتخَـب مـادورو، واعتـراف الولايـات المتحـدة بـه رئيسًـا وتجميـد أرصـدة فنـزويلا فـي الخـارج، منـذ ذلـك التاريـخ انتقلـت العلاقـات الفنزويليـة-الإيرانيـة، التـي

كانت بالفعل قوية، إلى مرحلة جديدة. وشكَّلت إيران وفنزويلا شراكةً إستراتيجية متبادلة المنفعة، تعمل على تحصين نظام مادورو في مواجهة الانهيار الداخلي، بسبب الأزمة الاقتصادية الطاحنة والنقص الحاد في توفير السِّلَع الأساسية، والوصول إلى حد العجز شبه التام للدولة ومؤسَّساتها عن أداء واجباتها، وارتفاع أعداد النازحين الفارِّين من فنزويلا، وفي مواجهة أيضًا الإصرار الأمريكي في عهد دونالد ترامب على دعْم انقلاب جوايدو والتخلُّص من مادورو ومن «الشافيزية» بصورة نهائية.

شهِدَ عام 2020م تعاونًا تجاريًّا كبيرًا بين طهران وكاراكس، إذ جرى إرسال ما يصِل إلى 2.35 مليون برميل من البنزين إلى نظام مادورو، مقابل ما لا يقِلّ عن 9 أطنان، أو ما قيمته 500 مليون دولار، من ذهب فنزويلا إلى إيران. وفي ذلك الوقت، نحا كثير من المتابعين إلى تأكيد أنَّ هذا التعاون التجاري له أبعاد عسكرية.

في 6 نوفمبر 2020م، أعلن مادورو عن إنشاء لجنة علمية عسكرية جديدة داخل القوّات المسلَّحة الفنزويلية، مهمَّتها أن تتطلَّع إلى تحديث أنظمة الأسلحة الفنزويلية. وفي حين لم يحدِّد مادورو الأنظمة العسكرية، التي سيُحدِّثها ذكر أنَّ هذه اللجنة الجديدة ستعتمد على مستشارين من روسيا والصين وإيران. ومن المرجَّح أن يفيد الاتفاق الإستراتيجي الأخير، الذي أبرمته طهران مع بكين لمدَّة 25 عامًا وتمديد صفقة الأسلحة لمدَّة 20 عامًا مع موسكو، لجنة الدفاع الفنزويلية الجديدة، ما يؤدِّي إلى إنشاء قوَّة عسكرية متعدِّدة الأقطاب في فنزويلا، تعمل على تحصين نظام مادورو. ويبدو أنَّ إيران هي العمود الفقري لهذه القوَّة الجديدة متعدِّدة الأقطاب، إذ تبني جسرها الجوِّي والبحري إلى فنزويلا، ما يجعل شراكتها الإستراتيجية مع نظام مادورو رُبَّما أنجح استثمار لها خارج الشرق الأوسط[11].

في السنة المالية 2023–2022م، كانت فنزويلا الوجهة الأولى لصادرات إيران في أمريكا اللاتينية، فقد أرسلت بضائع بقيمة 118 مليون دولار أمريكي. وبلغت قيمة الواردات الإيرانية من فنزويلا 816 ألف دولار أمريكي، وتمثِّل هذه الأرقام زيادة بنسبة 200% تقريبًا على قيمة التجارة الثنائية في العام السابق[12]. وتُشير البيانات الصادرة عن شركة كومود يتي إنتليجنس كيبلر إلى أنَّ إيران سلَّمت 28 مليون برميل من مكثَّفات الغاز إلى فنزويلا حتى يناير 2023م[13].

هذه الشراكات التجارية والعسكرية واجهت قرارات العقوبات الأمريكية والدولية على إيران، وأعطت الفُرصة للشركات الإيرانية المرتبطة بالحرس الثوري الإيراني بالوجود خارج الحدود الإيرانية –على الرغم من العقوبات– مثل شركة بارشين للصناعات الكيماوية، التي أُدرجت بشكل بارز في قرار مجلس الأمن التابع للأُمم المتحدة رقم 1747 باعتبارها كيانًا متورِّطًا في برامج تطوير السلاح النووي الإيراني. وشركة «طيران القدس» Qods Aviation الإيرانية، التي توجد الآن بجوار قاعدة «إل

ليبرتـادور» الجوِّيـة فـي مـاراكاي بولايـة أراغـوا الفنزويليـة، لتدريـب الجيـش الفنزويلـي علـى كيفيـة إنتـاج طائـرات مسـيَّرة[14].

وبهـذا تكـون فنـزويلا هي الدولـة الوحيدة –حتـى الآن– التـي تمتلك طائرات مسـيَّرة ذات قُـدرات قتاليـة. وبالفعـل، فـي مـارس 2021م، اسـتخدمت القـوّات المسـلَّحة الفنزويليـة هـذه الطائـرات لقصـف المنشـقّين عـن القـوّات المسـلَّحة الثوريـة الكولومبيـة، فـي ولايـة أبـوري المتاخمـة للحـدود مـع كولومبيـا.

وعلـى الرغـم مـن أنَّ السُّـلطات الفنزويليـة لـم تؤكِّـد قـط اسـتخدام طائـرات مسـيَّرة حربيـة فـي هـذه الواقعـة، فإنَّـه بعـد بضعـة أشـهر، خلال عـرض عسـكري، عرضـت حكومـة مـادورو طائـرات مسـيَّرة ذات قُـدرات هجوميـة.

فـي هـذا العـرض العسـكري، أُعلـن عـن أنـواع الطائـرات المسـيَّرة، المملوكـة للجيـش الفنزويلـي، مـع تأكيـد أنَّهـا معـدّات جـرى تصميمهـا وتصنيعهـا فـي فنـزويلا، وهـي:

■ «أنطونيـو خوسـيه دي سـوكري 100» (ANSU 100)، ذات قُـدرات مراقبـة واسـتطلاع وهجـوم مـزوَّد بقُـدرات مضـادَّة للدبابـات ومضـادَّة للأفـراد.

■ «أنطونيـو خوسـيه دي سـوكري 200» (ANSU 200)، ذات القُـدرة علـى التخفِّـي والمراقبـة العاليـة والاسـتطلاع والهجـوم، وذات قُـدرات لقمـع الدفـاع الجـوِّي للعـدو.

ويُشـير عديـد مـن الخُبـراء إلـى أنَّ طائـرة «ANSU 100» المسـيَّرة الفنزويليـة هـي نسـخة حديثـة مـن الطائـرة الإيرانيـة المسـيّرة «مهاجـر2»، وهـي المسـيَّرة التـي حصلـت فنـزويلا علـى فُرصـة تجميـع 12 وحـدة منهـا، بموجـب اتفاقيـة بيـن إيـران وفنـزويلا فـي 2007م، فـي عهـد شـافيز. وقـد كشـفت صـور الأقمـار الصناعيـة الأمريكيـة عـن المنشـأة، التـي يجـري فيهـا تصنيـع طائـرات «مهاجـر2» المسـيَّرة داخـل مقـرّ شـركة إنتـاج الأسـلحة والذخيـرة الفنزويليـة (Cavim) فـي عـام 2010م. وفـي يونيـو 2012م، خلال بـثّ تليفزيونـي، أظهـر شـافيز طائـرات «مهاجـر 2» المسـيَّرة لأول مـرة، وأُعلـن أنَّ الموظَّفيـن الفنزوييـن العامليـن فـي هـذا المشـروع تدرَّبـوا فـي إيـران.

فـي نوفمبـر 2020م، أعلـن مـادورو، خلال بـثّ تليفزيونـي، عـن أنَّ فنـزويلا سـتُصنِّع طائـرات مسـيَّرة مقاتلـة متعـدِّدة الأغـراض. وقـال إنَّ هـذه الأجهـزة سـيجري تصنيعهـا مـن الألومنيـوم الفنزويلـي، بـل سـتُصنَّع للتصديـر[15].

مـن جهـة أخـرى، وخلال الأزمـة الحدوديـة بيـن فنـزويلا وجويانـا فـي إقليـم إيسـيكوبيو[16] –المُتنـازع عليـه بيـن الدولتيـن– فـي 28 ديسـمبر 2023م، تبيَّـن أَن فنـزويلا تمتلـك زوارق قتاليـة إيرانيـة الصُّنـع تُعـرَف باسـم «زوارق ذو الفقـار»، وهـي زوارق دوريـة سـريعة، ويمكن أن تصِـل سـرعتها إلـى 52 عقـدة فـي السـاعة.

وعلـى الرغـم مـن أنَّ رئيسَـي فنـزويلا وجويانـا أعلنـا فـي منتصـف ديسـمبر 2023م أنَّهمـا اتَّفقـا علـى عـدم اسـتخدام القـوَّة ضـدّ بعضهمـا، فـإنَّ مـادورو أطلـق فـي 28 مـن الشـهر

نفسه مناورات عسكرية تضمَّنت تحريك نحو 5600 جندي إلى إقليم إيسيكوبيو. ووُصِف ذلك بأنَّه ردّ على «استفزاز» المملكة المتحدة، بعد أن أرسلت السفينة الحربية «إتش إم إس ترينت» إلى جويانا[17].

2. بوليفيا:

تزامن انتهاء حظْر الأسلحة على طهران في أكتوبر 2020م، مع عودة إيفو مورايس، الرئيس الاشتراكي السابق لبوليفيا، من منفاه إلى بلاده. ومن ثمَّ التقى الرئيس السابق مورايس نيابةً عن الرئيس البوليفي الاشتراكي الحالي لويس آرسي، مع مسؤولين إيرانيين في كاراكاس، لإبرام اتفاقية الدفاع الحالية بين طهران ولاباز[18].

إنَّ مورايس اشتراكي ومنتقِد متحمِّس للولايات المتحدة، حتى إنَّه وصف نفسه بأنَّه «كابوس واشنطن». وفي زيارته الأولى إلى طهران في عام 2008م، وصف إيران وبوليفيا بأنَّهما «دولتان صديقتان وثوريتان»، وأنَّهما «يعارضان بشدَّة الهيمنة الأمريكية». وفي عهد مورايس، أصبحت بوليفيا داعمًا صريحًا لإيران في المحافل الدولية. وفي الأُمم المتحدة، أظهرت لاباز اتّجاهها الذي دام عقدين من الزمن، المتمثِّل في دعْم أو الامتناع عن التصويت على القرارات السنوية، التي تُدين إيران، فصوَّتت ضدّ هذه القرارات جميعًا منذ عام 2009م. ومنذ عام 2010م، أعطت بوليفيا أيضًا تأييدها للبرنامج النووي الإيراني. ثم فتَرَت العلاقات بين الدولتين عامي 2019م و2020م، بعد استبدال الرئيسة جانين أنيز، اليمينية الموالية للولايات المتحدة، التي أغلقت سفارة بوليفيا في إيران، بمورايس في مقعد الرئاسة. ومع ذلك، فقد جرى إصلاح العلاقات الإيرانية-البوليفية بسرعة، منذ انتخاب الاشتراكي لويس آرسي. وفي عام 2023م، كثَّفت طهران ولاباز شراكتهما، ووقَّعتا اتفاقية دفاعية مشتركة[19].

في 20 يوليو 2023م، وقَّع وزيرا الدفاع الإيراني والبوليفي على مذكِّرة تفاهم بشأن التعاون في المجالات المشتركة. في البداية، اختار الجانبان عدم نشْر محتوى هذه المذكرة، لذا فإنَّ معظم التعليقات وعناصر الرفض، التي تلت ذلك، هي بالضرورة تخمينية.

الانزعاج الكبير من مذكِّرة التفاهم جاء من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وإقليميًّا من الأرجنتين. عند عقد مذكِّرة التفاهم بين إيران وبوليفيا، كان تيّار اليمين في الأرجنتين لا يزال في المعارضة، ولم يكُن قد وصل إلى الرئاسة بعد، لذلك وصف اليمين -المعارض في ذلك الوقت- الصفقة بأنَّها «إهانة واعتداء على الأرجنتين»، وطالب الحكومة في بوينس آيرس بإدانتها والمطالبة بإلغائها. وقد جاء ذلك الموقف متّسِقًا مع موقف اليمين الأرجنتيني المعارض لإيران بقوَّة، الذي عادةً ما يتّهم الحكومات البيرونية (تيّار اليسار الأرجنتيني) المختلفة، بالتحالف، وأحيانا «التواطؤ»، مع إيران. وبالفعل،

طلبت الحكومة الأرجنتينية اليسارية -في حينها- توضيحات من بوليفيا، بشأن نطاق وحجم الصفقة[20].

بعد أسبوع من توقيع الاتفاق الإطاري بين الدولتين، أفاد وزير الدفاع البوليفي إدموندو نوفيلو، بأنَّ الاتفاق يحتوي على إمكانية الحصول على طائرات مسيَّرة، وزوارق لمراقبة الحدود الإقليمية ومكافحة تهريب المخدّرات، والحماية السيبرانية، فضلًا عن الاستفادة من تكنولوجيا «النانو» و«الجيوماتكس»، دون الخوض في تفاصيل متعمِّقة.

كما أفاد وزير الدفاع البوليفي بأنَّ ما أُثير من الولايات المتحدة والأرجنتين من شكوك ومخاوف حول هذه الاتفاقية اشتمل على معلومات خاطئة كثيرة، إذ إنَّ الهدف الرئيسي من امتلاك بوليفيا هذه المعدَّات ليس الهجوم على جيرانها، أو أيّ أهداف قتالية، لكن بهدف تأمين الحدود ومواجهة عصابات المخدّرات بالدرجة الأولى، خصوصًا أنَّ إيران قدَّمت لبوليفيا عروضًا لمعدّات متطوِّرة، تستطيع التغلُّب على صعوبة ووعورة الجبال والجغرافيا في بوليفيا. وقال نوفيلو: «لقد عرضوا نموذجًا للطائرات المسيَّرة، التي قد تكون لديها القُدرة على تنفيذ مراقبة الحدود، بنفس الفعالية في الارتفاع». وأشار الوزير أيضًا إلى اهتمام بوليفيا بالحصول على المنتجات الإيرانية المتقدِّمة من القوارب ومعدّات الملاحة، التي تستطيع أداء دوريات في أنهار البلاد لمكافحة التهريب والاتّجار بالمخدّرات. وأعرب الوزير أيضًا عن اهتمام بلاده بالتعاقد مع إيران لعمل صيانة للطائرات والهليكوبتر البوليفية، التي تحتاج بالفعل إلى الصيانة، مشيرًا إلى أنَّ بلاده لا تمتلك هذه القُدرة الفنِّية.

من جانب آخر، اعتبر الوزير البوليفي السابق كارلوس سانشيز بيرزاين، أنَّ هذا الاتفاق هو «خيانة عُظمى للبلاد»، ذلك لأنَّ الثمن الحقيقي، الذي ستدفعه بوليفيا، من أجل الحصول على هذه المعدّات الحربية، هو معدن الليثيوم الموجود بوفرة في بوليفيا[21].

في المقابل، أجمل نوفيلو ردّه على كل هذه الاعتراضات والمخاوف الداخلية والإقليمية والدولية، بـ«أنَّ هذه الاتفاقية، إنَّما تأتي في إطار الجهود، التي نبذلها لمواجهة تأخُّرنا العلمي والتكنولوجي، وهي لا تشكِّل على الإطلاق تهديدًا يعرِّض السلام أو الأمن في المنطقة للخطر[22]».

وبعد يومين من تصريحات نوفيلو، قال المتحدِّث باسم مجلس الأمن القومي الأمريكي جون كيربي، في مقابلة: «إنَّ إدارة بايدن قلِقة بشأن أيّ تصدير للتكنولوجيا الإيرانية يمكن أن يؤدِّي إلى زعزعة الاستقرار[23]».

3. البرازيل:

بعد تنصيب لويس إيناسيو لولا دا سيلفا رئيسًا للبلاد، منحت البرازيل الإذن لسفينتين حربيتين إيرانيتين، «آيريس مكران» و«آيريس دينا»، بالرسوّ في ميناء ريو دي جانيرو، في الفترة من 23 إلى 30 يناير 2023م. السفينة «مكران» هي ناقلة نفط خام سابقة جرى

تجديدها، لتكون قاعدة بحرية استكشافية، وهي أكبر سفينة في البحرية الإيرانية، وكانت جزءًا من رحلة أولية إلى جنوب المحيط الأطلسي في عام 2021م، قبل الإبحار شمالًا إلى بحر البلطيق في طريقها إلى سانت بطرسبرغ في روسيا. أمَّا السفينة الثانية «دينا»، فهي فرقاطة من طراز مودج مجَّهزة بأنظمة أسلحة متطوِّرة، مثل الصواريخ المضادَّة للسفن والمدافع البحرية وقاذفات الطوربيد. كلتا السفينتين جزء من الأسطول البحري رقم 86، التابع للبحرية الإيرانية.

بدايةً، جرى رصْد السفينتين وهما تمُرّان بالقُرب من المياه الساحلية التشيلية، قبل دخولهما ممرّ دريك، الذي يربط الجزء الجنوبي الشرقي من المحيط الهادي بالجزء الجنوبي الغربي من المحيط الأطلسي بالقُرب من القارة القطبية الجنوبية. ويُقال إنَّ تشيلي منعت الأسطول البحري الإيراني من الوصول إلى مياهها الإقليمية. ويُعَدُّ ممرّ دريك أيضًا القناة الوحيدة بين المحيطات في نصف الكرة الغربي، التي لا تمُرّ عبر المياه الإقليمية السيادية. ثمّ رست السفينتان -كما سبقت الإشارة- بين 23 و30 يناير في ميناء ريو دى جانيرو. بعد ذلك، اختفت السفن الحربية الإيرانية، التي تبحر في جنوب المحيط الأطلسي أوائل فبراير، عندما كانت تقترب من المنطقة الاقتصادية الخالِصة للأرجنتين والميل البحري 201، لتعود إلى الظهور بالقُرب من المياه الإقليمية لأوروغواي بعد أيام.

يرى بعض المحلِّلين الأمريكيين وجود تنسيق صيني-إيراني لمرور السفن الحربية الإيرانية في مياه المحيط الأطلسي، بالقُرب من موانئ وشواطئ أمريكا الجنوبية. ووفقًا للبيانات، التي جمعتها المنظَّمات البحرية التي تراقب الصيد غير القانوني دون إبلاغ ودون تنظيم، جرى التعرف على ما لا يقِلّ عن 433 سفينة صينية بالقُرب من الميل البحري الأرجنتيني 201، وجرى الإبلاغ عمّا يقرُب من 700 ألف ساعة من النشاط السرِّي في المنطقة الاقتصادية الخالِصة الممتَدَّة للأرجنتين، من خلال مجموعة من سُفُن الصيد الصينية منذ يناير 2018م. ووفقًا لبعض المحلِّلين الأمريكيين، فإنَّ هذا يوفِّر الغطاء المثالي للسُّفُن الحربية الإيرانية لإخفاء أيّ نشاط سرِّي قبل دخول المياه الإقليمية البرازيلية[24].

وقد تقود توجُّهات حكومة دا سيلفا، الأكثر ميلًا إلى دول الجنوب وإبراز الاستقلالية عن الولايات المتحدة، فضلًا عن خبرة حكومته السابقة في العلاقة مع إيران، إلى دفْع التعاون مع طهران قُدُمًا. وبينما تنتشر المسيَّرات الإيرانية في دول الاتحاد البوليفاري، فإنَّ ذلك قد يثير اهتمام حكومة البرازيل، ويمهِّد الطريق نحو التعاون في مجال المسيَّرات.

ثالثًا: المصالح الإيرانية والمصالح اللاتينية من تطوير التحالفات العسكرية

في مقابلة مع وسائل الإعلام الفنزويلية خلال زيارته لكاراكاس عام 2023م، عرض الرئيس الإيراني رئيسي رؤيته ودوافعه للتواصل الإيراني مع أمريكا اللاتينية، ولخَّصها في أن أمريكا اللاتينية تُعَدُّ مكوِّنًا مهمًّا في مقدِّمة ما سمّاه «الدول الراغِبة في العيش باستقلال في

مواجهة الهيمنة الأمريكية». وأضاف رئيســـي أنَّ «التعـــاون الإيراني-اللاتيني إلى جانب دول أخـــرى في الجنـــوب العالمي، يمكن أن يكـــون فعّالًا للغاية في إعادة تشـــكيل النظام الجيو-سياسي العالمي لصالح الدول ذات الإرادة المستقِلَّة». علاوةً على ذلك، فهو يصِف العقوبات الاقتصادية الأمريكية، بـ«أنَّها أقرب إلى الهجوم العســـكري على الدول». ويرى أنَّه «من خلال تعزيز العلاقات والتواصل والتعاون بين الدول الواقعة تحت هذه العقوبات، يمكن مواجهة وتقليص أثر تلك العقوبات».

وفي هذا السياق، من الطبيعي أن تكون الدول اللاتينية ذات العلاقات المتوتِّرة مع واشنطن هي الأكثر إقبالًا على توطيد علاقاتها مع إيران. وتشمل هذه الدول: كوبا، ونيكاراغوا، وبوليفيا، وفنزويلا، الأعضاء في ما يُسمَّى «التحالف البوليفاري». ولا يقتصر الأمر على أنَّ هذه الدول تشترك مع إيران في كراهية الولايات المتحدة، بل إنَّ جميعها تخضع أيضًا للعقوبات الاقتصادية الأمريكية الحالية أو المقترحة، كما في حالة بوليفيا[25].

وفي إطار هذا التوجُّه الواضح في السياسة الخارجية للنظام الإيراني، وللحكومات اليسارية اللاتينية، وفي مقدِّمتها دول التحالف البوليفاري، يمكن فهم التنسيق العسكري بين النظام الإيراني وبين عدد من الدول اللاتينية، بل وتنامي هذا التنسيق بوتيرة متصاعدة، كما سبق عرضه في الدراسة.

وعلى هذا يمكن تحديد عدد من المصالح المتحقِّقة لدى الجانبين، من التعاون في نقْل منتجات وتكنولوجيا صناعة الطائرات المسيَّرة الإيرانية إلى حلفائها في أمريكا اللاتينية، على النحو التالي:

1. مصالح إيران:

بدايةً، تمثِّل السياسة الإيرانية في إنتاج وبيع الطائرات المسيَّرة مصدرًا لتحقيق المكاسب الاقتصادية، والأرباح التي تجنيها إيران في هذا الصدد واضحة. وتُشـــير التقديرات إلى أنَّ تكلفة طائرة «شـــاهد 136» الشـــهيرة تتراوح ما بين 20 ألف دولار و40 ألف دولار للوحدة الواحدة. هذه المعلومة إلى جانب التقارير، التـــي تُفيد بأنَّ إيران باعت أكثر من ألفي طائرة مسيَّرة لروسيا وحدها، توضِّح أنَّ طهران تكسب ملايين الدولارات من هذه الصفقات[26].

من جهة ثانية، يجعل وجود إيران على قائمة الدول الأكثر قُدرة وشُهرة في صناعة الطائرات المسيَّرة بأشكال مختلفة ومتطوِّرة من الطُرُز، منافسًا قويًّا للدول الغربية وإسرائيل، باعتبارها مصدرًا لتصدير تقنية الطائرات المسيَّرة لمختلف الدول. على سبيل المثال، ووفقًا لتقديرات معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام، صدَّرت إسرائيل 60% من الطائرات المسيَّرة في العالم بين عامي 1985 و2014م، وكان لديها أكثر من 50 عميلًا في إفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية[27]. وهذا

ما اختلف بقوَّة الآن، خصوصًا بعد الاعتماد الكامل لروسيا على الطائرات المسيَّرة الإيرانية في حربها ضد أوكرانيا منذ 2022م.

بالإضافة إلى ذلك، يُعَدُّ بيع أو منْح الطائرات المسيَّرة الإيرانية إلى بعض الدول والجماعات الموالية لإيران ترجمةً مباشرة لمصالح السياسة الخارجية الإيرانية ومشروعها السياسي إقليميًّا ودوليًّا. وبالنسبة لإيران، لا تمثِّل صناعة الطائرات المسيَّرة والأسلحة المحلِّية مصدرًا قيِّمًا للربح الاقتصادي فحسب، بل وسيلة لبناء ما تُسمِّيه طهران «محور المقاومة» ضدّ الولايات المتحدة والغرب وإسرائيل[28].

علاوةً على ذلك، فإنَّ بيع الطائرات المسيَّرة الإيرانية لدول مختلفة لتكون مصدرًا بديلًا عن التكنولوجيا الغربية أو حتى الإسرائيلية، يخدم المساعي الإيرانية لكسر حالة العُزلة المفروضة عليها بموجب العقوبات الاقتصادية.

وأخيرًا، فإنَّ وصول التقنيات العسكرية الإيرانية إلى أقرب منطقة جغرافية من الولايات المتحدة الأمريكية، يصُبّ أيضًا في مصلحة إدارة إيران صراعها مع الولايات المتحدة.

2. مصالح الدول اللاتينية:

تسعى الدول اللاتينية اليسارية أيضًا، من خلال تعميق علاقاتها التجارية والعسكرية مع إيران، إلى كسْر حالة العُزلة، التي تفرضها الولايات المتحدة عليها، وتقليص حجم الخسائر المترتِّبة على العقوبات الاقتصادية.

ونظرًا لسوء الأوضاع الاقتصادية لدول «البديل البوليفاري» تحديدًا -لأسباب عديدة تتعلَّق بسوء إدارة الملفّات السياسية والاقتصادية- فضلًا عن عدائها مع الولايات المتحدة الأمريكية ومحاولات الأخيرة المتكرِّرة للتخلُّص من الأنظمة اليسارية داخل هذه الدول، تصبح فرصة الدول المناوئة للولايات المتحدة، مثل روسيا وإيران والدول الكُبرى خارج سيطرة الولايات المتحدة، مثل الصين، هي الوحيدة في الحصول على الدعم لتخفيف حدَّة آثار التدهور الاقتصادي.

كذلك، نظرًا لتردِّي الأوضاع داخل دول «البديل البوليفاري»، نجِد أنَّها لم تستطِع تطوير منتجات وأدوات ذات تقنية متقدِّمة، سواء في المجال العسكري أو حتى في التصنيع والتعدين، ومن ثَمَّ تصبح إيران فُرصة لهم في الحصول على تقنيات متقدِّمة وكوادر مدرَّبة لتطوير أداء الحكومات اللاتينية هذه، في مجالات مختلفة، منها تشغيل شركات النفط المحلِّية، كما هو الحال مع فنزويلا، التي على الرغم من امتلاكها أعلى احتياطي نفط في العالم، فإنَّها تعاني من عجْز في إدارة عمليات التنقيب والاستخراج والتكرير، بعد تأميمها شركات النفط وافتقارها إلى الكوادر المؤهَّلة. من جانب آخر، فإنَّ تقنيات الطائرات المسيَّرة مفيدة جدًّا في مهمّات الاستطلاع، ومراقبة الحدود،

وتتبُّع ومواجهة عصابات الجريمة المنظَّمة العابرة للحدود، وفي مقدِّمتها «كارتلات المخدّرات»، التي تمثِّل الصداع الحقيقي للدول اللاتينية.

وأخيرًا، فإنَّ التبادل التجاري بين الدول اللاتينية اليسارية -الفقيرة- سواء كان تجاريًّا خالِصًا أو به جوانب عسكرية مع إيران، يُعَدُّ أسهل منه مع دولة غربية أخرى، ذلك أنَّ إيران قد تُنهي هذه الصفقات بمقابل مالي متفاوت، وغالبًا ما يكون من خلال المقايضات بالمعادن الهامَّة، التي تحتاج إليها إيران بدلًا من الدولار، وفي ذلك تسهيل لكلا الطرفين، نظرًا للعقوبات الأمريكية المفروضة.

رابعًا: التداعيات الإقليمية والدولية للتوسُّع من امتلاك هذه التكنولوجيا الإيرانية

من الواضح جدًّا أنَّه على مدار أكثر من عقدين، كانت أمريكا اللاتينية ساحةً واسعة لتلاقي مصالح الحكومات اللاتينية اليسارية، وبعض الدول المناهِضة للسياسة الخارجية الأمريكية، وفي مقدِّمتها إيران وروسيا. وقد انعكس هذا الأمر على التعاون في عدد من المجالات، مثل التبادل التجاري والاستثمار، والتنسيق السياسي في المحافل الدولية، والتصويت في الأُمم المتحدة، وفي المجالات الثقافية والاستخباراتية والعسكرية. هذا التعاون يتراوح بين العلني والسرِّي، وبين القوي والفاتر، من حكومة يسارية إلى أخرى، ومن فترة زمنية إلى أخرى.

لكن المؤكَّد أنَّ السياسة الخارجية الإيرانية حريصة جدًّا على اتّباع سياسة نشِطة ومستمِرَّة، وتتّسِم بالديمومة لتقوية وتعميق وجودها في نصف العالم الغربي. واللاعبون الرئيسيون في هذا المسرح الإستراتيجي هُم كوبا وفنزويلا وبوليفيا ونيكاراغوا، ذلك لأنَّ هذه الدول تمتَّعت بحالة استمرار لوجود التيّار اليساري فيها على مدار سنوات طويلة، ما جعلها تمتلك خطًّا ثابتًا وراسِخًا في العلاقات مع إيران، تقوم بالأساس على التعاون والتعاضد في مواجهة السياسات الأمريكية تجاه هذه الدول وتجاه إيران.

بينما اتّسمت العلاقات الإيرانية مع دول مثل البرازيل والأرجنتين وتشيلي، بحالة من الإقدام والتراجع، وفقًا لطبيعة الحكومة المنتخبة. فبعد أن كانت البرازيل داعِمة بقوَّة لإيران وملفها النووي في عهد لولا دا سيلفا، في فترتَي رئاسته الأولى والثانية منذ 2003م، اختلف الأمر تمامًا في عهد بولسنارو اليميني المتطرِّف في الفترة (2019-2022م). الأمر ذاته ينطبق على الأرجنتين بين حكومات كريشنرز اليسارية وحكومة ماكري اليمينية، خصوصًا في ما يتعلَّق باتّهام إيران وأفراد من حكومتها ومن الحرس الثوري الإيراني، في تفجيرات جمعية آميا AMIA اليهودية في بيونس آيريس عام 1994م.

يحذِّر بعض المحلِّلين المتخوِّفين من الوجود الإيراني على المصالح الأمريكية من أنَّ المرحلة المقبلة ستكون المخاوف من شبكة الموانئ الصينية في قارتي أمريكا

الجنوبيـة وأمـريكا الوسـطى، حيـث بَنَـت الصيـن نحـو 40 مشـروعًا للموانـي. وتتركَّـز معظـم الموانـي، التـي بَنَتْهـا الصيـن فـي المحيـط الهـادي، ويعتقـد هـؤلاء المحلِّلـون أنَّ هـذه الموانـي لـن تـؤدِّي فقـط لفتـح ممرّات نقْـل تجاريـة، بـل لفتـح قنـوات لتحـرُّكات عسـكرية إيرانيـة سـرِّية.

فـي 8 سـبتمبر 2023م، سـافر نيكـولاس مـادورو إلـى بكيـن للقـاء نظيـره شـي جيـن بينـغ. وفـي أعقـاب الزيـارة، التـي دامـت أسـبوعًا، وقَّـع الطرفـان علـى مـا سـمّاه البلـدان «تحالُـف إسـتراتيجي ضـدّ كل الصعـاب»، فـي حيـن عـرَضَ شـي جيـن بينـج دعمـه لكاراكاس «للحفـاظ علـى سـيادتها[29]».

ورجوعًـا إلـى مـا أشـرنا إليـه مـن مخـاوف الأرجنتيـن مـن إمكانيـة امتـلاك بوليفيـا طائرات مسـيَّرة إيرانيـة فـي المسـتقبل القريـب، فـضلًا عـن مخـاوف الولايـات المتحـدة مـن هـذه الخطـوة ومخاوفهـا مـن قبـل مـن امـتلاك فنـزويلا بالفعـل هـذه التكنولوجيـا الإيرانيـة، تجـدُر الإشـارة إلـى أنَّ الأرجنتيـن أيضًـا قـد أبـدت اهتمامًـا بامـتلاك الطائـرات المسـيَّرة، لكنَّهـا اتّجهـت نحـو إسـرائيل. ففـي 27 ديسـمبر 2022م، وقَّعـت الأرجنتيـن وإسـرائيل عقـدًا للحصـول علـى طائـرات مسـيّرة مـن طـراز Hero-120 وHero-30 الإسـرائيلية، مـا يجعلهـا أول دولـة فـي أمـريكا اللاتينيـة تشـتري هـذه السلسـلة مـن الطائـرات المسـيَّرة[30].

وبنـاءً علـى مـا سـبق، يبـدو أنَّ أمـريكا اللاتينيـة قـد تكـون متّجِهـة بصـورةٍ مـا إلـى أن تكـون سـاحة لإدارة الصـراع الإيراني-الأمريكي، ومكانًـا لإدارة التنافـس الصين-الأمريكي، والأخطـر أن تكـون مـرآة جديـدة للصـراع التاريخـي فـي الشـرق الأوسـط. وليـس أدلّ علـى ذلـك سـوى الاهتمـام الكبيـر، الـذي توليـه إسـرائيل علـى مسـتوى الحكومـة وعلـى مسـتوى الكتابـات الأكاديميـة والبحثيـة، بمتابعـة نمـو النفـوذ الإيرانـي فـي المنطقـة.

بصـورة عامَّـة، فمـن الواضـح وجـود تسـارُع كبيـر في مسـار إنتـاج وبيـع الطائـرات الإيرانية المسـيَّرة فـي الآونـة الأخيـرة، والتوجُّـه نحـو أمـريكا اللاتينيـة هـو جـزء مـن سياسـة إيرانيـة أكبـر. بحلـول عـام 2024م، كانـت المصانـع العسـكرية الإيرانيـة قـد أنتجـت آلاف الطائـرات المسـيَّرة المتقدِّمـة، المُسـتخدَمة فـي المراقبـة والاسـتطلاع والقتـال. وأصبحـت الطائـرات المسـيَّرة الإيرانيـة المُباعـة لـدول وجماعـات مـن غيـر الـدول، مشـارِكة فـي عديـد مـن بـؤر الصـراع. منهـا علـى سـبيل المثـال، الهجـوم علـى البـرج 22 فـي 28 ينايـر 2024م، وهـو موقـع أمريكـي فـي الأردن علـى طـول الحـدود العراقيـة-السـورية، مـا أسـفر عـن مقتـل ثلاثـة جنـود أمريكييـن، وإصابـة أكثـر مـن 40 آخريـن. وفـي ينايـر 2024م أيضًـا، أطلـق الحوثيـون فـي اليمـن 18 طائـرة مسـيَّرة إيرانيـة الصُّنـع علـى سُـفُن فـي البحـر الأحمـر.

ومـن قبـل، بـدأت المليشـيات المدعومـة مـن إيـران اسـتخدام الطائـرات المسـيَّرة ضـدّ أهـداف عسـكرية ودبلوماسـية أمريكيـة فـي العـراق وسـوريا، عـام 2021م. وخـلال عامَـي 2021م و2022م،

نُفِّذ ما لا يقِلّ عن 20% من الهجمات، التي شنَّتها المليشيات المرتبطة بطهران، بضربات الطائرات المسيَّرة. كما زوَّدت إيران روسيا بمئات الطائرات المسيَّرة، بدءًا من عام 2022م[31].

الخاتمة

إجمالًا، يمكن القول إنَّ الطائرات المسيَّرة أصبحت تشكِّل التهديد الأكثر إلحاحًا في أيّ صراع مسلَّح الآن، وذلك بسبب تكلفتها المنخفِضة، وتوافرها على نطاق واسع، وإمكانية إنكارها، إذ يمكن إخفاء نقطة مَنشئها، من خلال استخدام مسار طيران مُلتوٍ. ومن ثمَّ يُعَدُّ الانتشار غير المنضبِط للطائرات المسيَّرة العسكرية بصورة عامَّة تهديدًا عابرًا للحدود الوطنية، كما أنَّه عامل مُهم وحاسم في تغيُّر شكل الصراعات وتطوُّرها في مناطق مختلفة من العالم. كما أنَّه من المؤكَّد أنَّ إيران قد قطعت شوطًا طويلًا في مشوار البحث التكنولوجي والتصنيع ضمن مجال الصواريخ الباليستية والطائرات المسيَّرة، كما أنَّها امتلكت ميزة نسبية كبيرة بقُدرتها على تجريب عدد من طائراتها المسيَّرة في الحرب الروسية-الأوكرانية، ومن ثمَّ تطوير خطوط إنتاجها، مستفيدةً من تحليل نتائج عمل معدّاتها في المعركة، إلى جانب أنَّه يجب الأخذ في الاعتبار حجم التنسيق الإيراني-الروسي في هذا المجال، لدرجة عمل مصانع داخل روسيا وبيلاروسيا لإنتاج الطائرات الإيرانية المسيَّرة، فضلًا عن حجم التنسيق الإيراني-الصيني، الذي قد يمثِّل غطاءً ملاحيًّا وتجاريًّا لبيع المنتجات العسكرية الإيرانية. هذا كله يجعل من إيران عاملًا مُهمًّا في مسار عديد من الصراعات الحالية والمستقبلية، ليس فقط في الشرق الأوسط، لكن في مناطق عديدة من العالم، خصوصًا في عالم الجنوب، ومن بينه أمريكا اللاتينية.

المراجع والمصادر

(1) Natasha Turak, «Iran's drones could reach a new South American market as Bolivia expresses interest», CNBC, (31-07-202), accessed March 22, 2024, https://2u.pw/MQrEp8XCl

(2) Mona Hojat Ansari, «Why the West is worried about the growing use of Iranian weapons», Tehran Times, (03-02 2024), accessed March 22, 2024, https://2u.pw/bP9coCn5

(3) Michael Lipin, «Why Iranian Drones Are Appealing to Belarus, Bolivia», VOA, (12-08- 202) , accessed March 22, 2024, https://2h.ae/OKSg

(4) Ata Şahit, «What role would Iranian drones play in any regional crisis?», TRT World, (February 2024), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/UDPA

(5) Emanuel Fabian, «Gallant says Iran in talks with 50 countries to sell missiles and drones», Times of Israel, (17-02-2023), accessed March 21, 2024, https://2h.ae/nIBJ

(6) Danny Citrinowicz, «Iran is on its way to replacing Russia as a leading arms exporter. The US needs a strategy to counter this trend»., Atlantic Council, (02-02-2024), accessed March 20, 2024, https://2h.ae/juVk

(7) Dan Sabbagh, «Deadly, cheap and widespread: how Iran-supplied drones are changing the nature of warfare», The Guardian, (02-02-2024), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/zDMY

(8) Ardalan Mohammadzadeh, «Iranian drones; now in the Western Hemisphere», Tehran Times, (09-09-2023), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/STZd

(9) تسمية الوردي، تُطلَق على التيّار اليساري في أمريكا اللاتينية.

(10) Sabina Nicholls, «Iran's Stealthy Steps in the Region: Latin America under Threat – PART I», Diálogo Americas, (07-02-2024), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/ttHW

(11) JOSEPH HUMIRE, «Iran and Venezuela: A Strategic Partnership», Dialogo Americas, (10-06-2021), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/uheV

(12) Andrew Lumzden, «Media Guide: Iran in Latin America», American Iranian Council, (27-01-2023), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/xJPP

(13) Umud Shokri, «Iran Nurtures Ambitions For The Venezuelan Oil Market», (16-04-2015), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/UhDZ

(14) JOSEPH HUMIRE, «Iran and Venezuela: A Strategic Partnership», Dialogo Americas, (10-06-2021), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/uheV

(15) Ángel Bermúdez, «Cómo Venezuela se convirtió con la ayuda de Irán en el »único país latinoamericano que cuenta con drones armados« », BBC News Mundo, (30-11-2022), accessed March 17, 2024, https://2h.ae/IGDo

(16) إيسيكويبو، هي منطقة تبلغ مساحتها 160 ألف كيلومتر مربَّع، وهي جزء من دولة جويانا المجاورة. وتمثِّل هذه المنطقة الغنية بالنفط والموارد الطبيعية ثلثي المساحة الإجمالية لدولة جويانا. يعيش نحو خُمس سُكّان جويانا في هذه المنطقة المُتنازَع عليها. وازداد الوضع سوءًا، بعد أن أجرت فنزويلا استفتاءً مثيرًا للجدل حول مسألة ضم المنطقة لفنزويلا في 3 ديسمبر 2023م، ثمّ أمر مادورو شركة النفط الحكومية بإصدار تراخيص تسمح لفنزويلا باستغلال موارد المنطقة المُتنازَع عليها.

(17) Alijani Ershad, «Venezuela's Zolfaghar boats are just the latest military equipment provided by Iran», France24, (10-01-2024), accessed March 19, 2024, https://2h.ae/jnOl

(18)- Joseph Humire, «Iran's Weapons Now Reach the Western Hemisphere», The Heritage Foundation, (17-08-202), accessed March 15, 2024, https://2h.ae/LrKy

(19) Andrew Lumzden, «Media Guide: Iran in Latin America», American Iranian Council, (27-01-2023), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/xJPP

(20) Eldar Mamedov, «Fresh Hysteria Over Detail-Less Bolivia-Iran Security Deal», Responsible Statecraft, (01-08-2023), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/HPtu

(21) Luis Marcelo Tedesqui Vargas, «Novillo dice que acuerdo con Irán incluye drones, lanchas y »protección cibernética« , EDICIÓN IMPRESA, (26-07-2023), accessed March 12, 2024, https://2h.ae/yhuF

(22) Edwin Condori, »Ministro boliviano cree que hay «show político» en Argentina tras polémica por su viaje a Irán« , El Deber, (25-07-2023), accessed March 12, 2024, https://2h.ae/hJXj

(23) Natasha Turak, «Iran's drones could reach a new South American market as Bolivia expresses interest», CNBC, (31-07-2023), accessed March 20, 2024, https://2h.ae/hmqw

(24) SFS Team, «VRIC MONITOR NO. 29 | LATIN AMERICA BETWEEN WAR AND PEACE», SFS, (03-03- 2023), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/SlIp
(25) AIC Senior , «Media Guide: Iran in Latin America», (27-01-2024), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/xJPP
(26) Danny Citrinowicz, «Iran is on its way to replacing Russia as a leading arms exporter. The US needs a strategy to counter this trend», (02-02-2024), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/juVk
(27) Garrett Nada, «Explainer: Iran's Drone Exports Worldwide», (12-06-2023), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/bfbT
(28) Natasha Turak, «Iran's drones could reach a new South American market as Bolivia expresses interest», CNBC, (31-07-2023), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/hmqw
(29) SABINA NICHOLLS, «Iran's Stealthy Steps in the Region: Latin America under Threat – PART II», Diálogo Americas, (23-02-2024), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/FhTa
(30) Paul Iddon, «Iran And Israel Are Selling South America Drones. Could Others Soon Follow?», Forbes, (28-07-2023), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/FFeN
(31) Iran primer, Roster of Iran's Drones, (02-02-2024), accessed March 22, 2024, https://2h.ae/fYUc

الفلسفة والسياسة في إيران المعاصرة

د.محمد السيِّد الصياد

باحث في المعهد الدولي للدراسات الإيرانية (رصانة)

الملخص:

يتمحور موضوع الدراسة حول الفلسفة والسياسة في إيران المعاصرة، وتسعى الدراسة لرصد أثر الفلسفي في السياسي، وكيف نظَّرت النُّخَب الدينية الحاكمة فلسفيًّا لشكل الحُكم وإدارة الدولة، في محاولة لتحصين الحُكم بالأفكار والفلسفات، التي لا تقِلّ أهمِّية عن الجيوش والمؤسَّسات. وهدف الدراسة الأوّلي هو تصوُّر الشيء على ما هو عليه، وبالتالي فهْم طبيعة الدولة الإيرانية المعاصرة، وإدراك مكامن قوَّة التنظير وضعفه، والنقاش حوله، والاستدراك عليه. وبالتالي، تسعى الدراسة للإجابة عن عدد من الأسئلة المتعلِّقة بدور الدرس الفلسفي في التنظير السياسي، ومآلات الدرس الفلسفي، وفلسفة «الإصلاحيين» المضادَّة لفلسفة الولائيين.

الكلمات المفتاحية:

الفلسفة، إيران، الملا صدرا، الطباطبائي، الخميني، شريعتي، سروش، الحكمة المتعالية، الغزالي.

Philosophy and Politics in Contemporary Iran

Abstract:
The subject of the study revolves around philosophy and politics in contemporary Iran. The study seeks to look at the impact of philosophy on politics and how the ruling religious elites theorized philosophically about the form of government and state administration in an attempt to entrench their rule with ideas and philosophies that are no less important than armies and institutions. The primary goal of the study is to perceive things as they are, and understand the nature of the contemporary Iranian state, understand and review the strengths and weaknesses of theorization. The study seeks to answer a number of questions related to the role of philosophical lessons in political theorization, and their consequences. Finally, the study looks at the philosophy of the reformists who are opposed to the philosophy of those who are loyal to Wilayat al-Faqih.

Key words: Philosophy, Iran, Mulla Sadra, Tabatabai, Khomeini, Shariati, Soroush, transcendent theosophy (al-hikmat al-muta'āliyah), Ghazali

المقدِّمـــة

لم يكُن الدرس الفلســـفي في إيران بعيدًا عن الفعل السياســـي، وتشكيل أنماط ومقاربات القراءات الدينية المختلفة، وتحصين النُّخَب السياســـية فلســـفيًّا، فالجـــدل الدائر في الأوساط الدينية والسياسية منذ عام 1979م حتى اليوم هو جدلٌ فلسفي في المقام الأول، أو مبعثه الخلاف في القراءة الفلسفية بين المتنازعين. والدرس الفلسفي الإيراني ليس وليد لحظة ما بعد الثورة الإسلامية، بل هو متجذِّر فـــي بلاد فارس، حتى قبل هيمنة الصفويين على الأقاليم الفارسية، وتحويلها إلى الشيعة الإمامية، بل توجد فلسفة فارسية قديمة قبل الإسلام عمِلَ البعض على استحضارها وإدماجها مع الفلسفات الأخرى، على نحو ما يرصد مؤسِّـــس التفكيكية الحديثة[1]، رضا حكيمي، في مكوِّنات الفلســـفة الصدرائية. ولم يتعلَّق الدرس الفلسفي في «بلاد فارس» بجانبٍ دون آخر، بل كانت مدارس وتيّارات عديدة فاعِلة في مراحل وكامِنة في أخرى.

لذا، نسعى في هذه الدراسة إلى تناوُل أثر الفلسفي في السياسي، أيّ تأثير الدرس الفلسفي في إيران المعاصرة في المشهد السياسي برُمّته، فالفلسفة باتت لصيقة اليوم بالدولة الإيرانيـة التي تتبنَّى نُخبتها الدينيـة في مجملها المقولات الصدرائيـة، تلك الفلسـفة لا شكّ ضمِنَت رسْم هويَّة الدولة، وتحديد أيديولوجيتها ومبرِّراتها المذهبية. ولا يعني هذا أنَّ الدرس الفلسفي الإيراني اليوم منحصِرٌ في مدرسة الحكمة المتعالية المُتبنَّاة من الخط الولائي[2]، بل لقد أحدثت اتّجاهات أخرى مهمَّة حراكًا فلسفيًّا وسياسيًّا، واتّخذت من الاشتباك مع الحكمة المتعالية أداةً لمواجهة الحكومة الإيرانية، فأضحى الدرس الفلسفي جزءًا من التجاذب السياسي في الدولة، ما يتطلَّب دراسة تلك الظاهرة، وبيان أوجهها المختلفة والمتباينة.

أولاً: الحوزة وماهية الفلسفة

تشـــتمل المؤسَّســـات الدينية في كل المذاهب على تيّارات في الداخـــل، بعضها يمارس مقاربات فلســـفية «إصلاحية»، وبعضها ينبُذ الفلسفة باعتبارها هرطقة، أو بدعة، أو نحو ذلك. والفلســـفة المقصودة هنا فنّ الفلســـفة كلُّه، وليس اللاهوتي الإلهياتي فقط، وقد اشـــتغل آخرون بالفلســـفة، لكنَّهم انتقدوا البُعد الإلهياتي فقط من الفلسفة، كأبي حامد الغزالي، الذي صنَّف «تهافُت الفلاســـفة»، وردَّ عليه ابن رشـــد في «تهافُت التهافُت»، لكن الغزالي يحصر خلافه وردَّه على الفلاسفة في الإلهيات فقط، فيقول: «فلمَّا رأيتُ هذا العِرْق من الحماقة نابضًا على هؤلاء الأغبياء، انتدبتُ لتحرير هذا الكتاب، ردًّا على الفلاسفة الُقدمـــاء، مبيِّنًا تهافُت عقيدتهـــم، وتناقُض كلمتهم في ما يتعلَّـــق بالإلهيات[3]». وبعد أن رَجَعَ سبب النزاع مع الفلاسفة إلى ثلاثة أقســـام، ما يرجع إلى اللفظ المجرَّد، وما لا يصدم مذهبهم فيه أصلًا مـــن أُصول الدين، وما يتعلَّق النزاع فيه بأصـــلٍ من أُصول الدين، جعل القسمين الأول والثاني ممّا لا ينبغي النزاع فيه معهم، بل دافع عنهم في القسم الثاني قائلًا:

«ومَن ظنَّ أنَّ المناظرة في إبطال هذا من الدين، فقد جنى على الدين[4]». أمّا القسم الثالث، وهو ما يتعلَّق بأصلٍ من أُصول الدين، فهو وحده «الذي ينبغي أن يُظهِر فساد مذهبهم فيه، دون ما عداه[5]»، ويؤكِّد موقف الغزالي ما قرَّره في «مقاصد الفلاسفة» أنَّه لم يرِد سوى الردّ عليهم في الإلهيات[6]. وعلى الرغم من هجوم الغزالي على الفلسفة والفلاسفة، فإنَّ فلاسفة إيرانيين مثل الملا صدرا من المتقدِّمين، وعبد الكريم سروش من المتأخِّرين، أثنوا على الغزالي في مواضع وتأثَّروا به، ما يعني أنَّهم فهِموا مقصده في نقْد الفلاسفة في بعض المسائل.

لكن النزاع بين الفقهاء والفلاسفة استمرَّ منذ الغزالي وحتى اليوم، وهو ما سنجِده عند الفلاسفة الإيرانيين، عندما وُوجِهوا باتّهامات الهرطقة والإلحاد من جانب خصومهم الفُقهاء. وعند تحقيق أغلب تلك الخلافات بين الفريقين نجِد لها خلفية سياسية، أو نجِد حضورًا للسُّلطة السياسية، لكن نقْد الفلسفة الميتافيزيقية[7] لم يخترعه الغزالي كما يردِّد البعض، بل إن فلاسفةً قُدامى ومعاصرين انتقدوا الفلسفة الميتافيزيقية، حتى من الفلاسفة الغربيين، مع اختلاف طرائق النقد، ومقاصده، لكن مبدأ النقد كان قائمًا[8].

فلا يمكن الزعم إذًا أنَّ الغزالي هو الذي أمات الفلسفة وأتى عليها، لأنَّ الفلسفة من حيث هي عملية تفكُّر ونظر وتفلسُف لا تموت، ولا تذهب بمجرَّد هجومٍ أو نقْد، وإلّا ما كانت فلسفة. وما يُقال عن الغزالي قد يجري أيضًا على ابن سينا نفسه، الذي انتقد بعض الفلاسفة ووصفهم بالملاحدة، «أو كان من ملاحدة هؤلاء المتفلسِفة، ومن همجهم[9]». وعلى كلٍّ، فإنَّ الجانب الأهمّ عند الغزالي هو فلسفته السياسية، وهذا الجانب لم يُشهَر بسبب معركته الكُبرى مع الفلاسفة، ولم يؤثِّر بطريقٍ مباشر في من جاء بعده من فلاسفة السُّنَّة والشيعة على السواء.

وقد تأثَّر فلاسفة الشيعة بالغزالي حتى وصفه الملا صدرا، بعد أن نقَلَ عنه، بـ«البحر القمقام، الموسوم عند الأنام، بالإمام وحُجَّة الإسلام[10]». وهُنا يظهر إعجاب الملا صدرا بالغزالي، ويبدو أنَّه قد وجَدَ في تصُّوف الغزالي سندًا لعرفانيته، التي مزجها بالفلسفة وعِلْم الكلام، وهو نفس ما فعله الغزالي من قبل، فالغزالي متكلِّم وصوفي وفيلسوف، لكن يبقى الخلاف المذهبي عميقًا بين الرجلين، فالغزالي من أعمدة الأشعرية الذين انتقدوا الفكر الشيعي، بل أهمُّهم على الإطلاق، وبالتالي نحنُ أمام مناطق رمادية وأسئلة قلِقة ومحيِّرة، تحتاج إلى دراسة وتأمُّل.

ولكُلِّ فيلسوف أو مدرسة فلسفية مذهبها السياسي، الذي أثرى نظريتها المعرفية، فالفارابي هو أوّل فيلسوف مسلم يترُك مصنَّفات سياسية، وقد أثَّر في جميع مَن تلاه من الفلاسفة، ومع ذلك فلم يكُن معنيًّا بفن الحُكم، ولا كان ناقدًا للسياسة المعاصرة، وإنَّما اهتمَّ بغاية الإنسان القصوى. ومن هذا المدخل، نظَرَ في المباحث المتعلِّقة بأفضل المُدُن والقوانين المختلفة، وقد عرَّف «المدينة الفاضِلة» بأنَّها هي «التي يُقصَد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء، التي تُنال بها السعادة في الحقيقة[11]».

واشترطَ في الإمام/الرئيس أن يدرُس العلوم النظرية، وشَبَّهه بـ«ربِّ البيت» أو «القيِّم على الصبيان»، الذين يُعلَّمون رَضُوا أم أَبَوْا. ونجِدَ أثر هذه النظرية عند الخميني في ما بعد عندما جعل الولي الفقيه وصيًّا على الناس، كالقيِّم على الصبيان. أمّا ابن سينا فإنّه يُوجِز واجبات الإمام في النظرية التشريعية السُّنِّية، ووفَّق بين الخصال الإسلامية للخليفة، والفضائل الأربع الأفلاطونية، ويجب عنده أن يكون أصيل العقيدة، عارفًا بالشريعة حتى لا أعرف منه[12]. وكان لهذا الثراء الفلسفي أثره في فلاسفة إيران، كالطوسي، ومدرسة الحكمة المتعالية، كما سيأتي.

ثانيًا: الفلسفي والسياسي في الإرث الإيراني

للعرفان في بلاد فارس تاريخ طويل، واقترن بالحكمة، حتى إنَّ البعض جعلهما متلازمَين. ومن أوائل العرفاء الإيرانيين: شهاب الدين السهرودي، المقتول (ت: 1191م= 587هج)، الذي قِيل إنَّه المسؤول عن إدخال التصوُّف إلى فن التفلسُف[13]. ودرس السهرودي فلسفة ابن سينا، «الفلسفة المشَّائية»، وقِيل إنَّه درس في أصفهان، لكن رحلته الكاملة –قبل أن يستقِرّ به المطاف في دمشق– غير معلومة، ودرَسَ كذلك الفلسفة الأفلاطونية، ومزَجَ بين المدرستين حتى صارت له مدرسة قائمة بذاتها، سُمِّيت بـ«الفلسفة الإشراقية». والفلسفة الإسلامية ما بعد الكلاسيكية يمكن أن ترجع أُصولها –حسب جون والبريدج– إلى جذور ثلاثة: أرسطية ابن سينا، وأفلاطونية السهروردي، وواحدية ابن عربي. ورأى الفلاسفة الإيرانيون المسألة على أنَّها خلافٌ بين أنصار أوّلية الجوهر «السهروردي»، وأنصار أوّلية الوجود «ابن عربي»، بمعيّةِ بقيةٍ من المشّائين[14]. ويمكن الوقوف سريعًا على المراحل المركزية والمحطَّات الرئيسية للدرس الفلسفي الإيراني في مرحلة الصفويين وما قبلهم، من خلال ما يلي:

1. الطوسي والحيرة السياسية:

قبل مرحلة الصفويين، كان نصير الدين الطوسي (ت: 1273م= 672هج)، قد عاش في حصون النزارية الإسماعيلية في فارس لثلاثة عقود، واختلف الباحثون حول عقيدته، أشيعيٌّ اثنا عشري أم إسماعيلي؟ فذهب البعض إلى اثني عشريته، لكنَّهم يقولون إنَّه استعمل التقية في أثناء مُكْثه في بلاد فارس النزارية، وصنَّف عددًا من المؤلَّفات الإسماعيلية ليُثبِت إسماعيليته حِفظًا لحياته، بيْد أنَّ آخرين يجزمون أنَّه وُلِد ونشأ شيعيًّا اثني عشريًّا في البداية، لكنّه أمضى فيما بعد قرابة ثلاثة عقود بين جماعات القِلاع الإسماعيلية في فارس، وهي الفترة الأغزر إنتاجًا في حياته، وتحوَّل خلالها إلى الإسماعيلية[15]. وعندما كان الطوسي مُقيمًا بين دهراني الإسماعيلية في فارس، كتَبَ كُتُبه الرئيسية الفلسفية، مثل «أخلاق نصيري»، و«أخلاق محتشمي»، و«شرح الإشارات والتنبيهات» لابن سينا. لكن وبعد تدمير المغول الدولة النزارية، وانضمام الطوسي إلى حاشية هولاكو، ارتدَّ إلى الشيعية

الاثنا عشرية، وكتَبَ كُتُبه الرئيسية في الكلام الإمامي، مثل: «قواعد العقائد»، و«تجريد العقائد». ويذهب فرهاد دفتري إلى أنَّ الطوسي من القِلَّة، التي جمعت بين الفلسفة وعِلْم الكلام، أو هو أوّل عالمٍ اثني عشري فعل ذلك[16].

لكن الخلاف حول مذهب الطوسي، لم يلْحظ الجانب الشخصي والمصلحي، فقد يكون الرجل ممَّن يقدِّمون مصلحتهم الشخصية ومطامعهم الذاتية على المذهب والمُعتقَد والفكر، أو آثر أن يُوجِد لنفسه مساحات للعمل وإخراج مشروعه، فاستعمل التُّقية مع الجميع. لذا، تجِده في حصون النزاريين يؤلِّف على منهجهم، ويؤمن بمُعتقَدهم، ولمَّا ولَّت دولتهم وذهبت فترتهم، كتَبَ يمدح في مُعتقَدات الاثنا عشرية. لكن قد يُقال: وما الفارق بين تصنيفه على مذهب الإسماعيلية ومذهب الاثنا عشرية، فالاثنا عشرية لم يكونوا في السُّلطة حتى يمدحهم؟ والجواب أنَّ الاثنا عشرية حينئذ هُم فرقة المنتظِرة، وأبعد الفِرَق الشيعية عن السياسة والتدبير، لكن الإسماعيلية حينئذٍ أرباب إيالةٍ، وأصحاب دولة، كانت دولتهم قائمة، وأفكارهم منتشِرة، وتهديدهم دول خصمهم لا يفتر، فلَّما ذهبت دولتهم، آثر الطوسي أن يكون تحت ظل مذهب انتظاري لا يطمع في الحُكم، ولا يشارك في السياسة، حتى بدُور المعصوم وظهوره، وهو ما يجعله محل قبولٍ عند الحُكّام الجُدُد من المغول، فيأمنون جانبه، ولا يرقبون أفعاله. وعلى القول إنَّ الطوسي قد بدأ حياته شيعيًّا إماميًّا اثني عشريًّا، وختمها على نفس المذهب، فإنَّ خدمته لهولاكو والمغول محل إشكالٍ كبير، لأنَّ الفقه التقليدي الشيعي تقليدي انتظاري، لكنَّ ذلك قد يُوَجَّه بأنَّه من جُملة عُلماء الاثنا عشرية، الذين ارتأوا جواز خدمة السُّلطان، أو أنَّ خلافه مع العباسيين السُّنَّة ونقمته عليهم جَوَّزله التعاون مع المغول ضدّهم، أو أنَّه طمِعَ في منصبٍ وجاهٍ ونفوذ، أو كل هذه العوامل مجتمعة.

2. الملا صدرا.. والنأي عن السياسة:

يُعتبَر صدر الدين الشيرازي هو الرجل الثاني في مدرسة أصفهان، بعد أستاذه مير محمد باقر الاسترابادي (ت: 1631م= 1041هـ) المشهور باسم مير داماد (لأنَّ والده كان صهرًا للشيخ الكركي، صاحب النفوذ حينئذ، والصهر= داماد بالفارسية)، وهو من أهمِّ الفلاسفة الإيرانيين ولُقِّب بـ«المعلِّم الثالث»، وأبرز فلاسفة مدرسة أصفهان. وقد تولَّى مير داماد منصب شيخ الإسلام في أصفهان، وقد بنى على الفلسفة المشَّائية، التي تعكس إدماجًا للفلسفتين الأرسطية والأفلاطونية المُحدَّثة مع العقائد الإسلامية، كما صاغها الفارابي وابن سينا، وعلى التراث الإشراقي لشهاب الدين السهروردي، والعرفان الصوفي لابن عربي، فاجتمعت هذه المتفرِّقات ممتزِجة بالتشيُّع الاثنا عشري على يد مير داماد. لكن رُبَّما كان الملمح الأهمُّ في فلسفة مير داماد أو في مدرسة أصفهان: تنقية العناصر الأفلاطونية المُحْدَثة في هذا التراث -أي التراث الفارسي الفلسفي- من شوائب المشَّائية الإغريقية، وإبراز العناصر الأفلاطونية المُحدَّثة في فكر الفارابي وابن سينا. ومن أبرز تلامذة مير داماد

هو الملا صدرا[17]، وهو أشهر فيلسوف إيراني ومؤسِّس مدرسة الحكمة المتعالية.

نشأ صدر الدين الشيرازي الملقَّب بالآخوند (ت: 1640م= 1050هـ)، في زمن الشاه عباس الكبير الصفوي (ت: 1629م= 1038هـ)، الذي وطَّد علاقاته مع الكاثوليك والغرب، حتى امتلأ بلاطه بالتُّجّار والدبلوماسيين الأوروبيين، يتودَّد إليهم ويتقرَّب منهم، مع ازدهار كبير في النواحي المادية، وبذخ وترف في التشييد والعمران. وقيل إنَّ الملا صدرا أنكر تقرُّب الشاه عباس من الكاثوليك الأوروبيين، ومن ثَمَّ اعتزل أصفهان، وأقام في بلدة نائية، متفرِّغًا للعبادة والتأمُّل، ولذا انتقد صدر الدين الشيرازي في مواضع له، «تردُّد العلماء على أبواب السلاطين، ومقاساتهم المُذِلَّة والمُهانة في سبيل أن يُكتب لهم الحصول على بعض وجوه السُّحت بمالٍ حرام[18]». ورُبَّما هذا أهمّ موقف صريح معارض للشيرازي ضدّ سُلطة الشاه عباس، الذي عُرِف بشدّته وقسوته. وتتلمذ الصدر الشيرازي على ميرداماد، الذي يُعتبَر أبرز وأهمّ أساتذته، وعلى الشيخ البهائي بهاء الدين العاملي (ت: 1621م= 1030هـ)، وكان رُكنًا من أركان مدرسة أصفهان. وتتلمذ عليه وأخذ عنه، أمثال عبد الرزاق لاهيجي (1661م= 1072هـ)، وملا محسن فيض كاشاني (ت: 1680م= 1091هـ).

أمَّا عن فلسفته، فقد مزج الملا صدرا بين مدارس فلسفية وعرفانية وكلامية مختلفة، فمزج المذاهب الأربعة الرئيسية: عِلْم الكلام، الفلسفة المشَّائية، الفلسفة الإشراقية للسهروردي، والتقاليد العرفانية، لا سيّما صوفية ابن عربي، وصاغها في قالب شيعي باطني، وسمَّاها «الحكمة المتعالية»، فقد حاول الجمع بين العقل والوحي والكشف. وذهب البعض إلى تأثُّر مدرسة أصفهان بالدرس الفلسفي الإسماعيلي، الذي بثَّه الدُّعاة الإسماعيليون بإيران في عهد الدولة الفاطمية[19].

والحاصل أنَّ الشيرازي آثر وجود مسافة بينه وبين السُّلطة، ولم ينتقدها انتقادًا صريحًا يُهدِّد وجوده أو دروسه العلمية، بل اكتفى بالعُزلة أولًا، وبنقد العلماء المتقرِّبين من السُّلطة ثانيًا، ورُبَّما كان هذا من عوامل اضطهاد فلاسفة المدرسة فيما بعد. فقد تعرَّضت مدرسة أصفهان الفلسفية والصوفية إلى الاضطهاد في نهاية القرن السابع عشر الميلادي، بتحريضٍ من فُقهاء الشيعة الاثنا عشرية، الذين تحالفوا مع البلاط الصفوي ضدّ الفلاسفة والعقلانيين. لكن، ومع الاضطهاد الذي تعرَّضت له المدرسة، لم تمُت تمامًا، فقد جاء بعض الفلاسفة الكبار ممَّن انتموا إليها وأحيوا الدرس الفلسفي مرَّةً أخرى، وعلى رأس هؤلاء الملا هادي السبزواري (ت: 1873م) المُلقَّب بـ«الحاج» وبـ«أسرار»، وكانت علاقته طيِّبة بالفُقهاء و«الأُصوليين»، كصاحب الجواهر، والمرتضى الأنصاري[20].

والحاصل أنَّ المدرسة الفلسفية السائدة في عهد الصفويين تمثَّلت في الحكمة المتعالية، وإذا كانت هذه المدرسة اتّخذت، على يد زعيمها صدر الدين الشيرازي، مسافةً بينها وبين السُّلطة، فإنَّنا سنجدها فاعلةً في قلب السُّلطة بعد عقودٍ من سقوط الدولة الصفوية. أمَّا عن نظرية الإمامة عند صدرا، فهي ذات النظرية الشيعية

التقليدية، فيقول بالنصب وعصمة الأئمَّة، ولم يمشِ على طريقة قُدامى الفلاسفة، كالفارابي وابن سينا.

ثالثًا: الطباطبائي وميراث الملا صدرا.. الشورى والعرفان

يمكن القول إنَّ الدرس الفلسفي الإيراني ضعُفَ ومرَّ بمرحلة أفول حتى ظهور محمد حسين الطباطبائي (ت:1981م/1402هج)، صاحب تفسير الميزان، الذي أعاد الدرس الفلسفي إلى مركزيته مرَّةً أخرى، وسط حوزةٍ تقليديةٍ تُمركِز الدرس الفقهي، وتُعلي من شأن الفقيه، بل يكاد الفقهاء يحتكرون منصب المرجعية العليا في التاريخ الشيعي، مهما بلغ شأو الفيلسوف أو المتكلِّم، وهو ما أثَّر في بقية العلوم.

1. الطباطبائي وإحياء الدرس الفلسفي:

يُعتبر «العلّامة الطباطبائي» أول من اعتنى بالدرس الفلسفي، وأعاد إحياءه في إيران المعاصرة. وعندما أراد الطباطبائي أن يشرح أسفار الملا صدرا في دروسه الحوزوية، وُوجِه باعتراضات كبيرة من داخل الحوزة، لا سيّما من المرجع الديني آية الله البروجردي، المرجع الشيعي الأعلى وقتئذٍ. فقد كانت الحوزة الرسمية تقليدية ومحافظة، ومن ثمَّ كانت تنبُذ الدرس الفلسفي، وتشتبك معه، وتناصبه العداء. وهذا الموقف السلفيّ لا يزال هو السائد في حوزة النجف، وتيّارات في حوزة قُم، حيث نجِد في قُم جماعة الشيرازية، والحجتية، والتيّار التفكيكي، وكل روافد التيّار الأخباري، وبعض «الأُصوليين» يمجُّون الدرس الفلسفي ويناصبونه العداء، على اختلاف ما بينهم في التفاصيل. وعلى كلٍّ، لم تكُن البيئة الحوزوية ملائمة وقتئذٍ لولوج الدرس الفلسفي داخل الحوزة، وإيجاد موضع قدمٍ له، فضلًا عن بسْط هيمنته على المشهد العلمي داخل المدارس العلمية، وذلك لعدَّة أسباب متعلِّقة بمركزية الفقه باعتباره علمًا مؤهِّلًا للاجتهاد، ومن ثمَّ الأعلمية والتصدُّر، وبالتالي إيجاد موقعٍ مهمّ في الأوساط العلمية والتقليدية، وما يترتب على ذلك من تحصيل الأخماس، وترسيخ المكانة الاجتماعية وسط عموم المقلِّدين، ونحو ذلك.

تلك المركزية الفقهية أثَّرت، ليس فقط في نمو الدرس الفلسفي وازدهاره، بل أثَّرت في نمو عددٍ آخر من العلوم، كعلم التفسير والدراسات القرآنية، فنجِد أكبر موسوعة في علوم القرآن صنَّفها أحد المعاصرين، وهو العلامة محمد هادي معرفة، في حين أنَّ الدراسات القرآنية مثلًا عند أهل السُّنَّة قديمة قِدَم التأسيسات الأولى لمنظومة العلوم. لذا، وجدنا آية الله الخوئي لم يُكمِل تفسيره، والسبب الرئيسي لعدم إكماله التفسير أنَّه فضَّل تأليف الرسالة العملية وكتابة الفقه على كتابة التفسير، لأنَّ الفقيه وحده هو صاحب المركزية في العالم الشيعي اليوم، سواء في إيران، التي تتبنى «الإسلام الفقاهي»، بعبارة حُجَّة الإسلام أكبر هاشمي رفسنجاني عندما سأله الشبستري عن الفارق بينهم وبين المخالفين، أو حتى في النجف، التي هي قلعة التقليد الشيعي قديمًا وحديثًا. وقد انتقد مرتضى مطهَّري ابتعاد الحوزويين

عن القرآن الكريم لصالح الفقه، في أكثر من موضع له، قائلًا: «إنَّ القرآن مهجورٌ في أوساطنا، ومن المتوقَّع أن يتمسَّك به الجيل الجديد. وسأثبتُ لكم الآن كيف أنَّ القرآن مهجورٌ في أوساطنا. إذا كان أحدنا عالِمًا بالقرآن، بمعنى أنَّه أطال فيه النظر والتدبُّر، وكان على عِلْمٍ كامل بتفسيره، كم سيحظى منَّا بالاحترام؟[21]». لذا، فإنَّ الطباطبائي لم يصِل إلى منصب المرجع، لأنَّ منصب المرجع مُنحصِر في الفقه والفُقهاء، وبسبب عدم تصدُّره الفقهي، وإيثاره الفلسفة والتفسير. وهذه المعضلة، حاول كثير من علماء الشيعة معالجتها، وحاولوا إضافة شروط إلى من يُوصَف بـ«الأعلمية»، كفهم الواقع، والعلم بالتفسير والفلسفة، وهكذا. ويبدو أنَّ الطباطبائي نفسه أدرك تلك المشكلة، وتحسَّر على مكانته المهجورة بين الجماعة الشيعية، فذكَّرهم أنَّ «الفقيه» كان يُطلَق في صدر الإسلام على «الشخص المتمكِّن من العلوم الدينية جميعًا، أي في الأُصول والفروع والأخلاق، وليس في الفروع وحدها، كما هي عليه دلالة المُصطلَح راهِنًا[22]». وعلى كُلٍّ، فإنَّ الطباطبائي أعاد الدرس الفلسفي إلى قُم لتصير معقلًا للمدرسة الفلسفية العرفانية من بعده، حيث أسَّس حلقة فلسفية على غرار حلقة «جماعة فيّينا»، التي أصدرت ما يُعرَف بـ«الوضعية المنطقية»، وعلى غرار مدرسة فرانكفورت. وتكوَّنت تلك الحلقة من كبار تلامذته، أمثال: مرتضى مطهَّري، وحسين منتظري، ومحمد بهشتي، وموسى الصدر، وإبراهيم أميني، وجعفر سبحاني، ومهدي حائري وجواد آملي. وفي طهران، كانت تُقام جلسات أسبوعية بحضور هنري كوربان، ومشاركة الطباطبائي، حتى وصفه شريعتي بقوله: «كان الطباطبائي يجلس هناك، كأنّه سقراط والطُلّاب من حوله[23]». ويمكن القول إنَّ الطباطبائي ومدرسته لم يأتوا بجديدٍ فلسفيًّا، بقدر ما عملوا على تدريس وإحياء مدرسة الحكمة المتعالية، لكن حدَّثت إضافات واشتباكات الفلسفية في ما بعد على أيدي تلامذته، لا سيّما بعد صعود جماعات فلسفية وتيّارات سياسية تعتمد على أُسُس مغايرة لمدرسة الحكمة المتعالية، كالتيّار التفكيكي القوي اليوم في إيران. وإذا كان الطباطبائي يقول إنَّ الملا صدرا أحيا الفلسفة بعد اندثار، فإنَّ نفس القول يصدُق على الطباطبائي، الذي أحيا مدرسة الملا بعد اندثار. فعندما أراد الطباطبائي أن يُدرِّس «الأسفار الأربعة» للصدر الشيرازي في قُم، اعترض آية الله البروجردي، ونصحه بالتراجع عن هذا القرار، أو تدريسها سرًّا إن أصرَّ، «أمَّا الدرس العلني للأسفار في الحوزة الرسمية، فإنَّه غير صالح بأيّ شكلٍ من الأشكال، ولا بُدّ أن يُترَك[24]».

2. نظرية الحُكم وشكل الدولة:

اشتُهِر عن الطباطبائي قوله بالشورى، ففي نظره يجب أن يكون حُكم الحاكم في عصر الغيبة «قائمًا على الشورى[25]». أي إنَّه يسير في نفس خط فُقهاء الدستورية، لكن يبدو أنَّه نأى بنفسه عن السياسة، مثل مؤسِّس المدرسة الملا صدرا، واكتفى برفض ولاية الفقيه المُطلَقة، واستحضار الشورى. لكن بعض تلامذته صاروا في ما بعد من أعمدة الخط الولائي

اليوم في إيران، مثل جوادي آملي، والمصباح اليزدي، وغيرهما، ممَّن يرسِّخون لولاية الفقيه المُطلَقة، التي طبَّقها الخميني عمليًّا منذ عام 1988م. وعندما أراد الطباطبائي أن يبيِّن شكل الدولة في الإسلام، ميَّزها عن الأنظمة الديمقراطية الحديثة، وجعل الإسلام بعيدًا كل البُعد عن «الديمقراطية». فالإسلام في نظر الطباطبائي، ميَّز بين نوعين من الأحكام أو القوانين: الثابتة والمتغيِّرة، وكذلك المجتمعات الديمقراطية تحتوي على ما هو ثابت، مثل الدساتير التي لا تتغيَّر بسهولة، وما هو متغيِّر مثل القوانين ذات الطابع المتجدِّد، التي تُشرَّع من مجلسَي الأُمّة والشيوخ، أو هيئات أخرى في الدولة، بشرط أن تكون بمثابة التفسير للقانون الدستوري، وألّا تخرُج في مضمونها عن ثوابت الدستور. لكنّه فرَّق بين المنهج الإسلامي في الحُكم وبين المنهج الديمقراطي، فالثوابت الإسلامية هي من الله، «إن الحُكم إلّا لله»، بخلاف الثوابت في المجتمع الديمقراطي، التي مصدرها بشريٌّ. أمَّا القوانين المتغيِّرة، فهي في الأنظمة الحديثة خاضعة للتغيُّر، حسب رأي الأكثرية (النصف+1)، أمَّا الأحكام المتغيِّرة في الإسلام فهي ثمرة الشورى، لكنَّها تخضع للحق والمصالح الواقعية، وليس لرأي الأكثرية[26].

فالطباطبائي إذًا يرى أنَّ الثوابت الإسلامية والمعلوم من الدين بالضرورة لا مجال معها للديمقراطية أو الشورى، لكن المتغيِّرات والظنِّيات فهي محل الشورى والديمقراطية، لكنَّه حتى يختلف في هذه النقطة عن الديمقراطية الغربية، فهو يرفض تطابُق المنهج الإسلامي في الحُكم مع الديمقراطية، لا سيّما في مبدأ الأكثرية (النصف1+)، لكنَّه يسكُت إزاء الجماعة القائمة على الشورى، أي من الذين يحقّ لهم تجاوُز رأي الأكثرية، ويقرِّرون ما يرونه.

لكنَّه في موضع آخر يجعل الولاية متعلِّقة بالفقيه، وليس بالعدول من الناس، فضلًا عن جماعة المسلمين، ثمّ يحاول أن يُوجِد حلًّا لإشكال الولاية عند تعدُّد الفقهاء، فهل يكون تصرُّف كل واحد منهم نافذًا حسب اقتداره، أم إنَّ الولاية تنصرِف للأعلم من بينهم؟ لكنَّه يتوقَّف عن الجواب، ويقول إنَّ الإجابة الحاسمة مرتبطة بالبحث الفقهي، وكأنَّ المسألة اجتهادية عنده قابلة للأخذ والردّ والنقاش، ويكتفي بوضع معيارٍ عام للشخص، الذي تتعيَّن فيه الولاية، فينبغي أن يكون «الأكثر تقوى من بين الآخرين، بالإضافة إلى تقدُّمه على غيره في الكفاءة وحسن التدبير، وفي الوعي والاطّلاع[27]». إشكال آخر يطرحه، متعلِّقٌ بشكل الحُكم في وقت تتعدَّد فيه المجتمعات الإسلامية اليوم، وامتدادها على رقعة جغرافية واسعة تتنوَّع فيها اللغات والأُصول القومية والوطنية، فهل يعيش كل مجتمع في إطار ولايته وحكومته الخاصَّة؟ أم توجد مجموعات من الحكومات الوطنية المحلِّية، التي تأتلِف في إطار حكومة مركزية واحدة؟ ويجيب عن ذلك بأنَّها مسألة ظنِّية، لم يحسمها الإسلام، فالإسلام بما هو «شريعة ثابتة لم يتبنَّ إطارًا معيَّنًا للحُكم يدعو إليه ويعتبره الواجب دون غيره، لأنَّ الشريعة تتضمَّن العناصر الدينية الثابتة، لذلك فهي تنظُر لقضية إطار الحُكم وشكله باعتبارها قضية متغيِّرة، قابلة للتبدُّل في المجتمعات، حسب التطوُّر الحضاري[28]».

لكن الغريب أنَّ الطباطبائي لا يضع أُسًّا للرقابة وللمحاسبية السياسية على الحكومة، «المكابح الخارجية»، واكتفى بالمكابح الداخلية المتمثِّلة في التقوى والعدالة، والسير على سيرة الرسول الأكرم وسُنّته، واستشهد بآيات قرآنية مثل قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[29]﴾. أمّا عن قوله بالشورى، فهو يقصد أنَّ كل ما يصدُر من «أحكام عن مركز الولاية والحكومة، لا تكون إلّا عن طريق الشورى، وبشرط رعاية مصالح الإسلام والمسلمين». لكنَّه لم يجعل الشورى مُلزِمة للحكومة والفقيه، ولم يبيِّن طرائقها ومواردها، وماهية الجماعة، التي تجري استشارتها، ولم يتحدَّث عن وجود هيئات شورية، كالبرلمان والمؤسَّسات الدستورية المُنتخَبة ونحو ذلك، ما يترك الباب واسعًا أمام هندسة العملية السياسية، وتجاوُز حتى مفاهيم الشورى الإسلامية، لا سيّما مع الاكتفاء بالمكابح الداخلية، دون تأسيس أجهزة رقابية وشورية دستورية.

رابعًا: في عهد الثورة.. ولاية الفقيه المطلقة

نأى الفلاسفة الإيرانيون بأنفسهم عن السياسة في التاريخ الشيعي، إلّا في فترات قليلة وأوقات ضرورية، فابتعد صدر الدين الشيرازي عن السياسة، واتّخذ مسافةً بينه وبين بلاط الحُكم، لأنَّه آمن بالتقليدية الشيعية المتعلِّقة بالانتظار، وارتأى ظُلم أُمراء الصفويين، فما أمكنه أن يضيف إلى شرعيتهم، وابتعد كذلك السبزواري عن السياسة. وفي العصر الحديث، ابتعد الطباطبائي عن السياسة، فلم تستغرقه ولم تُثنِه عن عمله الفلسفي، ولم يُمعِن في الفلسفة السياسية إلى الحدِّ، الذي يمكن وصفه بها. لكن التحوُّل الكبير حدث مع الخميني، الذي استفاد كثيرًا من الدرس الفلسفي العرفاني في تنظيره السياسيّ، فبرَّر رؤيته السياسية، ونظرية ولاية الفقيه، بالفلسفة والكلام، بعد أن كانت نظرية هامشية في المذهب، لكن لا يمكن اعتباره فيلسوفًا على غرار الطباطبائي، فضلًا عن الحُكماء القدامى أمثال ميرد داماد والملا صدرا.

1. فلسفة الخميني بين العرفان والحكمة المتعالية:

لم يكُن الخميني مُحبًّا للمدرسة المشَّائية، لكنّه مال أكثر إلى المدرسة الإشراقية، فيقول مهدي الحائري عن فلسفته، إنَّه «لم يُعِرْ أهمِّية كبيرة للفلسفة المشَّائية، لكنّه كان يحب الحكمة الإشراقية للسهروردي. وكان يفسِّر الحكمة المتعالية بذوقٍ عرفاني. كان الإمام يهتمّ بالطبيعيات القديمة وعلم الفلك الحديث، ويعتبر الفلكيات القديمة أباطيل[30]». وعلى الرغم من أنَّه لم يُعجَب بالمشرب المشَّائي، فإنه كان يُجِلّ ابن سينا كثيرًا، وينقل الآشتياني عنه أنَّه صرَّح بورود «إشكالات كثيرة على الشيخ [ابن سينا] في الحكمة الإلهية، ومع ذلك، فإنَّه بين أرباب النظر والتحقيق لم يكُن له كفوًا أحد[31]». وقد أنكر الخميني نسبة مدرسة الحكمة المتعالية إلى الفلسفة اليونانية، ووصفه بالجهل الخالص، لكنّه في نفس الوقت لم ينكِر أهمِّية الفلسفة اليونانية، باعتبارها «ذات أهمِّية كُبرى في ذاتها[32]». وكأنّ الخميني

هُنا يعتبر المدرسة المشَّـــائية يونانية المنشأ والفكر، وقد اشـــتُهِرت أو تردَّدت كثيرًا هذه المقولة بين الفلاسفة المعاصرين، مثل طه عبد الرحمن، الذي يجعل الفلسفة الإسلامية يونانية الأصل، فيقول إنَّ إشكالات الفلســـفة الإسلامية «نقلت من اللغة اليونانية ســـوء نقْل[33]». غير أنَّ فيلسوفًا أزهريًّا معاصرًا للخميني، وهو الشيخ عبد الحليم محمود (1910–1978م) ينفي هذا، وينقـــده نقدًا لاذعًا، ذلك أنَّ «المشكلات الفلســـفية أُثيرت في البيئة الإسلامية قبل عصر الترجمة[34]». لكن يمكن النظر إلى مقولة الخميني بنفي يونانية فلسفة الحكمة المتعالية دون يونانية المشَّـــائية، من زاوية أخرى، ذلك أنَّه رُبَّما أراد أن يقرِّر أصالة الدرس الفلســـفي الشيعي، دون ســـواه من فلسفة مشَّائية إســـماعيلية وسُنِّية، وغيرها، تأثَّرت في رأيه بالمدرســـة اليونانية، أو اســـتقت منها أفكارها ومسائلها ومشكلاتها. وعلى كلٍّ، فإنَّ الفلسفة، لو سلَّمنا بجذورها اليونانية، فإنَّها نُوقِشت في بيئة إسلامية بين فلاسفة مسلمين، وانعكس هذا على مباحث الإلهيات، التي اشتبك معها الفلاسفة.

انتقـل الخمينـي ومدرسـته، مـن عرفـان حافـظ الشـيرازي المُهـادِن والمُتعايِـش إلـى نموذجه الخـاص فـي العرفـان، أو مـا يُمكـن أن نسـمِّيه بالعرفـان القزلباشـي، الـذي يذكِّرنـا بالنمـوذج القزلباشـي فـي عهـد الصفوييـن، ذلـك العرفـان الثـوري الطاغـي، الـذي اعتقـده الخميني، قِيلَ إنَّه هو المحرِّك الأول للثورة، وليست النظرية النصّية، التي حملها. هذه التوليفة المعقَّدة والعصية على الفهم، التفت إليها فرهاد دفتري في الحالة الصفوية: «كيـف جـرى إدمـاج فكـر ابـن عربـي التصوُّفـي المناقـض جزئيًّـا للأفكار الفلسـفية واللاهوتيـة، مـع مقـولات الأرسـطوطاليين مثـل ابـن سـينا، أو التنويرييـن مثـل شـهاب الديـن السـهروردي. لقـد حـاول دامـاد وملا صـدرا التوليـف بيـن هـذه التناقضـات، فـي محاولة لتطويرها، وعلى الرغم من أنَّ محاولتهما كانت ناجحة، فإنها واجهت عديدًا من الخلافات مع الفقهاء». فمن هُنا نعرف كيف ورِثَ الخميني تلك التوليفة، فهي سمْتٌ لمدرسة الحكمة المتعالية، والأمر اللافت أنَّ الخميني، وإن اشتغل بالفلسفة، لكنَّه كان في نفس الوقت فقيهًا تقليديًّا يؤمن بالإرث الشيعي الفقهي، ولم يتمرَّد عليه بطبيعة الفلاسفة، وبالتالي توجد توليفة أخرى، وهي الجمع بين الفقه والفلسفة والعرفان، وتلك أشبه بالأمور المتناقضة، التي لا يمكن الجمع بينها.

وقـد حـاول بعـض الباحثيـن تضخيـم الـدور الفلسـفي للخمينـي، حتـى قـال حميـد بارسـيا: «إنَّـه الرائـد الأول علـى طريـق إحيـاء العلـوم العقليـة، أو مـا يُسـمَّى بمدرسـة الحكمـة المتعاليـة، وهـي مزيـج بيـن الفلسـفة والعرفـان، فعندمـا شـعرَ بحاجـة الحـوزة العلميـة الماسَّـة إلـى هـذه العلـوم، وعلـى الرغـم مـن إحجـام وإدبـار المجتمـع عنهـا، وإهمالـه لهـا علـى مـدى عقـود مـن الزمـن، تبنَّـى الخمينـي تدريـس العلـوم الفلسـفية والعرفانيـة فـي حـوزة قُـم، ومـن ثـمَّ تبِعـه الطباطبائـي الفيلسـوف، الـذي حافـظ علـى ديمومـة الحركـة، التـي شـرَعَ بهـا الخمينـي هنـاك[35]». ولـن ندخـل فـي جـدل مـع بارسـيا حـول مكانـة الخمينـي والطباطبائـي، فـي ذلـك الوقـت، وأيُّهمـا أسـبق، وأيُّهمـا أرسـخ مكانـةً وأمتـن فلسـفة، لأنَّ مـن شـأن هـذا النـوع مـن الأسـئلة أن يُواجَـه بحجـاجٍ مؤدلـجَ. لكـن المؤكَّـد أنّ كل الجهـود

الفلسفية في إيران المعاصرة، المتعلِّقة بالمؤلَّفات والتلاميذ والحلقات، كانت بإشراف الطباطبائي، لا الخميني، وحتى عندما رجع الخميني بعد الثورة إلى قُم، لم يتفرَّغ للتصنيف الفلسفي، مقارنةً بجهود الطباطبائي، بل إنَّ الطباطبائي اشتُهر بأنَّه مؤسِّس «حلقة قُم الفلسفية». فإذا كانت أصفهان وخراسان وغيرهما من مُدُن اشتهرت بالدرس الفلسفي قديمًا، فإنَّ قُم لم تشتهر بذلك، إلّا على يد الطباطبائي[36].

والحاصل، أنَّه لا يُمكن القول إنَّ الخميني شكَّل تيّارًا فلسفيًّا مغايرًا لتيّار الطباطبائي، فهو نفس التيّار لا شكّ، فكلاهما ينتمي لمدرسة «الحكمة المتعالية»، تلك المدرسة العرفانية، التي أعادت فهْم التشيُّع، وأعادت تشكيله المعرفي بطريقة عصية على الفهم. نعم، إنَّها عصية على الفهم، ففي حين أنَّ المدرسة «أُصولية» في الجانب الفقهي، وتعتمد القواعد التقليدية في الدرس الحوزوي، لكنَّها في نفس الوقت مدرسة عرفانية بالدرجة الأولى. كيف جرى تجاوُز الاحتراب التاريخي والتراثي بين الفُقهاء والصوفية؟! بل كيف جرى تحويل الفُقهاء إلى عرفانيين؟! هذا سؤال يدعو للتأمُّل الشديد. ففي السياقات التاريخية، لم تخلُ العلاقة بين الفُقهاء والصوفية من تعكُّر أجواء تارةً، واشتباكٍ علمي تارةً أخرى[37]. وكان الخميني مؤمنًا بابن عربي، لذا وجدنا ذلك الانصهار العرفاني الفلسفي الفقهي، الذي ضمِنَ المرونة الكبيرة في تجاوُز بعض مناطات التقليد الفقهي، لكن عبر حصْرها في الولي الفقيه، فالفقيه العادي ليس له أن يُعقْلِن الإسلام أو يتوسَّع في المصالح المُرسَلة -والمتوهَّمة- بل هذه داخلة في دوائر عمل الولي الفقيه حصرًا، ولذا أيضًا وجدنا أنَّ أدلَّة الولاية المُطلَقة فلسفية وعقلانية بدرجة كبيرة.

2. ولاية الفقيه والفلسفة السياسية:

إذا كان الطباطبائي يتفلسف لإثبات ولاية الفقيه، أو الفُقهاء في عصر الغيبة مع شرط الشورى، فإنَّ الخميني يعتبر ولاية الفقيه بدَهية، لا تحتاج إلى برهان، لكُلِّ من عرفَ الإسلام أحكامًا وعقائد، لكنّه لم يضع شرط الشورى. ويقنع الخميني الجماعة الشيعية بضرورة تأسيس حكومة، حتى في فترة غياب المعصوم، لأنَّه «قد ثبُت بضرورة الشرع والعقل أنَّ ما كان ضروريًّا أيام الرسول (ص) وفي عهد الإمام أمير المؤمنين علي (ع) من وجود الحكومة، لا يزال ضروريًّا إلى يومنا هذا[38]». وهو يرفض رأي الأكثرية، فالحكومة الإسلامية تنصاع للقرآن والسُّنَّة، وليس لرأي الأكثرية[39]. ثمّ اشترط للحاكم شرطين غير ما هو معروف من الشروط العامَّة، كالعقل والبلوغ وحُسن التدبير، هُما: العدالة، والعِلْم بالقانون الإسلامي. ومن ثَمَّ إذا كان الفُقهاء هم أعلم الناس بالقانون الإسلامي، فإنَّ الحُكّام الحقيقيين هم الفُقهاء، ويكون السلاطين مجرَّد عُمَال لهم[40]. ومن ثمَّ فإنَّه في زمن الغيبة تكون الولاية للفقيه، والحكومةُ خالصة له، والولاية المُرادة هي حكومة الناس وإدارة الدولة، وتنفيذ أحكام الشرع، وسياسة البلاد. وهو يجعل الفقيه قيِّمًا على الناس، مثل القيِّم على الصغار والصبية، وولايته شاملة على الجميع، فهي ولاية شاملة، غير محدودة[41]. ولم ينسَ الخميني

أن يضع فلسفته العرفانية، فيجعل الأئمة المعصومين في درجة أعلى من الملائكة والأنبياء والمرسلين، بقوله: «وإنَّ من ضروريات مذهبنا، أنَّ لأئمّتنا مقامًا لا يبلغه مَلَك مقرَّب ولا نبي مُرسَل»، بل ويقرِّر أنَّ الرسول والأئمَّة المعصومين كانوا أنوارًا قبل هذا العالم، فجعلهم الله بعرشه محدقين[42].

3. مطهَّري وفلسفة الشك:

يُعَدُّ مرتضى مطهَّري (ت: 1979م= 1399هـ)، من تلامذة الطباطبائي والخميني، وقد جمَعَ مطهَّري بين الحوزة والجامعة، وهو من أهمِّ فلاسفة الشيعة والحوزة في القرن العشرين، بل من أهمِّهم في تاريخ الجماعة الشيعية. وحاول مطهَّري ترسيخ فلسفة «الشك» في الحوزة الدينية، التي عادة ما تتعامل، أي الحوزة، مع النصوص الدينية والظواهر المذهبية باعتبارها مقدَّسة معصومة لا يجوز النيل منها أو التعرُّض لها، فالشك والتشكيك عند مطهَّري يساعدان في إشراق الحقيقة أكثر فأكثر، فالشك مقدِّمة اليقين، والتشكيك سُلَّم البحث والتنقيب، وفي سياق تأصيله لمسألة الشك نجده يستدِلُّ بكلام الحُجَّة الغزالي في «ميزان العمل»: «ولو لم يكُن في مجاري هذه الكلمات إلّا ما يُشكِّك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب فناهيك به نفعًا، إذ الشكوك هي الموصِّلة إلى الحق[43]».

وفي هذا الاستدلال خبيئة، فعلى الرغم من انتقاد مطهَّري للأشعرية، فإنَّه يوجد ما يجمعه بالغزالي وأئمة الأشعرية، وذلك الجامع هو: العرفان والتصوُّف، والغزالي أيضًا ليس من الأخباريين، بل من كبار «الأُصوليين» ومُنظِّريهم، ولمطهَّري موقف سيئ من الأخباريين الشيعة[44]. بيْد أنَّ الخلافات بينهما أكبر بكثير، فلمطهَّري موقف سلبي من الأشعرية والمعتزلة، علاوةً على الخلاف المذهبي بين الرجلين، فلم يكُن إذًا استدلال مطهَّري بنظرية الغزالي في الشك سوى محاولة في رد نظريته إلى بيئة إسلامية، حتى لا يُقال إنَّه تأثَّر بالشك الديكارتي. وإذا كان مطهَّري يسعى في مواضع كثيرة لتعزيز فلسفة الشك، فهو يُقرِّر أولًا أنَّه لا ينزعج من «طرح التشكيكات، وإلقاء الشُّبهات في ما يتعلَّق بالقضايا الإسلامية»، لكن الشك عنده ليس للوصول إلى الحقيقة، بل لإثبات الحقيقة، «إنّ ميزة الحقيقة هي أنَّ الشك والتشكيك يساعدان في إشراقها أكثر فأكثر، فالشك مقدِّمة اليقين، والتشكيك سُلَّم البحث والتنقيب[45]».

وبعد أن تحدَّث مطهَّري عن الفلسفة والشك، وأنَّ التشكيك من حقِّ الباحثين والناظرين حتى يصلوا إلى مرتبة اليقين، لكنه عمليًّا لم يخرُج في أيّ مسألة عن مشهور المذهب الشيعي في الفروع والأُصول، بل هاجم وانتقد علي شريعتي كثيرًا بسبب الخلاف في الرأي، وحذَّر الخميني منه قبل الثورة، باعتباره مارِقًا عن المذهب والتقليد الشيعي. ويرفض مطهَّري الوحدة الإسلامية، التي تتحقَّق على حساب أيّ جزئية من جزئيات مذهب الاثنا عشرية. وفي السياسة، والدين كذلك، يرفض الأكثرية بوصفها معيارًا للحق، ويستدِلُّ بخوف كثير من الفقهاء من الجهر بأقوالهم خشية العامَّة والجماهير، ومن ثمَّ يصِل إلى نفس ما وصل إليه شيخه الطباطبائي في

ما يتعلَّق بهامشية رأي الأكثرية، وأنَّه لا يمكن اعتبار الأغلبية في الجانب السياسي، وبالتالي، فهو يرى أيضًا ولاية الفقيه، وإن لم يصرِّح بالولاية المُطلَقة، التي طُبِّقت بعد وفاته، لكن فلسفة الشك لم تُخرِجه عن التقليد الشيعي، ولم تحمله على مراجعة الأفكار الفلسفية التقليدية، خصوصًا ما يتعلَّق منها بمسألتي الإمامة والتدبير.

خامسًا: التفلسُف المضادّ.. النموذج البديل والإصلاح السياسي

لم ينحصر الدرس الفلسفي الإيراني اليوم في مدرسة الحكمة المتعالية، بل توجد مدارس أخرى بعضها قريب من الليبراليين ممَّن اقتربوا من الدرس الفلسفي الغربي المعاصر، مثل عبد الكريم سروش، وبعضهم قريب من «الإصلاحيين». ولا يزال داخل الجامعات والحوزات الإيرانية، لكنَّ معظمهم فضَّلوا الابتعاد عن السياسة والتركيز على الدرس الفلسفي، ومحاولة البناء والإصلاح من خلال المناهج الفلسفية. ومن أسباب قوَّة هذا التيّار الحداثي أنَّه خرج من رحم التقليد، ومن داخل الحوزة، بل إن معظم رموزه من روّاد التقليد الحركي، وشاركوا في الثورة منذ بداياتها، ولهم باعٌ طويل في معرفة التراث، والتمرُّس فيه. وهذه الميزة في التيّار الحداثي الإيراني سبَّبت قلقًا للنُّخبة الدينية الحاكمة، لأنَّها تدرك هذه النقطة جيِّدًا، ومن ثَمّ مارست بعض الوصاية على هذا التيّار، وحاولت التضييق عليه، ما أوجد ردّ فعلٍ من هذا التيّار يطلب من السُّلطة السياسية عدم التدخُّل في شؤون الثقافة وتشكُّل المعرفة. وبعبارة سروش، فإنَّ هذه النظرية (الولاية على الشؤون الثقافية) من الحكومة «تنتهي بالتنظير لأعمال العُنف، وتجويز استعمال آلات القهر، فلا ينبغي للحكومة أن تتولَّى صناعة الثقافة الاجتماعية، لأنَّ وضْع الثقافة بعُهدة الحكومة يعني التضحية بالديمقراطية على مسلخ القُدرة، فجعل مسؤولية تثقيف الناس بيدِ الحكومة يعني شنْق الثقافة والقضاء عليها[46]». ورُبَّما قَصَد سروش بعض تنظيرات فلاسفة النظام، التي تؤسِّس للعُنف، مثل خطاب آية الله مصباح يزدي -أحد أكبر فلاسفة ومنظِّري الحكومة الإسلامية- الذي يرى وجوب استعمال القوَّة للحفاظ على الحكومة الإسلامية، حتى ولو كانت منبوذة من أكثر من نصف الشعب، قائلًا: «الكم ليس معيارًا في الحفاظ على الحكومة، بل المعيار أن يقدِّم عددٌ من أتباع الإمام عليه السلام، أو ولاية الفقيه المشروعة، دعمهم للمحافظة على الحكومة، أحيانًا تكون نسبة هؤلاء 90%، أو 50%، أو 40%. إنَّه -الولي الفقيه- مأمورٌ بالمحافظة على الحكومة الإسلامية، فما دام يوجد مَن يمكن بواسطتهم المحافظة على الحكومة الإسلامية، فإنَّه مُلزَمٌ المحافظة عليها، لذا، فلا اعتبار بالكمِّية». إذًا، فيجب بقاء الحكومة، حتى ولو لم يكُن لها داعمون سوى 10% من الشعب، بأيّ صورة ووسيلة كانت[47]. فالأهداف الإسلامية إذا لم يتيسر تحقيقها إلا عن طريق العنف، عندئذ يُصبح هذا العنف ضرورة. وليس ذلك فحسب، بل يجب القتل خارج نطاق القانون، ودون الرجوع إلى القضاء، ذلك لحماية القيم الإسلامية للدولة[48].

لكن بقيتَ المدارس الفلسفية المُغايِرة لقراءة «الحكومة الإسلامية» تُنظِّر مرَّة لحكومة ديمقراطية، ومرَّةً أخرى للشورى الإسلامية، وأحيانًا بتفعيل الدستور القائم وتعديل بعض مواده بُغية تهذيب سلوك النظام وتشذيب النُّخَب الحاكمة، فالفلسفة إذًا في إيران المعاصرة لم تنفَكّ عن الوضع السياسي العام. والقراءة الفلسفية، التي تروِّجها نُخَب الحُكم في طهران كانت عاملًا من عوامل ثراء الدرس الفلسفي، فهذا الاستفزاز المُتبادَل بين التقليد والإصلاح، بين الحوزويين والحداثيين، بين «المحافظين» و«المعتدلين»، أثَّر إيجابًا في الدرس الفلسفي، من حيث الاتّساع والتضخم، وتفتَّقت عنه موضوعات ومُقاربات جديدة. ونقِف مع فيلسوفَين يمثِّل كل منهما حلقة ونموذجًا لتيّار عريض من خلفه، الأول هو علي شريعتي، الذي خاصم التنوير والحداثة، واشتبك مع الغرب في الخارج، ومع المؤسَّسة الدينية ورجال الدين في الداخل، وانتقدها في محاضراته ومصنَّفاته، وطالب بدولة دستورية شورية، ورفَضَ هيمنة الفُقهاء على الشأن العام. والثاني هو عبد الكريم سروش، وهو أحد أبرز الفلاسفة الحداثيين اليوم في إيران، ومن خلفه تيّار ليبرالي عريض يرى أنَّ الديمقراطية هي الحل للمعضلة الإيرانية، وأنَّ الحداثة واقتفاء أثر الغرب مخرج من المأزق، الذي دخلته طهران سنة 1979م.

1. شريعتي وشكل الدولة:

تُعَدُّ فلسفة شريعتي مهمَّة، لأنَّها خرجت عن التقليد الشيعي، ومركزت الديمقراطية والشورى، وانتبذت سُلطة الفُقهاء ووصايتهم. وشريعتي، وإن كان ثوريًّا، لكنَّ تفكيره السياسي كان أنضج من معاصريه ومُغايِرًا لهم، لأنَّه لم ينطلق من حضْن الحوزة، ولم يرقُب ردّ فعلها إزاء ما يقرِّر، واشتبك مع التقليد الشيعي حتى قُوطِعت حسينيته، وهُوجِم من عددٍ من رجال الدين، أبرزهم مرتضى مطهَّري، الذي سعى لدى الخميني بعد موت شريعتي إلى منْع كتبه من النشر والتداول، ووصفه في خطاب له بـ«الشخص الملعون». وسبب الخلاف الرئيسي بين شريعتي من جانب، والخميني ورفاقه من جانب آخر، هو مسألة الحُكم، وشكل الدولة، فشريعتي يُقرِّر أنَّ الحُكم في الإسلام مبنيٌّ على «أساس الشورى». وردَّ عليه خصومه، منهم مكارم الشيرازي، الذي قرَّر أنَّ الشورى ليست أصلًا في المذهب الشيعي، وحاول تشويه شريعتي بأنَّه لا يؤمن بمبدأ «العترة»، الذي يقضي بولاية عليٍّ وذرِّيته من بعده، واستدلَّ الشيرازي على أنَّ الشورى ليست من الأُصول الشيعية، وأنَّها هي التي استبعدت عليًّا من حقِّه في الخلافة، فكيف تصير جزءًا من معالم المذهب؟[49]. ومن أبرز التُّهم، التي اتّهموا بها شريعتي، أنَّه «سُنِّي متخفٍّ»، لأنَّه يقرأ الخلاف الأول بين الصحابة قراءة مختلفة عن عامَّة الجماعة الشيعية، فهو يرى أنَّ عليًّا لو تولَّى الخلافة بعد موت النبي لأسَّس نظامًا ديمقراطيًّا قائمًا على البيعة والشورى[50]. ولم يكُن شريعتي متأثِّرا بالغرب، بل انتقد التنويريين والحداثيين ممَّن يريدون تقليد الغرب في كل شيء، لذا فإنَّ قوله بالديمقراطية والشورى إنَّما هو محاولة للإصلاح من الداخل، وليس لأنَّه متأثِّر

بالغرب. بيْد أنَّ خلاف رجال الدين مع شـريعتي إنَّما كان بسـبب قسـوته على المؤسَّسة الدينية، ومحاولة إصلاحها، ومن ثمَّ ردَّ الفقهاء عليه باعتباره مارِقًا، أو سُـنِّيًّا، أو حداثيًّا، أو «شخصًا ملعونًا»، كما وصفه مطهَّري. لم يرفض شريعتي الإمامة الشيعية بصورة مُطلَقة، لكنّه جعلها «مرحلة انتقالية» بعد وفاة الرسـول صلى الله عليه وسلم، حتى ينضج الناس، ويظهر المجتمع المطلوب، الذي لا يحتاج إلى إمام رابع عشـر أو ثالث عشر، «لأنَّ المجتمع نفسه وعلى أسـاس البيعة الديمقراطية والشـورى، التي ينادي بها أهل السُّنَّة وبناءً على الأُسُس الإسلامية الأصيلة، سوف يتقدَّم وينمو، ولكن ليس بعد الرسول مباشرةً، وإنَّما بعد فترة الإمامة، يعني فترة الاستقلال والرُّشـد السياسي للمجتمع الإسلامي[51]». لكن طرحه بخصوص الشورى والديمقراطية مضادّ لقراءة الحوزة التقليدية، لأنَّها انتظارية، ومعارض كذلك للخميني ورفاقه حينئذٍ، لأنَّهم كانوا يؤمنون بولاية الفقيه، لا بالشورى والديمقراطية.

2. سروش والفلسفة السياسية:

لم يُكثِر عبد الكريم سـروش من التنظير السياسـي، فقد اشـتبك مع الحوزة والمؤسَّسة الدينية ثيولوجيًّا وفلسـفيًّا، وكأنَّه أراد أن يُحدِث تغييرات سياسـية بطريقٍ غير مباشر[52]، فالأرضية التي يسـتند إليها الولائيون هي أرضٌ فلسفية وعرفانية وكلامية، فكأنَّ سروش ارتـأى أنَّ هدْم تلك الأرضية والاشـتباك معها كفيلٌ بإحداث تغيير سياسـي أو سـلوكي تدريجي. وهو يُصرِّح بذلك، فيقول في موضع إنَّ آراء الخميني الفلسفية العرفانية هي التي شكَّلت نظريته السياسـية: «آراء الإمام الراحل العرفانية في باب الولاية رسـمت الإطار العام والمضمون لرأيه في باب ولاية الفقيه[53]».

لكـن فـي نفـس الوقـت كانـت لـه شـذرات فـي الفلسـفة السياسـية أيضًـا، باعتبـار الواقـع السياسـي وإكراهاتـه فـي إيـران، فقـد جعَـلَ الحكومـة تمظهـرٌ للشـعب والمجتمـع، فالحكومـة الدينيـة تتناسـب مـع المجتمـع الدينـي، والحكومـة الاسـتبدادية تتناسـب مـع الشـعب الجاهـل والظالـم والمتخلِّـف، وغيـر الصناعـي والمُغلَـق[54]. وبالنسـبة لمجلـس الخبـراء، فيـرى سـروش أنَّـه إذا أراد عـزْل القائـد لطـروء فسْـق أو عـدم صلاحيـة، فلا يمكـن تحقيـق ذلـك إذا كان المجلـس يسـتمِدّ شـرعيته الوجوديـة مـن القائـد نفسـه، لكـن إذا اسـتمَدّ المجلـس حقّـه فـي الوجـود مـن عمـوم النـاس فحينئـذٍ يمكنـه عـزْل القائـد وقـت تشـخيص عـدم صلاحيتـه. وبالتالـي، يلتفـت سـروش إلـى أزمـة عـدم وجـود مؤسَّسـات رقابيـة ومكابـح خارجيـة علـى الحكومـة الإسلاميـة.

ويلتفـت إلـى لمحـة مهمَّـة، وهـي الفقـر التنظيـري، الـذي تواجهـه «الثـورة الإسلاميـة»، فلا تُوجَـد أطروحـة جديـدة مـن الحـوزة فـي مـا يتصِـل بالثـورة الإسلامية سـوى نظريـة ولاية الفقيـه، وحتـى ولايـة الفقيـه امتزجـت مـع السُّـلطة وأضحـت متعاليـة علـى النقـد، فليـس أحـدٌ يحـاول تمحيصهـا ونقدهـا، لا مـن المثقّفيـن ولا مـن رجـال الديـن[55]. وانتقـد الحكومـة الدينيـة، لأنَّهـا تعتبـر أنّ لائحـة حقـوق الإنسـان تنطلـق فـي موقفهـا مـن عـدم الاهتمـام بالديـن، وتتعامـل مـع إنسـان فـي مجتمـع غيـر دينـي[56].

والحاصل، أنَّ الفلاسفة الإيرانيين، الذين هُم من خارج الحوزة، ومن خارج «الحكومة الإسلامية»، لا ينطلقون من ذات الأرضية الفلسفية، التي ينطلق منها فلاسفة النظام ومنظِّروه، فاهتمامهم بالفلسفة الحديثة وتيّاراتها أكبر وأعمق من الدرس الفلسفي الكلاسيكي ومدرسة الحكمة المتعالية. وأثَّر ذلك في المُخرَج الفلسفي السياسي، فالكلاسيكيون يمركزون الإمامة ثمّ يجتهدون في طُرُق التدبير السياسي من خلالها، بيْد أنَّ الآخرين من خارج الحوزة ينظِّرون للشورى والديمقراطية، على اختلاف مدارسهم ليبرالية أو يسارية، وعلى اختلافٍ في ما بينهم أيضًا.

الخاتمة

كان الدرس الفلسفي الإيراني قبل الثورة الإيرانية جزءًا من الدرس الحوزوي، أو بات كذلك على يد الطباطبائي، ولم يجرِ تسييسه أو توظيفه، بقدر ما أُريدَ له أن يكون عملًا نظريًّا تأمُّليًّا، يتأمَّل في المسائل الميتافيزيقية ومباحث الوجود والعرفان والكلام، ويشتبك مع فلاسفة اليونان تارةً، ومع خصوم الحكمة المتعالية تارةً أخرى. بيْد أنَّ «الثورة الإسلامية» أثَّرت في الحوزة الدينية برُمّتها ومناهجها وطرائق فكرها، ومن ثمَّ أثَّرت في الدرس الفلسفي أيضًا، عندما باتت الفلسفة جزءًا من التجاذب السياسي وتوليد النظريات السياسية. فنُظِّر لولاية الفقيه المُطلَقة مدعومة بقوَّة تنظيرية فلسفية عرفانية كلامية فقهية، وهي التي لم يقُل بها فيلسوفٌ سابق، بدءًا من نصير الدين الطوسي وحتى فلاسفة الحكمة المتعالية. في المقابل، فإنَّ فلسفة مضادَّة نشأت على يد حوزويين سابقين تمرَّدوا على «التقليد» و«التكلُّس» و«فِقدان الاستقلالية» و«التعالي على النقد»، واشتبكوا أولًا مع الحوزة باعتبارها مؤسَّسة أضحت جزءًا من مشاريع النظام السياسي ومُقارباته، أو باعتبارها ممثِّلةً للتقليد وحاضنةً له، وثانيًا مع نظرية ولاية الفقيه ووصايتها المطلقة. وإذا كان هؤلاء رصدوا الفقر الفلسفي والتنظيري في إيران بعد «الثورة الإسلامية» بسبب هيمنة نظرية ولاية الفقيه على المجال السياسي الإيراني، وشرعنتها دستوريًّا بما يجعل الطرح المخالِف عملًا مناهضًا للدستور، فإنَّ تنظيرات هؤلاء تُعَدُّ مُقاربات بديلة تثير أسئلة فلسفية قلِقة، في بيئة يسودها الجمود والتقليد والإكراه.

المراجع والمصادر

(1) التفكيكية المقصودة هُنا هي المدرسة التفكيكية الإيرانية، التي أسَّسها الشيخ المفكِّر رضا حكيمي، وهو أهمّ تلامذة شريعتي، وهي تيّار معرفي نشأ في مشهد، وتبلور ردَّ فعلٍ على التيّار العرفاني، الذي يُدخِل الفلسفة والمنطق وعِلْم الكلام والعرفان في فهْم النصوص، بينما يعمل التيّار التفكيكي على تفكيك العلوم وفصْل بعضها عن بعض، وتخليصها من الدَّخَل والشوائب.

(2) مدرسة الحكمة المتعالية يُقصَد بها المدرسة الفلسفية التي أسسها الملا صدرا.

(3) أبو حامد الغزالي، تهافُت الفلاسفة، تحقيق: د. سليمان دنيا، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة 2017م)، ص75.

(4) المرجع السابق، ص80.

(5) المرجع السابق، ص81.

(6) انظر: الغزالي، مقاصد الفلاسفة، (السعودية – جدة: دار المنهاج، 2023م)، ص17.

(7) الميتافيزيقا هي الأمور المتعلِّقة بالغيبيات، وما وراء الطبيعة.

(8) راجع: د. توفيق الطويل، أُسُس الفلسفة، (القاهرة: دار النهضة العربية 1964م)، ص260.

(9) ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، مع شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق العلامة: سليمان دنيا، (القاهرة: دار المعارف، 2018م)، 2/ 15.

(10) مقام أبو حامد الغزالي عند ملا صدرا، السيِّد كمال الحيدري، حلقة منشورة على يوتيوب بتاريخ: 02 نوفمبر 2022م. https://bit.ly/3TiDy5T

(11) إرفن روزنتال، الفكر السياسي الإسلامي في العصور الوسطى، (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2020م)، ص289.

(12) المرجع السابق، ص335.

(13) جون والبريدج، الله والمنطق في الإسلام، (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2018م)، ص143. وقد عُرِف باسم السهرودري المقتول، تمييزًا له عن صوفيين آخرين مثل: شهاب الدين عمر السهروردي (ت: 632هـ= 1234م)، وأبي النجيب السهروردي (ت: 563هـ= 1167م). راجع: دانكن بلاك ماكدونلد، تطوُّر الدولة والفقه والكلام في الإسلام، (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2018م)، ص235.

(14) المرجع السابق، ص150.

(15) فرهاد دفتري، تاريخ الإسلام الشيعي، (بيروت: دار الساقي 2017م)، ص105.

(16) المرجع السابق، نفس الموضع. وراجع: زابينه شميتكه «تحرير»، المرجع في علم الكلام، ترجمة المرحوم أسامة شفيع، تقديم: حسن الشافعي، (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2018م)، 2/ 761–760.

(17) فرهاد دفتري، تاريخ الإسلام الشيعي، ص115.

(18) القوصي، الفلسفة الإشراقية عند صدر الدين الشيرازي، مجلس حكماء المسلمين، القاهرة، 2020م، ص35–34.

(19) راجع: فرهاد دفتري، تاريخ الإسلام الشيعي، ص116، وفضل الرحمن، الإسلام، ترجمة حسون السراي، تقديم عبد الجبار الرفاعي، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017م)، ص208.

(20) توشيهيكو إيزوتسو، أُصول فلسفة السبزواري، ترجمة بلال لزيق، (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2019م)، ص44، 45.

(21) راجع: نقد الفكر الديني عند الشيخ مرتضى مطهَّري، تقديم د. محمد عمارة، (الولايات المتحدة الأمريكية – فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2011م).

(22) راجع: محمد حسين الطباطبائي، مقالات تأسيسية في الفكر الإسلامي، تعريب: خالد توفيق، (بيروت: مؤسَّسة أُم القرى للتحقيق والنشر، 1415هج)، ص185.

(23) شريعتي، العودة إلى الذات والعودة إلى أيّ ذات، ترجمة حيدر نجف، (بيروت: مؤسَّسة الانتشار العربي، 2020م)، ص126.

(24) راجع: محمد الصياد، العرفانية والانقلاب على مسار الحوزة في قمّ.. سقوط النظرية وصعود الأيديولوجيا، مجلة الدراسات الإيرانية، السنة الثانية، العدد الخامس، ديسمبر2017م.

(25) يحيى محمد، فهْم الدين: الشيعة بين ولاية الفقيه والشورى، د.ت. http://www.fahmaldin.net/index.php?id=300

(26) راجع: محمد حسين الطباطبائي، مقالات تأسيسية في الفكر الإسلامي، ص170 وما بعدها.

(27) المرجع السابق، ص186.

(28) المرجع السابق، نفس الموضع.

(29) سورة الأحزاب، 21.

(30) مركز نصوص معاصرة، محمد فنائي الإشكوري، الفلسفة الإسلامية في إيران المعاصرة، (21 سبتمبر 2017م)، تاريخ الاطلاع: 19 فبراير 2024م، https://bit.ly/3ULbr1z

(31) المرجع السابق.

(32) المرجع السابق.

(33) طه عبد الرحمن، ثغور المرابطة.. مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية، بيروت، منتدى المعارف، 2019م، ص243.

(34) الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام، (القاهرة: دار المعارف، 2021م)، ص179.

(35) حميد بارسيا، الخريطة الفكرية الإيرانية عشية الثورة، (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2012م)، ص398.
(36) راجع: عبد الجبار الرفاعي، تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية، بيروت، دار الهادي، 2005م، ص171.
(37) راجع: جلال الدين السيوطي: قمع المعارض في نصرة ابن الفارض، مجموعة مقامات السيوطي، تحقيق الدروبي، ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة2007م، 2/ –901 928. وللتفصيل راجع: الحر العاملي، رسالة الاثنا عشرية في الرد على الصوفية، (قم– إيران، دار الكتب العلمية د.ت)، ص169، 177، 178.
(38) الخميني، الحكومة الإسلامية، بيروت، دار الولاء، 2011م، ص26.
(39) الحكومة الإسلامية، ص42.
(40) المرجع السابق، ص46.
(41) المرجع السابق، ص51.
(42) المرجع السابق، ص52.
(43) مهدي جهرمي ومحمد باقري «جمع وتصنيف»، نقد الفكر الديني عند الشيخ مرتضى مطهَّري، ص207.
(44) راجع هجوم مطهَّري على الأشاعرة، المرجع السابق، ص132.
(45) نقد الفكر الديني، نقد الفكر الديني، ص207.
(46) سروش، نقد القرءاة الرسمية للدين، ص46.
(47) صادق حقيقت، توزيع السُلطة في الفكر السياسي الشيعي، ترجمة حسين صافي، ط1/ مركز الحضارة بيروت 2014م، ص294.
(48) حدود الديمقراطية الدينية، ص137. وتوزيع السُلطة في الفكر السياسي الشيعي، ص295.
(49) علي شريعتي سيرة سياسية، ص603.
(50) علي شريعتي، العودة إلى الذات، ص336.
(51) شريعتي، تاريخ ومعرفة الأديان، (بيروت، دار الأمير، د.ت)، 2/ 156.
(52) راجع: زابينه شميتكه «تحرير»، المرجع في تاريخ علم الكلام، ترجمة الدكتور أسامة شفيع السيِّد، تقديم العلاّمة حسن الشافعي، (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2018م)، 2/ 1228.
(53) عبد الكريم سروش، أرحب من الأيديولوجيا، (بيروت: مؤسَّسة الانتشار العربي، 2014م)، ص94.
(54) المرجع السابق، ص87.
(55) سروش، التراث والعلمانية، (بيروت: مؤسَّسة الانتشار العربي، 2009م)، ص309.
(56) المرجع السابق، ص145.

إثيوبيا الحبيسة
والتداعيات الإستراتيجية لمساعي الوصول إلى المياه المفتوحة

د. محمـــد الأميـــن بـــن عـــودة

أستاذ محاضر بقسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة غرداية، الجزائر

الملخص:

حاولت إثيوبيا استغلال التطورات الراهنة، وأبرمت في الأول من يناير 2024م مذكرة تفاهم ثنائية مع سُلطات الحكم بإقليم أرض الصومال. وبموجب هذا الاتفاق تحصُل إثيوبيا على فرصة للوصول إلى ميناء بربرة على الساحل الجنوبي لخليج عدن عند مدخل البحر الأحمر، بما يحقق لأديس أبابا امتيازات عسكرية واقتصادية وجيو-سياسية، في مقابل منح هيئات الحكم بأرض الصومال حصّة من أســـهم شـــركة الخطوط الجويـــة الإثيوبية. والأهم من ذلك التزام الاعتراف الرّسمي باستقلال الإقليم عن الصومال والتعامل معه دولةً مستقلةً. وقد أثار هذا التفاهم جدلًا واســـعًا، وطرح عديدًا من التســـاؤلات حول تأثيراته وتداعياته الإســـتراتيجية على منطقة القرن الإفريقي، وعلى مكانة إثيوبيا الإقليمية ومصالح القوى المتنافسة في هذه المنطقة، وهي التساؤلات التي ستحاول هذه الدراسة أن تعالجها.

الكلمات المفتاحية:

إثيوبيا-الدولة الحبيســـة-أرض الصومال - الصومال-البحـــر الأحمر-القرن الإفريقي-ميناء بربرة

Landlocked Ethiopia and the Strategic Implications of Attempting to Reach Open Water

Abstract:
Ethiopia seized an opportunity amidst ongoing developments by striking a bilateral memorandum of understanding with authorities in the Somaliland region on January 1, 2024. This agreement grants Ethiopia access to the port of Berbera, situated on the southern coast of the Gulf of Aden at the entrance to the Red Sea. In return, Somaliland's governing bodies received stakes in Ethiopian Airlines, alongside an official recognition of the region's independence from Somalia and acknowledgment as a sovereign state. This agreement has stirred considerable debate and raised questions about its implications and strategic impact on the Horn of Africa region. This study aims to explore the effects of this understanding on Ethiopia's regional standing, as well as the interests of other influential powers in the area.

Key words:
Ethiopia, landlocked country, Somaliland, Somalia, the Red Sea, Horn of Africa, Berbera port.

المقدِّمـــة

لعدّة اعتبارات ودوافع، كثيرًا ما تركز الكتابات والدراســات السياسية والإستراتيجية على التفاعلات الدائرة بمنطقتَي القرن الإفريقي والبحر الأحمر. ودائمًا ما شــهد هذا الإقليم من القارة الإفريقية، ذات التفاعلات والخصوصيات المتشــابكة، محطّاتٍ وفتراتٍ داميةً من الصراعات الداخلية والبينية على حدٍّ ســواء، إلى جانب ارتقاء القارة ككل، والقرن الإفريقي بشكلٍ خاص، إلى مجــالٍ وفضاءٍ جاذبٍ للتنافس المحموم لمختلف مصالح الدول والقوى الكبرى، التي تبحث عن توســيع مناطق نفوذها وســيطرتها، في ظل ما يشهده العالم من مرحلة لإعادة التشكُّل التي تطبع النظام الدولي الحالي.

الدولـة الحبيسـة، باعتبارهـا ظاهـرة جغرافيـة بالأسـاس، تنتشـر فـي عديـد مـن الـدول الإفريقيـة، وألقـت بظلالهـا علـى مجموعـة مـن التحديـات والالتزامـات المتباينـة، ومثّلـت هاجسًـا فـي كثيـرٍ مـن الحـالات، ومـا الحالـة الإثيوبيـة بمنـأى عـن هـذه الوضعيـة شـبه المتأزِّمـة، التـي كثيـرًا مـا سـعت إلـى الخـروج منهـا وفـرض واقـع جيو-سياسـي جديـد يلائـم «مكانتهـا» الديموغرافيـة والسوسـيو-اقتصادية المتنامية. وقـد شكَّل إبرام مذكـرة التفاهـم بيـن الحكومـة الإثيوبيـة وسُـلطات أرض الصومـال، مطلـع العـام الحالـي، الهادفـة إلـى منـح إثيوبيـا وجـودًا سـياديًّا علـى السـاحل الجنوبـي لخليـج عـدن عنـد مدخـل البحـر الأحمـر، محـورًا للجـدل والنقـاش، وكـذا طـرح تسـاؤلات وإشـكالات قديمـة متجـددة. وعليه فـإن هـذه الدراسـة تنطلـق مـن إشـكالية رئيسـية، هـي: إلـى أي مـدى أسـهم وضـع الدولـة الحبيسـة فـي تبنـي مقاربـات وإسـتراتيجيات متباينـة للوصـول إلـى البحـر الأحمـر؟ ومـا التداعيـات الإسـتراتيجية لمذكـرة التفاهـم بيـن إثيوبيـا وأرض الصومـال؟ وهـي إشـكالية تتفـرّع منهـا مجموعـة مـن التسـاؤلات المهمَّـة الآتيـة: مـا المقصـود بمفهـوم الدولـة الحبيسـة؟ مـا طبيعـة السـياق السياسـي للقـرار الإثيوبـي؟ مـا دوافـع الحكومـة الإثيوبيـة وراء السـعي للوصـول إلـى منفـذ مائـي عنـد مدخـل البحـر الأحمـر؟ كيـف تؤثـر الخطـوة الإثيوبيـة فـي تشـكيل تحالفـات جديـدة بمنطقـة القـرن الإفريقـي؟ مـا أهـم المواقـف والتداعيـات المحتملـة علـى أمـن واسـتقرار منطقـة القـرن الإفريقـي جـرّاء القـرار الإثيوبـي؟ تنطلـق الدراسـة مـن فرضيـةٍ عامـة تتلخـص فـي وجـود نـوع مـن التناقـض بيـن مـا يُـروَّج مـن السُّـلطة السياسـية الإثيوبيـة مـن خلال الحـرص علـى مقاربـة «صفـر مشـكلات» مـع دول الجـوار، وهـي حتميـة تفرضهـا الجغرافيـا الحبيسـة لأديـس أبابـا، فـي مقابـل انتهـاج سياسـة الأمـر الواقـع فـي إدارة الملفـات الإقليميـة، علـى رأسـها ملفـا الوصـول إلـى البحـر الأحمـر واقتسـام ميـاه النيـل.

وتُعالـج الدراسـة هـذه الإشـكالية مـن خلال المنظـور الواقعـي فـي العلاقـات الدوليـة، القائـم علـى أُسُـس المصلحـة ومنطـق القـوة فـي التفاعلات الدوليـة، كمـا تعتمـد الدراسـة علـى منهـج دراسـة الحالـة، الـذي ركّـزت عليـه فـي تتبـع وتحليـل السـلوك الإثيوبي السَّـاعي

للوصول إلى البحر الأحمر، وذلك عبر مختلف السياسات والمقاربات المنتهجة من الحكومات الإثيوبية المتعاقبة.
جرى التأسيس للدراسة على هندسة تبدأ بتوضيح موجز للجانب المفاهيمي الخاص بمفهوم الدولة الحبيسة، إلى جانب توضيح الخلفية التاريخية لمساعي أديس أبابا للوصول إلى المياه المفتوحة، ثم تسليط الضوء على مضمون مذكرة التفاهم وإبراز السياقات العامة التي أُبرمت فيها، انتهاءً برصد أهم التداعيات المترتبة على هذه الخطوة.

أوّلاً: مفهوم الدولة الحبيسة والمحاولات الإثيوبية للوصول إلى المياه المفتوحة

دائمًا ما مثَّل الإقليم باعتباره أحد الأركان الأساسية لقيام الدول، إلى جانب الشعب والسلطة السياسية، مثار جدل وخِلاف، بل ونزاعات على مرّ التاريخ بين الوحدات والكيانات السياسية المختلفة، وذلك لما له من أهميةٍ قصوى في منح الدولة مصادر للقوة بشتى صورها، جيو-سياسية، واقتصادية، وإستراتيجية وعسكرية.
وفي هذا الإطار تتصدر ظاهرة (الدول الحبيسة: Landlocked Countries) حالةً ومفهومًا متشعّب الدلالات، حيِّز النقاش العلمي الأكاديمي المتجدّد باستمرار، فبمجرّد الاطلاع الأوّلي على الأدبيات والكتابات التي تناولت المفهوم، يتضّح مدى التداخل والتعقيد في الأطر المعرفية العلمية التي ناقشت المصطلح، باعتباره فكرة وحالة.
حسب مكتب الممثل السَّامي للأمم المتحدة للدول الأقل نموًّا، والدول النامية الحبيسة والدول النامية الجزرية الصغيرة[1] المعروف اختصارًا بـ(UN-OHRLLS)، فإن الدولة الحبيسة هي كل دولة منعدمة التماس إقليميًّا مع البحر، مما يشكِّل لها تحدّيًا مزدوجًا، ينصرف الأول إلى محدودية الوصول إلى الأسواق العالمية، أما الثاني فيتمثَّل في الصعوبات التنموية المتراكمة.
وتشغل هذه الدول مساحة إجمالية قدرها 15 مليون كم[2] يقطنها قرابة 533 مليون نسمة بنسبة نمو سكاني قاربت 2.3%، وقد قدَّر المكتب متوسط المسافة ما بين الحدود البرية لها وأقرب السواحل البحرية بنحو 1370 كم[2].
يرى الباحث داساديث سوسوفان في مقدِّمة أطروحته أنَّ مفهوم الدولة الحبيسة ينطوي على معضلة أساسية يُشكِّل فيها البُعد الاقتصادي محورًا رئيسيًّا، وأحد أكثر العوامل المُعوّقة للتطور الاقتصادي للدول والمجتمعات[3].
أما الباحث سميع الله مهدي، فلا ينظر إلى الظاهرة باعتبارها عائقًا بحدِّ ذاته، بقدر ما تلعب دول الجوار الجغرافي للدولة المعنية دورًا مفصليًّا فيه، فحسب رأيه، فإنه من أصل 42 دولة حبيسة يُصنَّف كثير منها في مصاف الدول الغنية المتقدمة[4]، وذلك تبعًا لمعيار الاستقرار والتنمية ومستويات

جودة البنية التحتية التي يوفرها محيط الدولة الحبيسة. وفي السّياق، يُعزّز الباحثان فيروز مسجدي وبيديشا لاهيري هذا التوجه عندما يؤكدان كون مسألة الدولة الحبيسة لها بُعد وتبعات اقتصادية بامتياز. هذه الدول تُمثل ما نسبته 20% من إجمالي الوحدات السياسية المشكِّلة للنظام الدولي ككل، لكن، وبالرغم من الاختلال والتباين في توزيعها بالنظر إلى معيار مستويات مداخيل هذه الدول (40% منها مصنفة من ضمن الدول ذات المداخيل الدُّنيا، و10% منها ضمن الدول عالية المداخيل الاقتصادية). يبقى عامل «طبيعة دول الجوار» هو المحدد الرئيسي في رؤاها وإستراتيجياتها الداخلية والخارجية، التي يجب أن تأخذ بعين الاعتبار طبيعة النظام السوسيو-اقتصادي السائد فيها من جهة، وإلزامية توخي نوع من الدبلوماسية في سياساتها الإقليمية من جهةٍ أخرى[5].

وفي نطاقٍ آخر، فإن النظرة السلبية التشاؤمية لكون الدولة مصنَّفة ضمن النطاق الحبيس، مقارنة ببقية الوحدات السياسية، تطغى على غالبية الدراسات والكتابات الأكاديمية، فوفق الباحث إنغو بورشرت وآخرين يُنظر إلى مفهوم الدولة الحبيسة على أنّه يُعبّر عن وضعية تظهر من خلالها الدولة ضحية للجغرافيا، بحيث تفرض عليها هذه الحتمية الجغرافية عُزلة وصعوبات جمّة في عديد من الامتيازات والفوائد، أهمها السهولة في التدفقات التجارية، والسياحية، وحتى الثقافية والمعرفية، لكن يبقى على هذه الدول أن تختار أيّ المقاربات (السياسية، والاقتصادية، والإستراتيجية) التي من شأنها أن تحسّن سيرورة وديناميكية تواصلها وتفاعلها السلس مع بقية دول العالم[6].

واتصالًا بذلك، يمكن القول إن تاريخ منطقة القرن الإفريقي شهد عديدًا من التغيرات والتحوّلات الكبرى، سواءٌ في الحدود البينية للدول، أم تلك المتّصلة بتوازنات القوة والنفوذ، وهو الأمر الذي أثر في ملامح الخارطة النهائية لها. وبالنسبة للدولة الوطنية الإثيوبية الحالية، دائمًا ما مثَّل موضوع الوجود والسيطرة على منافذ مائية بساحل البحر الأحمر قضيةً جدّ محورية على مرِّ العصور. فمنذ تأسيس مملكة أكسوم التاريخية عام 325 قبل الميلاد على يد السلالة المنتسبة للملك النبي سليمان عليه السلام[7]، وإقامة ميناء مدينة أدوليس الحيوي، والقيادة السياسية الحاكمة ببلاد الحبشة آنذاك على قدرٍ عالٍ من الإدراك بما يتيحه ساحل البحر الأحمر من فوائد وعوائد اقتصادية تجارية مهمة. مكَّنهم ذلك من الهيمنة في ما بعد على النشاطات التجارية المشتركة ما بين المحيط الهندي والبحر الأحمر من جهة، وبسط نفوذهم

وسيطرتهم السياسية والعسكرية التي دامت لعصور طويلةٍ من جهةٍ أخرى، إلى أن بدأ التراجع مع قدوم العثمانيين مطلع القرن السابع عشر للمنطقة، حينما استولوا على أغلب المنافذ والمعابر المائية بطول السّاحل، وفي مقدّمتها ميناء مصوع الإستراتيجي، الأمر الذي مثَّل بداية التسلسل الزمني للتجاذب الإثيوبي من أجل الوصول إلى المياه المفتوحة مجددًا[8].

شكّلت عشرينيات القرن الماضي، وصولًا إلى عام 1932م، البدايات الجادة الأولى للسُّلطات الإثيوبية في محاولاتها التخلص من كونها دولةً حبيسة، والتمكين الساحلي خدمةً لمصالحها التجارية والاقتصادية. وقد تبنَّت لتحقيق هذا الهدف الإستراتيجي عديدًا من المقاربات الجيو-سياسية الممكنة، خصوصًا مع الأخذ في الاعتبار وقوع غالبية دول منطقة القرن الإفريقي تحت هيمنة قوى استعمارية أوروبية مختلفة ومتباينة السياسات، الأمر الذي قد يعطيها مجالًا وهامشًا أوسع للتفاوض والحصول على مكاسب أكثر على الأرض. وفي هذا الإطار برزت المناقشات الثنائية الإيطالية-الإثيوبية[9] لإبرام صفقة تبادل أقاليم ما بين إريتريا المحتلة وبلاد الحبشة، إذ تضمَّن المقترح الإيطالي منح ميناء عصب ليكون تحت السيادة الإثيوبية، في مقابل أن تأخذ إيطاليا امتياز إنجاز وتشغيل وملكية مشروع السّكة الحديدية من الميناء وصولًا إلى العاصمة أديس أبابا، الأمر الذي رأت فيه الأخيرة مبالغةً في الطرح يصعُبُ، بل يستحيلُ، قبوله.

وفي ذات السياق، مثّلت التفاهمات الإثيوبية-البريطانية، بغرض التبادل الإقليمي بين إثيوبيا وأرض الصومال البريطانية آنذاك خلال عامي 1946 و1952م، خطوةً ومحاولة ثانية من أديس أبابا للوصول إلى البحر[10]. وقد تمركزت المباحثات حول ما يُعرف في الأوساط الأكاديمية بـ»تبادل زيلع بهود»، التي كانت معنية ببسط إثيوبيا سُلطتها وسيادتها على ميناء زيلع، الواقع بالشق البريطاني من أرض الصومال المحتل، في مقابل أن تستفيد بريطانيا من أراضٍ خصبة بإقليم أوغادين تُعرف بمنطقة »هَوْد«، مع أحقيتها في التمتُّع بامتيازات مشاريع بحيرة تانا وعقبة بارو. قُوبل الطرح بمعارضة فرنسية باعتبارها صاحبة السيادة آنذاك على الشّق الثاني من أرض الصومال، إلى جانب تخوُّف باريس من انحسار نشاط تجارتها المنطلقة من الموانئ الجيبوتية[11].

وظلت السُّلطات الإثيوبية حريصة على الوصول إلى سواحل البحر الأحمر، فكانت تنوِّع في إستراتيجياتها ومقارباتها الجيو-سياسية والاقتصادية، لضمان الاستفادة من مزايا وأفضليات تسهم في تسهيل الحركة التجارية

المتنامية بمنطقة القرن الإفريقي، وإيجاد أسواقٍ جديدة للسلع والمنتجات الوطنية الآخذة في التصاعد، ناهيك بالمكاسب السياسية الإستراتيجية التي قد يضفيها الوجود المادي بمحاذاة خليج عدن ومضيق باب المندب. وفي هذا الإطار مثَّلت مشاريع البِنى التحتية المختلفة، كتعبيد الطرق والسكك الحديدية، أحد أبرز هذه البدائل والآليات، التي نذكر أهمها في ما يلي:

1. مشروع السكة الحديدية الكهربائية الرابط بين ميناء جيبوتي وأديس أبابا:

وهو المشروع الأوَّل في القارة الإفريقية، ويدخل ضمن التَّصور الصيني لـ«مبادرة طريق الحرير»، وقد بلغت تكلفته 3.4 مليار دولار أمريكي، وجرى إطلاقه للمسافرين عام 2016م. وبعد سنتين بدأ استغلاله للأغراض التجارية بتاريخ 01 يناير 2018م. ويقطع القطار مسافة تفوق 753 كم، ويمثّل شريان التجارة الدولية لإثيوبيا بنسبة 90%[12]، بقدرة استيعابية نحو 24.9 مليون طن، مع توقعات بزيادة تصل إلى 3.1 مليون طن إضافية بحلول عام 2030م، مع تقليص مدَّة العبور من 50 إلى 10 ساعات[13].

خريطة (1): مشروع السكة الحديدية الكهربائية الرابط بين ميناء جيبوتي وأديس أبابا

المصدر: https://2h.ae/BQFA

2. طريق الشيخ صباح الأحمد الرابط بين ميناء تاجوراء بجيبوتي وأقاليم الشمال الإثيوبي:

بلغت كُلفة المشروع 78 مليون دولار أمريكي، بقرض تمويلي من مخصصات الصندوق الكويتي للتنمية. وقد افتُتِح عام 2019م، ويمتد لنحو 112 كم[14]. وقد رأت فيه السُّلطات

الحاكمة بأديـــس أبابا أحد البدائل المهمة التي يجب دعمها والمحافظة عليها، وذلك تعبيرًا منها عن جوهر مقاربة تنويع منافـــذ التجارة والوصول إلى البحر، لكي لا تبقى رهينة للخيار الوحيد المتاح، المتمثل في ميناء جيبوتي، وهو الأمر الذي دائمًا ما دفع النخب الإثيوبية إلى التفكير بشكلٍ مستمر والاســـتثمار في موانٍ أخرى بالمنطقة، على رأسها ميناء بربرة بأرض الصومال.

يُشير الرّصد التاريخي للمحاولات الإثيوبيـة المتتالية بُغية الوصول إلى البحر الأحمر إلى تنويع صانع القرار بأديس أبابا للرؤى والإستراتيجيات التي قد تساعد في تحقيق هذا الهدف، لكن، وبالنظر إلى جدلية التأثير والتأثر ما بين وضع الجغرافيا الحبيسة من جهة، والخصوصية التي تفرضها مستويات البِنى التحتية السوسيو-اقتصادية لدول جوار إثيوبيا من جهةٍ أخرى، يتّضح أنَّه دائمًا ما أسهمت هذه العلاقة الترابطية في تأرجح بوصلة القيادة السياسية الحاكمة بإثيوبيا ما بين خياري (التعاون / وفرض الأمر الواقع) بقصد الوصول إلى البحر. وبغض النظر عن المساعي الوطنية لتأسيس شبكة تفاهمات إقليمية تخدم مصالحها الاقتصادية والتجارية، فإنَّ الطرف الإثيوبي يُخِلُّ في كثيرٍ من الأحيان بالتزاماته الثنائية، وكان آخر النماذج على ذلك عام 2022م، حينما فقدت إثيوبيا حصصها في ممر بربرة، لأنها لم تسهم ماليًّا في إعادة تأهيل الميناء على النحو المتفق عليه في عام 2016م مع سُلطات الحكم بإقليم أرض الصومال، وهو التأرجح الذي يقودها إلى تبني نهج سياسة الأمر الواقع مجددًا[15].

ثانيًا: إثيوبيا.. مذكرة التفاهم مع أرض الصومال.. الدوافع وردود الفعل

المتابع لواقع السياسات الإثيوبية خلال العقد الأخير من الزمن، خصوصًا مع مجيء وتولي آبي أحمد سُدّة رئاسة الوزراء بأديس أبابا عام 2018م، يتضح له النهج الشامل والمتسارع في التعامل والتفاعل مع مختلف الوحدات والكيانات السياسية الفاعلة بمنطقتي شرق إفريقيا بشكلٍ عام، والدول المطلّة على البحر الأحمر من القرن الإفريقي بشكلٍ خاص. وفي هذا الإطار يشير عديد من الباحثين والمختصين بالشأن الإثيوبي إلى توليفة فُسَيْفسائية تطبع السلوك الخارجي لأديس أبابا، تحمل في طياتها كثيرًا من الجدل، بل والتناقضات، جعلت من مهمّة التنبؤ والتوقّع بمسارها وديناميكيتها مسألةً غاية في التعقيد والتشابك، وعليه يمكن إجمال مرتكزات هذه التوليفة في محورين أساسيين هما:

المحور الأول: ينصرف إلى كون بدايات فترة حكم وإدارة رئيس الوزراء آبي أحمد لدواليب السياسة الخارجية الإثيوبية، قد اعتمدت على مقاربة «صفر مشكلات» مع دول الجوار، ويمكن أن يندرج في هذه النقطة مختلف الزيارات المكوكية التي أجراها، ولقاءاته مع قيادات ورؤساء دول الدائرة الإقليمية لإثيوبيا. وقد مثّلت خطوة المصالحة وتطبيع العلاقات الثنائية مع إريتريا، أحد أبرز الملامح والتوجهات الجديدة للسياسة

المنتهجة من أديس أبابا مع عواصم دول المنطقة. وفي هذا الصدد يجب التنويه إلى أنه إلى جانب الحاجة الماسّة إلى عقد تفاهمات وتحسين العلاقات مع دول الجوار، باعتبار أنَّ إثيوبيا تُصنَّف ضمن نطاق الدول الحبيسة بالقارة الإفريقية، خصوصًا إذا تعلَّق الأمر بكل من (إريتريا والصومال وجيبوتي)، بقصد الاستفادة أكثر من مزايا تفضيلية في التعاملات التجارية عبر موانيها البحرية، فقد سعى آبي أحمد جاهدًا إلى إعادة بناء الثقة البينية مع قيادات هذه الدول. ولعب دور الزعامة والريادة الإقليمية الطامحة لقيادة منطقة القرن الإفريقي بنهج سياسي جديد، لكنَّ هذا يتناقض مع التوجهات الحالية حيال مسألة الحرص على الوصول إلى منفذ مائي عند مدخل البحر الأحمر، وما أفرزه من تداعيات وانعكاسات إقليمية سلبية.

المحور الثاني: يتمثل في التركيز على البُعد الرَّمزي في السياسات العليا للقيادة والنخبة السياسية الحاكمة بأديس أبابا، إذ إنه لا يخفى على المراقبين للحركية السياسية بإثيوبيا، خصوصًا في الفترة التي أعقبت تولي آبي أحمد كرسي رئاسة الوزراء بالبلاد، اتساع نطاقِ استخدام مختلف أدوات الخطاب الرَّمزي المتمازج مع الأبعاد الشعبوية الأكثر تأثيرًا في وِجدان المواطن الإثيوبي. أضحت بذلك مفردات سردية الإمبراطورية الإثيوبية التاريخية المهيمنة على منطقة القرن الإفريقي من صميم مضامين الخطابات الرّسمية لرئيس الوزراء الحالي. وقد استُخدِمت ووُظِّفت بشكل منهجي في إثارة وإدارة عدّة قضايا قومية وإقليمية، كان أوَّلها مسألة مياه النيل والدفاع الشرس عن أحقية تشييد سد النهضة، دون الالتفات إلى الحلول والمقاربات التوافقية المطروحة من دولتَي المصَب، مصر والسودان. وعلى نفس النهج والسردية يجري التعامل حاليًّا مع مسألة «أحقية» إثيوبيا في الوصول إلى المياه المفتوحة بكل الطرق والوسائل، التي كان آخرها توقيع مذكرة التفاهم مع سُلطات إقليم أرض الصومال لاستغلال ميناء بربرة، وما سبّبه ذلك من انتهاك لسيادة دولة الصومال، وكذا تداعيات وردود فعل متباينة لحكومات دول المنطقة.

يمكن تحديد نقطة البداية بالنسبة للأحداث الجارية حاليًّا بمنطقة البحر الأحمر، من لحظة إعلان أديس أبابا لعقد مذكرة تفاهم مع السُّلطات الحاكمة بإقليم أرض الصومال، بغرض الاستفادة والانتفاع من خدمات ميناء بربرة الحيوي، إلى فترة زمنية وجيزة سبقت هذه الخطوة الثنائية من الجانبين. فمنذ 13 أكتوبر 2023م وعلى إثر خطاب رئيس الوزراء آبي أحمد أمام البرلمان الاتحادي الإثيوبي، بدأ إطلاق تصريحات وُصفت بـ«التصعيدية» حينها. وكان قد أعلن عن وجود «ضرورة وجودية» لوصول إثيوبيا إلى سواحل البحر الأحمر مرةً أخرى[16]، وعدم الاكتفاء بإقامة ممرات برية تجارية، بل عبر إقامة موانٍ سيادية بالكامل من خلال إريتريا أو الصومال أو جيبوتي. وقد استدل في تصريحاته هذه بالمقولة الشهيرة للقائد العسكري الإثيوبي في القرن

التاسع عشر، علولا أنغيدا، المعروف بـ«أبا نيغا» الذي قال إن «البحر الأحمر هو الحدود الطبيعية لإثيوبيا». يُعد هذا نوعٌ من الاستخدام الرَّمزي الشعوبي المميز لخطابات آبي أحمد منذ توليه السُّلطة بالبلاد، الأمر الذي اعتبره قادة المنطقة بالمنعرج الخطير للنية المسبقة لتوظيف الوسائل اللا سلمية لحصول إثيوبيا على منفذ بالبحر، ورأى فيه المهتمون خطوة تمهيدية تحضيرية لإعلان عقد وإبرام مذكرة التفاهم مع أرض الصومال.

جاء إعلان إبرام مذكرة تفاهم ثنائية بين أديس أبابا وسُلطات الحكم بإقليم أرض الصومال بتاريخ 01 يناير 2024م مرحلةً رأت فيها رئاسة الوزراء الإثيوبية استعادة للحضور المادي السيادي على ضفاف خليج عدن بالبحر الأحمر، بعد فترة طويلة من الغياب منذ إعلان استقلال إريتريا عن الحكم الإثيوبي عام 1993م[17]، ثم بتوقيع اتفاق الجزائر عام 2000م، الذي أنهى الحرب بين البلدين، التي دامت لعامين (2000–1998م). وقد تضمنت المذكرة منح سُلطات الحكم بإقليم أرض الصومال امتيازًا للحكومة الإثيوبية باستغلال ممر إستراتيجي قدره 20 كم يقع حول ميناء بربرة المهم لمدة 50 عامًا، تتمكن من خلاله أديس أبابا من إدارة مصالحها التجارية والاقتصادية[18]، إلى جانب إمكانية تأجير جزء من ساحل أرض الصومال للبحرية الإثيوبية لأغراضٍ عسكرية[19]. وفي مقابل ذلك يجري منح هيئات الحكم بأرض الصومال حصّة من أسهم شركة الخطوط الجوية الإثيوبية، والأهم من ذلك التزام الاعتراف الرّسمي باستقلال الإقليم عن الصومال والتعامل معه باعتباره دولة مستقلة، وهو الأمر الذي لم تُقدِم عليه دولة أو حكومة عبر العالم منذ الإعلان أُحادي الجانب بانفصال الإقليم عن السُّلطة المركزية بمقديشو قبل ثلاثة عقود من الزمن عام 1991م.

ويمكن أن نُجمل أهم عوامل إبرام مذكرة التفاهم مع أرض الصومال في التالي:

1. حالة التوتر والفوضى التي تطبع الأوضاع السياسية والأمنية بمنطقة البحر الأحمر:

منذ اندلاع الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة بالأراضي الفلسطينية، شهدت المنطقة تزايدًا مطّردًا في أحداث العنف والصراع جرّاء انخراط مليشيا الحوثي بالأراضي اليمنية باعتبارها طرفًا رئيسيًّا في الصراع، وذلك عبر انتهاجهم سياسة استهداف السفن العابرة بالبحر الأحمر، خصوصًا تلك المتجهة إلى موانئ إسرائيل، وما نتج عنه من هجمات غربية بقيادة الولايات المتحدة وبريطانيا ضد مراكز النفوذ والسيطرة الحوثية باليمن. وبالنسبة لإثيوبيا فقد مثّلت هذه الأحداث ظرفًا ملائمًا لاتخاذ خطوة إبرام مذكرة التفاهم مع إقليم أرض الصومال، وهي الخطوة التي تشكّل سياسةً أحادية الجانب، وأمرًا واقعًا قد يغيّر خريطة النفوذ الدولي الإقليمي بالمنطقة.

2. التقارب المتزايد بين الحكومة الإثيوبية وسُلطات الحكم المحلي بإقليم أرض الصومال:

خلال السنوات الثلاث الأخيرة، تطورت العلاقات بين الحكومة الإثيوبية وسلطات الحكم المحلي بإقليم أرض الصومال بصورة ملحوظة، وهو الأمر الذي أثار في كثيرٍ

خريطة (2): موقع ميناء بربرة

المصدر: https://www.aspdkw.com/31120-revision-v1/

من الأحيان حفيظة القيادة السياسية الحاكمة بمقديشو. وجاء هذا التقارب ضمن التكتيك الإثيوبي لموازنة التحوّلات الإقليمية الجارية في إطار ما بات يُعرف بـ«حرب الموانئ» بمنطقة البحر الأحمر. على سبيل المثال، بعد استبعاد جيبوتي شركة موانئ دبي من إدارة ميناء جيبوتي عام 2019م، وهو الميناء الأكثر استخدامًا في المبادلات التجارية الإثيوبية بنسبة تفوق 90%، وقّعت الشركة الإماراتية اتفاقًا في عام 2022م، تصبح بموجبه إثيوبيا شريكًا إستراتيجيًّا في ميناء بربرة في أرض الصومال بنسبة 19%[20]، بوصفه خطوةً لسحب العميل الإثيوبي من الحكومة الجيبوتية. وربما هذا الأمر هو ما شجَّع أديس أبابا على الاستحواذ على مكتسبات أكبر من خلال وثيقة التفاهم مع سلطات أرض الصومال. ولا شك في أن أديس أبابا استغلت حاجة حكومة أرض الصومال إلى عقد تفاهمات دولية ذات مستوى عالٍ على هذا النحو لمضاعفة احتمالية تسريع الاعتراف الدولي ومعاملتها باعتبارها دولة مستقلة عن السُّلطة المركزية بالعاصمة الصومالية مقديشو.

3. حاجة حكومتَي إثيوبيا وأرض الصومال إلى تعزيز الشرعية الداخلية:

بالنسبة للحالة الإثيوبية، فقد تأثّرت مكانة وشعبية رئيس الوزراء آبي أحمد السياسية بالحرب التي خاضها الجيش الوطني ضد مسلحي إقليم تيغراي، فقد تركت الحرب تداعيات سلبية على الأوضاع الداخلية وأدت إلى حالة من الإنهاك الاقتصادي الهائل للبنية الاقتصادية الوطنية. ومن جهةٍ أخرى، فقد موسى بيهي عبدي، رأس السلطة في أرض الصومال، كثيرًا من الشرعية بين شعبه، خصوصًا قبيلة إسحاق بأرض الصومال، إذ كان عديد منهم يدعمون حكمه حتى وقت قريب. وتفاقم الوضع بعد الحرب التي شنها موسى على مدينة لاس عنود، العاصمة الإدارية لمحافظة سول، الواقعة شمال شرق الصومال. وذلك على خلفية إعلان زعامات قبَلية اندماجهم في الحكومة الفيدرالية الصومالية، وهي الحرب التي أودت بحياة عديد من الأشخاص، وأثقلت كاهل الاقتصاد بكثير من الأزمات، وأظهرت الجانب المظلم لأرض الصومال،

التـي كانـت تُعتبـر حتـى ذلـك الحيـن دولـة سـلمية وديمقراطيـة فـي نظـر كثيـر مـن المراقبيـن، وفـي الوقـت نفسـه قوّضـت سـمعة رأس السـلطة فـي أرض الصومـال[21].

4. الانشغال الأفرو-عربي بقضايا أثقلت كاهل أجهزة الشؤون الخارجية لدول المنطقة:

ينصـرف الطـرف العربـي، الـذي تُـشكِّل دولـة الصومـال أحـد أعضائـه، إلـى التركيـز علـى تداعيـات الحـرب الإسـرائيلية علـى قطـاع غـزة ومـا ترتـب عليهـا مـن تبعـات أمنيـة وإنسـانية، إلـى جانـب الأحـداث الجاريـة بالسـودان، الـذي يمثِّـل قاسـمًا مشـتركًا بيـن البيتَيـن العربـي والإفريقـي علـى حـدٍّ سـواء. كلهـا أحـداث مثَّلـت فراغًـا هـائلًا اسـتغلته السُّـلطات الإثيوبيـة فـي المضـي بعقـد هـذا النـوع مـن التفاهمـات، التـي اخترقـت حاجـز السـبْق بتعاملهـا مـع هيئـات الحكـم بـأرض الصومـال المعزولـة إقليميًّـا ودوليًّـا، وكـذا انتهـاك سـيادة الصومـال، العضـو بجامعـة الـدول العربيـة والاتحـاد الإفريقـي.

وجـدت الخطـوة الإثيوبيـة ردود فعـل واسـعة النطـاق، فمنـذ إعلان إبـرام مذكـرة التفاهـم الثنائيـة، نـددت الصومـال بالخطـوة الإثيوبيـة الرّاميـة للوصـول إلـى مدخـل البحـر الأحمـر عبـر إقليـم أرض الصومـال، ووظفـت مقديشـو الطـرق والوسـائل كافـة فـي سـبيل إبطـال وصـدّ الخطـوة الإثيوبيـة، بدايـة بإقـرار البرلمـان الاتحـادي الوطنـي الصومالـي قانونًـا يلغـي مضمـون مذكـرة التفاهـم ويعتبرهـا غيـر مؤسسـة وتمثّـل خرقًـا للسـيادة الوطنيـة للـبلاد، وبمثابـة وجـود نيـة خارجيـة مـن أديـس أبابـا للغـزو البـري والبحـري لأراضٍ تقـع تحـت السـيادة الصوماليـة. علـى نطـاقٍ مـوازٍ، سـعت مقديشـو لتجنيـد مختلـف القـوى والفاعليـن الإقليميـن والدولييـن. هـذا يفسّـر مـا جـاء بـه بيـان رئاسـة الـوزراء الصوماليـة[22] الـذي نـادى كلًّا مـن هيئـة الأمـم المتحـدة، وجامعـة الـدول العربيـة، ومنظمـة التعـاون الإسلامي، وتكتـل إيغـاد والاتحـاد الأوروبـي، لعقـد اجتماعـات طارئـة لمناقشـة التجـاوزات الإثيوبيـة، التـي مـن شـأنها أن تكـون لهـا تداعيـات خطيـرة علـى المنطقـة ككل. وعلـى مسـتوى المنظومـة الإقليميـة الإفريقيـة، فقـد كشـفت الأزمـة الصوماليـة-الإثيوبيـة الرّاهنـة عـن هشاشـة وضعـف البيـت الإفريقـي بشـتى صـوره ومسـتوياته التنظيميـة. فبالنظـر إلـى المواقـف الرَّسـمية الصّـادرة عـن كلٍّ مـن الاتحـاد الإفريقـي ومنظمـة إيغـاد، نلحـظ عـدم وجـود تنديـدٍ صريـح بالخطـوة التـي أقدمـت عليهـا إثيوبيـا الاتحاديـة فـي حـق انتهـاك السـيادة الصوماليـة، الأمـر الـذي قـد يُفسَّـر علـى وجهَيـن متباينَيـن.. يوحـي الأوّل بتبنـي المنظمتيـن نهـج التهدئـة كمرحلـةٍ أوّليـة بُغيـة التحكّـم أكثـر فـي مجريـات الأحـداث واسـتبعاد مؤشـرات وبواعـث التوتـر الممكنـة، وهـو التفسـير التفاؤلـي الظاهـر للسـلوك السياسـي الدبلوماسـي الـذي أبـداه التكـتلان، فيمـا يطـرح الوجـه الثانـي تصـوُّرًا مغايـرًا ينضـوي تحـت الاعتقـاد بوجـود هيمنـة ونفـوذ سياسـيين لأديـس أبابـا علـى مقاليـد صناعـة القـرار بأجهـزة وهياكل إيغـاد والاتحـاد الإفريقـي، وهـو مـا يفسِّـر الغيـاب شـبه التـام لأي مـن التعبيـرات المنـددة بالتوجهـات الإثيوبيـة إزاء هـذه المسـألة. بالنسـبة للاتحـاد الإفريقـي[23]

لم يتجاوز بيانه حدّ الدعوة إلى «الهدوء والاحترام المتبادل لخفض منسوب التوتر المتصاعد»، في حين اكتفى بيان إيغاد[24] بالتصريح بكون المنظمة «تراقب الوضع بجدية، وتدرك التداعيات المحتملة على الاستقرار الإقليمي»، مع تأكيد مناشدة قادة إيغاد والدولتين التعاون من أجل التوصل إلى حل سلمي ووُدِّي للوضع، ودعم القيم المشتركة التي توحِّد أسرة المنظمة.

وعلى وتيرةٍ مغايرة، انفرد موقف جامعة الدول العربية من الأزمة بمنطقة القرن الإفريقي بمواقف الرّفض والمساندة التامة للمسار الذي تبنته القيادة السياسية الحاكمة بدولة الصومال، وقد عكس مضمون البيان الرّسمي للجامعة[25]، الصادر بتاريخ 03 يناير 2024م، الحرص الشديد للمنظمة على وحدة الأراضي الصومالية ورفض أي شكل من أشكال الانتهاك والتعدي المقصود من السلطات الإثيوبية. واللافت للانتباه في الموقف العربي أنّ الجامعة رأت في الخطوة الإثيوبية تشويشًا وتقويضًا لجهود السلام ومبادرات لم الشمل الصومالي الداخلية ما بين الحكومة المركزية والأقاليم الفيدرالية الأخرى، واستدعاءً لتزكية التوجهات الانفصالية المهددة للأمن والاستقرار الوطني والإقليمي.

من جانب آخر، اتسق الموقف المصري مع هذا التوجه العربي، بل وظهر بأكثر حدّة وحزم في تأكيد حرص القاهرة على وحدة وسلامة الأراضي الصومالية، واستعداد مصر لمساعدة مقديشو في رد أي تهديد لسيادتها. وعدَّ المتابعون لمجريات وتطورات الأزمة الموقف المصري بأنه الأكثر مساندة وتأييدًا لمقديشو، وهو هنا يؤكد وجود نهجٍ تحذيري تقوده القاهرة في مواجهة «التغوُّل» الإثيوبي بالمنطقة، ويُنذر بالدخول في مرحلة جديدة لإعادة تشكُّل تحالفات إقليمية مغايرة، خصوصًا أنّ السياسات الإثيوبية أضحت «مصدرًا لبث الاضطرابات في محيطها الإقليمي» وفق توصيف وزير الخارجية المصري[26]، وهو الموقف الذي تشاطره القاهرة مع عددٍ ليس بمحدود من عواصم منطقة القرن الإفريقي، خصوصًا السودان، وجيبوتي وإريتريا، إلى جانب الصومال.

وأخيرًا، فإن الموقف السعودي كان حاسمًا في ما يتعلق بهذا الاتفاق، فقد أكد بيانٌ سعودي-صومالي مشترك، صدَر في ختام زيارة الرئيس الصومالي حسن شيخ محمود إلى السعودية في أبريل 2024م، الحرص البالغ على وحدة جمهورية الصومال الفيدرالية وسيادتها على كامل أراضيها. وشدد الجانبان على ضرورة التزام مبادئ حسن الجوار، وهو ما يعني ضمنيًّا رفض الاتفاق الإثيوبي مع أرض الصومال. وهذا الموقف يتسق مع الموقف العربي، والدعم الذي تقدمه السعودية للدول العربية على الصعيد السياسي والاقتصادي[27].

ثالثًا: تداعيات مذكرة التفاهم الإثيوبية مع أرض الصومال

البحث في المواقف المتباينة من القرار الإثيوبي بإبرام مذكرة تفاهم مع سُلطات الحكم بإقليم أرض الصومال للاستفادة من استغلال موانٍ بحرية على ضفاف البحر الأحمر، له عديد من الأبعاد والقراءات المتباينة والمركَّبة، وذلك بالنظر إلى ما تُمليه الظروف الدقيقة التي تمر بها المنطقة منذ فترة ليست بوجيزة. وقد استفحل الوضع أكثر مع تصاعد حدّة الصراع العسكري بين القوى الغربية والحوثيين جرّاء الانعكاسات السلبية للحرب الدائرة على قطاع غزة بفلسطين، إضافةً إلى خصوصية الحالة الصومالية ذات البُعدين الأفرو-عربي التي ألقت بظلالها على مواقف مختلفة من الطرفين والكتلتين على حدٍّ سواء، ويمكن رصد هذه التداعيات في ما يلي:

1. تعزيز مكانة إثيوبيا وتهديد سيادة الصومال:

عطفًا على ما سبق، فإن هذه المستجدات وغيرها جاءت في ظل سياقٍ إقليمي دولي متسارع الأحداث، التي شكَّلت في مجملها بالنسبة لأديس أبابا فرصةً مناسبة لأبعد الحدود للظفر بمكسبٍ إستراتيجي على المستويين القومي والإقليمي، إذ من شأنه أن يدعم مكانة رئيس الوزراء الإثيوبي ضمن تجاذبات الساحة السياسية الداخلية، وكذا يُعزّز نفوذ البلاد ويحدث نوعًا من التغيير على مستوى توازنات القوة بمنطقة القرن الإفريقي والبحر الأحمر. على المستوى الاقتصادي، فإن مضيق باب المندب إلى الجنوب وقناة السويس إلى الشمال يستقبلان نحو 12% من إجمالي تجارة النفط المنقولة بحرًا، ونحو 8% من شحنات الغاز الطبيعي المسال عالميًّا[28]، لذلك فإن أحد أهداف إثيوبيا من تأمين منفذ بحري سيادي في هذا الموقع هو التحوُّل إلى مركز صناعي ولوجيستي إقليمي، ما ينعكس بالإيجاب على نمو اقتصادها، ومن ثمَّ يعزز نفوذها في القرن الإفريقي، إذ يجعلها قادرة على ربط اقتصادات دول المنطقة بالاقتصاد الإثيوبي وترسيخ حضور أديس أبابا وهيمنتها، كما يجعلها مقصدًا للاستثمارات الأجنبية.

بالمقابل، يُعد القرار الإثيوبي بمثابة انتهاك لسيادة الصومال الوطنية وتهديد للوحدة الترابية للبلاد، خصوصًا مع ما تضمَّنته المذكرة من التزام إثيوبي مستقبلي الاعتراف بإقليم أرض الصومال دولةً مستقلة. وفي واقع الأمر، فإن هذه المخاوف المتزايدة من مقديشو لم تكن بالغريبة أو الجديدة، فباستقراء الخلفية التاريخية للعلاقات الصومالية-الإثيوبية وكذا مع بقية دول منطقة القرن الإفريقي منذ إقامة الجمهورية الصومالية عام 1960م، تنظر مقديشو إلى محيطها الجغرافي بنوعٍ من التوجس والترقب المستمر. فبالنسبة لإثيوبيا تمثّل قضية إقليم أوغادين أو الصومال الغربي، الذي جرى ضمّه إلى إثيوبيا من طرف السُّلطات الاستعمارية البريطانية عقب نهاية الحرب العالمية الثانية، قضية عالقة ومهددة لاستمرارية العلاقات بين البلدين. ويتعزز هذا التوجس بالبناء الدستوري للصومال الذي يحثُّ على أن تعمل الجمهورية الوليدة على استعادة سيادتها

ووحدتها عبر ضم باقي الأقاليم الأخرى، وهي: منطقة الصومال الغربي (أوغادين)، والصومال الفرنسي (جيبوتي)، والإقليم الشمالي الشرقي لكينيا[29].

خريطة (3): حدود أرض الصومال

المصدر: https://studies.aljazeera.net/ar/reports/2013/10/201310975423658504.html

2. التأثير في التوازنات الإستراتيجية في إقليم القرن الإفريقي:

على المستويين الإستراتيجي والجيو-سياسي، يضمن امتلاك منفذ بحري لإثيوبيا على البحر الأحمر لعب دور في معادلة أمن البحر الأحمر، وامتلاك قاعدة بحرية إثيوبية بالقرب من مضيق باب المندب بحجة تعزيز التجارة الإثيوبية وحماية مرور التجارة الدولية والملاحة البحرية. وقد يضمن المنفذ البحري لأديس أبابا في الوقت نفسه زيادة اعتماد القوى الدولية الفاعلة في المنطقة عليها كي تستعيد ثقة الغرب، لا سيما بعد تراجع العلاقات بين الطرفين بسبب تداعيات الحرب الإثيوبية الأخيرة في إقليم تيغراي شمال البلاد، إضافة إلى ما يحققه ذلك من تنويع خياراتها الإستراتيجية بدلًا من الاعتماد على ميناء جيبوتي وحده[30].

إن إعادة التشكيل والتركيب، وإعادة التبلور والبناء، كلها تعبيرات وتوصيفات غلبت على تحليلات المتابعين لشؤون منطقة القرن الإفريقي عقب إبرام مذكرة التفاهم بين أديس أبابا وأرض الصومال، وارتبطت بالتوقعات المحتملة حول طبيعة التحالفات البينية لدول المنطقة المحيطة بإثيوبيا. وقد تركزت هذه القراءات حول كل من مصر والسودان والصومال وإريتريا وجيبوتي. من الوهلة الأولى نجد أن هذه الدول ترتبط

باشتراكها في البُعد العربي، إلا إذا استثنينا إريتريا ذات الشريحة المهمة من المكوّن العربي في تركيبتها السكانية، أو بتعبيرٍ أدق بمزيجها الثقافي. ومن الناحية الواقعية السياسية، تتأثر هذه الدول كلها بدرجاتٍ وحسابات متفاوتة ومتباينة بالخطوة أحادية الجانب من طرف إثيوبيا. فالتنبؤات بخلق مساحات تقارب أكثر بين الدول الخمس المذكورة، تجد لها صدى وتبريرًا موضوعيًّا لا يقل أهمية. فبالنسبة لمصر والسودان، ترى في البحر الأحمر منطقة نفوذ حيوي لمصالحهما التجارية والاقتصادية قد تتأثر بوجود حالة التوجس الدائمة من سلوكيات أديس أبابا الإقليمية، خصوصًا منذ مجيء آبي أحمد إلى الحكم عام 2018م، وسياساته الانفرادية المندفعة حيال مياه النيل وتشييد سد النهضة. إريتريا تؤمن بكون الخطوة الإثيوبية اعتداءً صارخًا على سيادة دولة شقيقة، وقد يتكرّر -الاعتداء- عليها في حالة السكوت عليه وعدم مجابهته بشكل جماعي وبحزم.

ومع الأخذ في الاعتبار رفض أسمرة اتفاق بريتوريا الذي وقعته إثيوبيا مع جبهة تيغراي في نوفمبر 2022م لوقف الحرب، وما تردد عن دعم أسمرة جبهة فانو الأمهرية في حربها الأخيرة ضد النظام، كلها عوامل أسهمت في بداية التقارب مجددًا بين إريتريا والقاهرة، خصوصًا في رؤاهما للقضايا الإقليمية المهمة. أما جيبوتي، فتتعامل مع الحدث باعتباره ناسفًا لجهودها الدبلوماسية الرَّامية إلى تقريب الفرقاء الصوماليين، خصوصًا أنه جاء بعد يومين فقط من إبرام اتفاق استئناف المفاوضات بين الحكومة المركزية بمقديشو وسلطات الحكم بأرض الصومال[31]. أضف إلى ذلك تهديد مصالحها الاقتصادية المتمثلة في إيرادات مينائها الذي يمر به ما يزيد على 90% من التجارة الإثيوبية. هذه المؤشرات كلها تنبئ باحتمالية قوية لتشكّل جبهة صدّ إقليمية في وجه التوجهات والسياسات الأحادية لأديس أبابا بالمنطقة.

من جانب آخر، وبالنظر إلى الخصوصية والأهمية التي تكتسيها قضايا منطقة القرن الإفريقي والبحر الأحمر، فإن لتداعيات القرار الإثيوبي أبعادًا مُركَّبة ومتشعبة، تتصل في مجملها بمصالح الدول الفاعلة والباحثة عن لعب أدوارٍ جديدة على المستويين السياسي والاقتصادي، فبالإضافة إلى التداعيات الآنفة المرتبطة بإعادة تشكيل موازين القوة والتحالفات لدول القرن الإفريقي، فإنَّ للقرار انعكاسات على سياسات قوى إقليمية ودولية أخرى على غرار الإمارات العربية المتحدة، وتركيا، وإيران.

3. التأثير في توجهات القوى الإقليمية والدولية في منطقة البحر الأحمر والقرن الإفريقي:

في شِقّ التداعيات الإقليمية المحتملة، نجد الدور الإماراتي بمنطقة البحر الأحمر، وهو المحور الأكثر ديناميكية وفاعلية، على الأقل إذا ما قُورن ببقية دول المنطقة من الدول العربية غير الإفريقية. فمنذ فترةٍ زمنية ليست بالمحدودة ركّزت دولة الإمارات في توجهاتها الاقتصادية والسياسية على إقامة شريطٍ من الموانئ على طول ساحل البحر

الأحمر، بهدف ضمان سلاسةٍ في سلاسل الإمداد التجاري المتّصلة باقتصادها القومي والعالمي ككل. فباستثناء جيبوتي وإريتريا، توجد المصالح الإماراتية عبر موانئ المنطقة كافة، ممثلةً في شركتي «موانئ دبي العالمية» و«موانئ أبوظبي»، تحاكي من خلالها الرؤية الصينية لطريق الحرير، إذ تسعى أبوظبي إلى رسم خط تجاري بشرق إفريقيا يبدأ من مصر وصولًا إلى موزمبيق. وتدخل في هذا النطاق المباحثات المعمَّقة مع الحكومة الكينية لتوقيع اتفاقية لتطوير منطقة دونغو كوندو الصناعية بالقرب من ميناء مومباسا مقابل 300 مليون دولار[32]. واتّساقًا مع الخطوة الإثيوبية لعقد مذكرة التفاهم مع أرض الصومال، وهو الأمر الذي لا تعترض عليه الإمارات بشكل عملي، بالنظر إلى أنه قد سبق أن منحت شركة موانئ دبي ما نسبته 19% من أسهم ميناء بربرة بأرض الصومال لأديس أبابا عام 2022م[33]، باعتبارها خطوة عكسية لفسخ جيبوتي عقد امتياز لاستغلال مينائها الرئيسي عام 2019م، وهي الخُطى التي من شأنها تعزيز مراكز نفوذ الحليف الإثيوبي بساحل البحر الأحمر.

من ناحية أخرى، وتركيزًا على خارطة المصالح المعقدة بمنطقتَي القرن الإفريقي والبحر الأحمر، فإننا لا نستطيع بأي حالٍ من الأحوال تجاهل الدور التركي المتعاظم بالسّاحة، فدوائر صناعة القرار بأنقرة، والمحمّلة بإرث وتصوّر ضارب في التاريخ، يعود إلى مرحلة الوجود العثماني على ضفاف المياه الدافئة بالبحر الأحمر، يلعب أدوارًا كبيرة في تحريك دفّة السياسة الخارجية تجاه هذا المجال الجغرافي متعاظم الأهمية إقليميًّا، وقاريًّا ودوليًّا. وعليه فطالما ركزت تركيا بشأن توسيع مجالات نفوذها بالقارة الإفريقية على توطيد تأثيرها في الدول والكيانات السياسية الفاعلة بالمنطقة.

وفي هذا الصّدد، فقد أعقبت الخطوة الإثيوبية، بتوقيعها لمذكرة تفاهم مع أرض الصومال مطلع العام الحالي، توقيع تركيا والصومال اتفاقًا في مجال التعاون الدفاعي لمدة عشر سنوات، يسمح للجيش التركي بحماية السواحل البحرية للصومال، ويمنح أنقرة حق استغلال 30% من ثروات الساحل الصومالي، الأطول في القارة الإفريقية. وتضمَّن توقيع الاتفاقية تعاونًا دفاعيًّا واقتصاديًّا، ومكافحة جرائم القرصنة، ومنع التدخلات الأجنبية، والصيد غير القانوني، وتدريب القوات البحرية الصومالية وبناءها وإمدادها بالمعدات[34]. مع الإشارة إلى الاستفادة التركية من امتياز استغلال ميناء مقديشو لمدة 20 عامًا بمقتضى الاتفاق الثنائي عام 2016م، إذ تولت بموجبه مجموعة البيرق التركية مهام إدارة ميناء مقديشو بمجموع إيرادات بلغت 45%. وقد يتأثر ذلك بالوجود الإثيوبي على سواحل إقليم أرض الصومال، وتدخل دولة الصومال أيضًا ضمن صُلب توجهات الساسة بأنقرة، وهو الأمر الذي يفسّر إقامة القاعدة العسكرية التركية بالأراضي الصومالية عام 2011م، ناهيك ببرامج المساعدات والمشاريع التنموية، من تشييدٍ لمدارس ومستشفيات وتعبيد طرق برّية. وللمحور العسكري للسياسة التركية بالمنطقة خلفيته، إذ سبقه انضمام القوات البحرية

التركية في قوة المهام المشتركة الدولية[35] (CTF-151) لمحاربة القرصنة في خليج عدن والبحر الأحمر في 25 فبراير 2009م، وكذا إقامة القاعدة العسكرية الثانية بدولة جيبوتي عام 2016م.

وبالانتقال إلى الحالة الإيرانية، فإن مجال التفسير والتحليل حول التداعيات المحتملة لإبرام مذكرة التفاهم الإثيوبية-أرض الصومال، يكتسي بطابع معقد، بل ومتناقض في بعض جوانبه. فدون أدنى شكّ، تطغى الأهمية المتعاظمة لمنطقة القرن الإفريقي والبحر الأحمر بالنسبة لبوصلة السياسة الخارجية لطهران منذ عام 1979م، لكن ارتباطها بمساعي أديس أبابا للوصول إلى البحر الأحمر، يلقى بعض الغموض في التفسير. فطهران التي أبانت على مساحة واسعة للتعاون العسكري مع إثيوبيا، خصوصًا في أثناء الصراع والحرب الداخلية التي أدارتها الحكومة المركزية ضد مسلحي إقليم تيغراي، عبر التزويد بالمسيّرات (التجسسية/الهجومية) من نوع «مهاجر 6»[36] سعيًا منها ليكون لها وجود وثيق وصلة بإحدى أكبر دول المنطقة المتمثّل في إثيوبيا، فإنّه يصطدم مع السيناريو الإثيوبي المحتمل للوجود بسواحل البحر الأحمر عبر أرض الصومال بهدف الإسهام في الاستفادة من حركية التجارة العالمية والتقرّب أكثر من القوى الغربية. وذلك في الوقت الذي تشهد فيه هذه الحركية تأزمًا بسبب سياسات الحوثيين (الذراع الإيرانية)، نتيجةً للأحداث المتسارعة الناجمة عن العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، الأمر الذي قد تكون له تداعيات سلبية بعيدة المدى للمصالح السياسية والإستراتيجية الإيرانية بالبحر الأحمر.

ويعكس الموقف السعودي من رفض هذا الاتفاق، أهمية المنطقة لدى الرياض على مدار السنوات الماضية، لا سيما بعد أن أصبح القرن الإفريقي مجالًا للتنافس الجيو-سياسي، وبعدما أصبح في بؤرة الاهتمام الإقليمي والدولي. وجدير بالذكر الإشارة إلى أن العلاقات بين السعودية والصومال قد تطورت خلال السنوات الأخيرة، لا سيما على الصعيد الاقتصادي، إذ زاد حجم التجارة البينية في عام 2022م بنسبة تصل إلى 105% مقارنة بعام 2021م. وتتطلع المملكة إلى ضخ مزيد من الاستثمارات في الصومال، وهي بذلك تزاحم أدوارًا أخرى إقليمية ودولية، لكن مدخل السعودية هو التعاون ودعم الاستقرار وتحفيز التنمية والعلاقات الاقتصادية المتبادلة[37]. كذلك تجدر الإشارة إلى أن الاتفاق الأمني الذي وقعته السعودية والصومال الفيدرالية في نوفمبر 2023م، ويتعلق بتعزيز التعاون الأمني بين البلدين، ومكافحة الإرهاب وتبادل المعلومات الاستخبارية وبناء القدرات، يعطي مؤشرًا إضافيًّا إلى تطلعات المملكة للعب دور مؤثر في منطقة القرن الإفريقي والبحر الأحمر بما يتوافق مع تطلعاتها في المنطقة ومشروعاتها.

4. تعزيز الفوضى الإقليمية وتقويض الجهود المشتركة لمواجهة الجماعات المتطرفة:

قد تجد الجماعات المتطرفة في منطقة القرن الإفريقي في التوتر الناجم عن الخطوة الإثيوبية فرصة لتعزيز أنشطتها، وفي هذا الصدد لم يُخفِ الرئيس الصومالي حسن شيخ محمود، في تصريحاته وتعليقه على مضمون مذكرة التفاهم، خوفه من التداعيات السلبية المحتملة على المنطقة كافة في المدى القريب. وقد ألمح إلى إمكانية تقويض الجهود الدولية والإقليمية الرّامية لمكافحة الجماعات المسلحة المتطرفة، وخصّ بالذكر حركة «الشباب المجاهدين» النشطة في ربوع أقاليم ودول القرن الإفريقي بشكل عام، عبر استغلالها حالة عدم الاستقرار الأمني والفوضى التي قد تنجم جرّاء السياسة العدائية الإثيوبية[38].

وعليه، ووفق القراءات المختلفة للمراقبين، فقد ينعكس تطور المشهد الصدامي بين إثيوبيا والصومال بشكل سلبي على التنسيق الثنائي بشأن جهود مكافحة الحركة التي لديها ارتكاز عملياتي في الصومال، وتنفذ عمليات في دول مجاورة، إذ تُعد إثيوبيا من الدول المشاركة بعناصر عسكرية في بعثة الاتحاد الإفريقي الانتقالية في الصومال (ATMIS)، وذلك بجانب كل من بوروندي، وجيبوتي، وكينيا، وأوغندا، استنادًا إلى المهام الموكولة إليها منذ أبريل 2022م، بناءً على قرار من مجلس السِّلم والأمن الإفريقي، وبموافقة من مجلس الأمن الدولي[39].

الخاتمة

أسهمت الأحداث والتحوُّلات التي شهدتها منطقتا القرن الإفريقي والبحر الأحمر طوال العقد الأخير، بشكلٍ تراكمي تدريجي، في تبلور ملامح لمشهدٍ جديد من التحالفات والتفاعلات الجيو-سياسية العميقة، وفتحت مجال التنبؤ بسيناريوهات مستقبلية على أبعد الحدود. وما الأزمة الأخيرة الناتجة عن تداعيات إبرام مذكرة التفاهم ما بين أديس أبابا وأرض الصومال إلا حلقة صغيرة في سلسلةٍ طويلة من المستجدات التي قد تؤثر في أمن واستقرار المنطقة. فالخطوة الإثيوبية، كما جرى التوضيح، درست المعطيات الإقليمية واتّساقها مع السياق الزمكاني الحالي الذي يمر به البحر الأحمر من تجاذبات، الأمر الذي قد يعطي تصوّرًا عن توازنات القوة على المنظور القريب. فالسياسة الإثيوبية ما فتئت تجعل من مقاربة «الأمر الواقع» نهجًا ميدانيًّا منذ عام 2018م بالرّغم من تصريحاتها الظاهرية بالحرص على مبدأ «تصفير المشكلات» مع دول الإقليم.. وقد اتضح هذا بشكل جليٍّ في التطورات المطّردة التي شهدها ملف مياه النيل في مواجهة كل من مصر والسودان.

ومن جهةٍ أخرى فإن «الأمر الواقع» محصّلة استغلته أرض الصومال وستسعى لاستخدامه ورقةً إستراتيجية مهمة في سبيل نيل اعتراف دولي من وحدات وفواعل سياسية جديدة، فهي بذلك الرابح الأكبر من كل هذه التجاذبات المتسارعة.. بالإضافة إلى كون الأزمة رجّحت

إمكانيات تقارب أكثر ما بين القاهرة، ومقديشو، وأسمرة، فالأطراف الثلاثة أضحت ترى في النهج الإثيوبي المصرّ على الوصول إلى البحر مهدّدًا لاستقرار المنطقة وأمنها القومي، ناهيك بتهديد مصالحهم الاقتصادية والتجارية الحيوية.

وعليه فالوضع في البحر الأحمر والقرن الإفريقي يبدو أنه في طريقه إلى سيناريوهات مفتوحة الاحتمالات والرهانات المستقبلية المعقّدة.

المراجع والمصادر

(1)UN-OHRLLS, Landlocked Developing Countries: Things to Know, Things to Do, (New York, 2024), p1.

(2) UN-OHRLLS, Landlocked Developing Countries Fact Sheet 2022, (New York, 2020), p 1.

(3) Daosadeth Soysouvanh, Freight Transport in Least Developed Landlocked Countries: a Case Study of Laos PDR, Submitted in Accordance with the Requirement for the Degree of Doctor of Philosophy, (Leeds, The University of Leeds, Institute for Transport Studies, June 11, 2018), p1.

(4) Mahdi, Samiullah, Security and Foreign Policy of Landlocked States, Graduate Masters Theses, (Boston, Massachusetts, University of Massachusetts Boston, 2016), p5.

(5) Lahiri, Bidisha & Masjidi, Feroz K., Landlocked Countries: A Way to Integrate with Coastal Economies, Journal of Economic Integration, vol. 27, (Seoul, Sejong University: Center for Economic Integration, 2012), p506.

(6)Ingo Borchert (et al), Landlocked or Policy Locked? How Services Trade Protection Deepens Economic Isolation, Paper Prepared for the Workshop: Aid for Trade.. What Have we Learnt? Which way Ahead?, (Geneva, International Conference Centre, Dec. 06, 2012), p2.

(7) طارق قابيل، أكسوم المنسية.. العثور على مدينة تاريخية مفقودة لمملكة النجاشي، الجزيرة نت، (29 ديسمبر 2019م)، تاريخ الاطلاع: 29 فبراير 2024م، https://bitly.ws/3eCMF

(8) Gulaid Yusuf Idaan, Undying Ambition Ethiopia's Enduring Quest for Access to the Sea-Historical Foundations, Geopolitical Strategies, and Regional Implications, (Dec. 24 2023), accessed: Feb. 29, 2024, https://bitly.ws/3eCNG

(9) Samuel Negash, Ethiopia's Elusive Quest for an Outlet to the Sea: The Case of the Haud-Zeila Exchange from the 1920s to the 1950s In: Movements in Ethiopia, Ethiopia in Movement, Vol. 1, Proceedings of the 18th International Conference of Ethiopian Studies, (Addis Ababa, Los Angeles: Centre français des études éthiopiennes, Feb. 25 2024), p14.

(10) Ahmed Cadde, Ethiopia's Dreams of Capturing Zeila, @AhCadde, Twitter «X», (January 01, 2024), 6:53 PM, accessed: March 01, 2024, https://bitly.ws/3eHLA

(11) Somalialandsun, Ethiopia Offers Britain Land in Exchange for Zeila Port of Somaliland – 1946, (Dec. 10, 2013), accessed: March 01,2024,: https://bitly.ws/3eHMR

(12) Global Infrastructure Hub, Addis Ababa-Djibouti Railway (Ethiopia – Djibouti), Ramboll, accessed: March 01, 2024, p 02, https://2u.pw/OkmYzCd2

(13) Ibid, p75.

(14) الجزيرة نت، رئيس جيبوتي يدشن طريقًا رابطًا بين ميناء تاجورا وشمالي إثيوبيا، (07 نوفمبر 2019م)، تاريخ الاطلاع: 06 مارس 2024م، https://bitly.ws/3faqV

(15) ماركوس فيرجيل هوهن، التجارة والصراع والتفتت.. أزمة السيادة في القرن الإفريقي، (22 مارس 2024م)، تاريخ الاطلاع: 23 مارس 2024م، https://bitly.ws/3gBmx

(16) مصطفى أحمد، لأجل المياه الدافئة.. هل يُشعل آبي أحمد حربًا في البحر الأحمر؟ الجزيرة نت، (23 ديسمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 10 مارس 2024م، https://bitly.ws/3fsSv

(17) الشرق الأوسط، رئيس وزراء إثيوبيا: لن نغزو أي بلد للوصول إلى البحر الأحمر، (14 نوفمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 10 مارس 2024م، https://bitly.ws/3fsWn

(18) عبد الرحمن عبد الله باديو، الآثار السلبية لمذكرة التفاهم بين إثيوبيا وأرض الصومال في القرن الإفريقي، (13 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 10 مارس 2024م، https://bitly.ws/3ft5R

(19) بي بي سي عربي، ماذا نعرف عن أرض الصومال ومذكرة التفاهم بينها وبين إثيوبيا؟ (09 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 10 مارس 2024م، https://bitly.ws/3ft4d

(20) أحمد عسكر، التنافس الدولي على الموانئ البحرية في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، سلسلة كراسات إستراتيجية، المجلد 31، العدد 342 (القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، نوفمبر 2022م)، ص10.

(21) ماركوس فيرجيل هوهن، التجارة والصراع والتفتت.. أزمة السيادة في القرن الإفريقي، مرجع سابق.

(22) روسيا اليوم، الرئيس الصومالي يوقع على قانون إلغاء الاتفاقية المبرمة بين إثيوبيا وإقليم أرض الصومال، (06 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://bitly.ws/3fTMU

(23) صحيفة العرب، الاتحاد الإفريقي يمسك العصا من المنتصف في الخلاف الناشئ بين الصومال وإثيوبيا، (05 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://bitly.ws/3fXuu

(24) إبراهيم صالح، من الجفاف إلى الصراعات.. كيف تواجه «إيغاد» أزمات شرق إفريقيا؟ الجزيرة نت، (13 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://bitly.ws/3fXtb

(25) القدس العربي، الجامعة العربية ترفض وتدين مذكرة تفاهم إثيوبية لانتهاكها سيادة الصومال وسلامة أراضيها، (03 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://bitly.ws/3fXBD

(26) الجزيرة نت، إدانة عربية لإثيوبيا.. ومصر تعتبرها مصدرًا لبث الاضطراب بالمنطقة، (17 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://bitly.ws/3fZok

(27) الشرق الأوسط، في بيان مشترك.. السعودية تؤكد سيادة الصومال على كامل أراضيه، (07 أبريل 2024م)، تاريخ الاطلاع: 30 أبريل 2024م، https://2h.ae/YMLC

(28) مصطفى أحمد، لأجل المياه الدافئة.. هل يُشعل آبي أحمد حربًا في البحر الأحمر؟ مرجع سابق.

(29) محمود زكريا، منفذ بحري.. كيف تصاعدت التوترات بين إثيوبيا والصومال؟ إنتريجونال للتحليلات الإستراتيجية، (26 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://bitly.ws/3fTNI

(30) مصطفى أحمد، لأجل المياه الدافئة.. هل يُشعل آبي أحمد حربًا في البحر الأحمر؟ مرجع سابق.

(31) بدر حسن شافعي، مصر وإمكانية تطويق إثيوبيا في القرن الإفريقي، الجزيرة نت، (31 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 31 مارس 2024م، https://bitly.ws/3h7UC

(32) نذير العربي، ما أهداف الإمارات من «غزو» الموانئ شرق إفريقيا؟ موقع عربي 21، (14 أبريل 2023م)، تاريخ الاطلاع: 31 مارس 2024م، https://bitly.ws/3h7Mx

(33) أحمد عسكر، التنافس الدولي على الموانئ البحرية في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، مرجع سابق.

(34) أروى حنيش، الاتفاق الدفاعي بين تركيا والصومال.. هل يمنح تركيا أن تكون لاعبًا في توازنات القرن الإفريقي؟ موقع عرب جورنال، (12 مارس 2024م)، تاريخ الاطلاع: 15 أبريل 2024م، https://arab-j.net/21355

(35) ترك برس، تنامي نفوذ تركيا في البحر الأحمر بقوات ناعمة وخشنة.. لماذا الآن؟ (09 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 31 مارس 2024م، https://bitly.ws/3h7J3

(36) محمد محسن أبو النور، دلالات الدعم الإيراني العسكري المكشوف لإثيوبيا وأبعاده، (29 أكتوبر 2021م)، تاريخ الاطلاع: 31 مارس 2024م، https://bitly.ws/3h7QF

(37) الشرق الأوسط، في بيان مشترك... السعودية تؤكد سيادة الصومال على كامل أراضيه، مرجع سابق.

(38) العربية نت، الرئيس الصومالي للعربية: مذكرة التفاهم بين إثيوبيا وأرض الصومال أداة لتجنيد المتطرفين، (21 يناير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://bitly.ws/3fTRv

(39) محمود زكريا، منفذ بحري.. كيف تصاعدت التوترات بين إثيوبيا والصومال؟ مرجع سابق.

مجلة الدراسات الإيرانية

دراسـات وأبحـاث علميـة متخصصـة

International Institute for Iranian Studies,
Al-Takhassusi St. Sahafah, Riyadh
Kingdom of Saudi Arabia.
P.O. Box: 12275 | Zip code: 11473

Connect with us

info@rasanahiiis.com
+966112166696